العاشق العفيف

عروة بن حزام

تأليف

د. مسعد بن عيد العطوي

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

شبكة الألوكة

www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العاشق العفيف

عروة بن حزام

تأليف

د. مسعد بن عيد العطوي

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة التوبة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي منح الإنسان العقل وفضله على سائر مخلوقاته ، وجعله خليفة ، بانياً ومعمراً لهذا الكون ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيدنا وقائدنا محمد قائد الغر المحجلين ، وبعد :

إن تواصلي مع تاريخ الأدب العربي في عصوره المتتالية ، فتح لي آفاقاً رحبة ، وأضاء لي سبلاً معتمة ، ربما توردني إلى لجج يخشى الإنسان الغوص فيها ، غير أن من سلك سبل التحصيل فلا مندوحة له من التنقيب والبحث والتمحيص حتى يزداد معرفة ، ويثمر جهده الفكري نتاجاً ويتبلور عملاً منشوراً .

والإنسان كل إنسان متواصل مع وطنه ودياره ، فإذا ما وجد ميداناً علمياً في تراثه ، وما يتواصل مع إقليمه ، فمن الخير أن يـ علو غامضه ، ويكشف مستوره ، فضلاً عن معرفته المتمكنة منه ، ولأني عشت في الجزيرة العربية ، فكثيراً ما يشدني الأدب العربي القديم الذي ألمح فيه أسماء الجبال والأودية ، والشعاب والتلال التي أسير في دروبها ، وأستروح عبير رياضها وأمتع بصري بأزهارها وورودها ، وليس هذا فحسب فكثيراً ما أتبصر معان أخالف فيها شراح النص الأسلاف مع علمهم وفضلهم ، لكنهم لم ينغمسوا في بيئة الشعراء القدامى كما نعيش أبناء الجزيرة .

من هذا الميدان تراءت لي موضوعات كثيرة فتواصلت مع الأدب عامة والشعر خاصة ، ذلك الشعر الذي فاض من نبع الشعراء في شمال غرب الجزيرة سيما وإن أدب المنطقة لم يعن به الباحثون ، وكنت أخوض في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عبابه وشعبانه حتى عثرت على الشاعر العذري العاشق العفيف عروة بن حزام ، الذي عاش في مرابع تبوك ومشارفها ، البلد الذي نشأت فيه وتعرفت على معالمه وأدركت الوشائج الاجتماعية وأسماء الأماكن التي تمت إلى الأدب القديم وما زالت آثارها واضحة وأسماء الأماكن باقية وإن طرأ على جلّها بعض التحريف وقد عادت إليها جذوة الأدب في عهد الملك عبد العزيز . وازدهرت حضارتها ـ بما لم تسبق إليه في أحقابها ـ في ظلال العهد السعودي الزاهر ، فآثرت عروة هذا بأولية البحث من بين الأبحاث المتعاركة ذات الثراء المضموني والجمالي .

وشدني إليه أنه أول العذريين والشاعر الأول الذي فتق معاني الحب والعشق تماماً كما فتق امرؤ القيس أوليات الشعر للشعراء العرب . فالقارىء لقصيدته النونية يستدعي ما قاله مجنون ليلى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ونرد جل معانيهم إلى شعر عروة .

والشاعر يبلور التربية الإسلامية الأولى في القبائل العربية ، فشذب الإيمانُ الإنسانَ العربي ، واستخلص منه الخير ونماه وزرعه في كيانه فتنامى الصلاح والصدق والطهر والعفاف ومراقبة الله ، وطلب رضاه ، واجتناب نواهيه ومحرماته . ولم تأمر النفس الإنسانية بالشر أكثر من دفعها إلى هتك الأعراض غير أن الإسلام هيمن على النفس الأمّارة بالسوء ، فغلب التقى والعفاف وتجسَّد ذلك في الفتى العاشق عروة بن حزام الذي شغف حباً بابنة عمه عفراء وهام بها ، ورغم الخلوة التي تتاح لأبناء البادية ، فإنه لم يزدد لها إلا إجلالاً وتقديراً ولم يقترف منها لذة بحرام ، ولم يعف عن ابنة عمه فحسب بل أعرض عن كل محرم وما يخامر العقل مما هو واضح في سيرته التي سنسردها إن شاء الله .

ونظراً لأن الشاعر عاش في عهد الخلفاء الراشدين تلك الفترة العالقة في ذهن كل مسلم فمن الإعادة والتكرار أن نتحدث عنها . وقد قسمت الكتاب إلى فصول :

الفصل الأول : تناولت فيه : الحديث عن قبيلته ، والدور السياسي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لبني عذرة ، وظهور الغزل العذري فيها ، وأخبار شعراء الحب العذري من بني عذرة .

الفصل الثاني : تحدثت فيه عن حياته : من نسبه وزمن مولده ومكانه ، ووفاته ووفاة عفراء ونشأته وتنامي الحب وغلبته ، وخطبة عفراء وزواجها ورحلاته .

الفصل الثالث : دراسة شعره ، وتحدثت فيه عن توصيف الديوان عن نفسية الشاعر ولغته وعن السردية والتقريرية والجملة الخبرية والذاتية وعن الصورة الفنية والموسيقى الشعرية ودراسة النونية وأقوال النقاد .

الفصل الرابع : ملحق:

أ ـ ما لم يرد في ديوانه .

ب ـ شعر عفراء .

جـ ـ ما قيل في حبِّ عروة وعفراء .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الأول

قبيلته

- الدور السياسي لبني عذرة
- ظهور الغزل العذري
- الحب العذري في قبيلة بني عذرة
- أخبار العشاق من بني عذرة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قبيلته

ينتمي عروة بن حزام إلى سعد بن زيد بن ليث بن سود بن اسلم بن إلحاف بن قضاعة ، وسعد هـذيم أخو نهـد بن زيد بن ليث ، ونهـد هذا تنتمي له القبيلة الكبيرة التي قوَّضت كيانها الحروب المتوالية مع القبائـل العربية في وسط الجزيرة وجنوبها وشمالها[1] وكان جدهم نهد منيعاً ، كثير الولد وعمِّر عمراً طويلاً .

وأوصى نهد بنيه حين حضرته الوفاة بقوله : « أوصيكم بالناس شراً ضرباً أزّاً[2] وطعناً وخزاً ، كلموهم نزراً ، وانظروهم شزراً ، واطعنـوهم دسراً[3] ، اقصروا الأعنة ، وطروا الأسنة ، وارعوا الغيث حيث كان »[4] .

وقد آلتزموا بوصية كبيرهم فآثروا الحروب حتى ضعفوا وفتكت بهم القبائل . أما سعد هذيم ، فإنه سعد بن زيد ، وأما هذيم فإنه عبد أشرف على تربية سعد فأضيف إليه .

ويـرى البكـري الأنـدلسي أن أول من طلع إلى أرض نجـد في صحرائها : « جهيزة ونهد وسعد هذيم بنو زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن

---

(١) عبـد الله عبد العـزيز البكـري ، معجم ما استعجم ١٠ : ٣٢، ٣٣ تحقيق مصـطفى السقا ، ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب ٢ : ٢٩٦، دار الفكر ، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب القديم .

(٢) أزّاً : أي تزعج العدو وتغري بهم.

(٣) دسر : الطعن والدفع الشديد.

(٤) معجم ما استعجم ١ : ٣٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلحاف بن قضاعة فمر بهم راكب فقال : من أنتم ؟ فقالوا بنو الصحراء فقالت العرب : هؤلاء صحار ، اسم مشتق من الصحراء وقال زهير بن جناب الكلبي في ذلك وهو يعني بني سعد بن زيد :

فما إبلي بمُقْتَدَرٍ عليها ... ولا حِلمي الأصيل بمستعارِ
ستمنعها الفوارس من بَليٍّ ... وتمنعها فوارسُ من صُحَار
ويمنعها بنو القين بن جسر ... إذا أوقدتُ للحَدَثان ناري
ويمنعها بنو نهدٍ وجَرْمٌ ... إذا طال التجاول في الغِوار
بكلُ مناجِدٍ جَلْدٍ قواهُ ... وأهْيَبُ[1] عاكفون على الدوار[2]

وقال بشر بن سوادة بن شلوة التغلبي ، إذ نعى بني عدي بن أُسامة بن مالك التغلبيين إلى بني الحارث بن سعد هذيم :

ألا تُغني كِنانَةُ عن أخيها ... زهير في المُلِمّاتِ الكبارِ
فيبرُزَ جمعُنا وبنو عدي ... فيُعلم أُبَنا مولى صُحار[3]

وقال بشر بن أبي خازن الأسدي : ـ

وشبَّ لطيء الجبلين حَرْبٌ ... تَهِرّ لشجوها منها صُحَار[4]

« وارتحلت سعد هذيم وغيرها من أبناء قضاعة إلى الشمال الغربي للجزيرة ، فوجدوا بلاداً واسعة خالية في أطراف الشام ، وقد خرب أكثرها واندفنت آبارها ، وغارت مياهها لإخراب بختنصر لها ، فافترقت قضاعة فرقاً أربعة »[5] . أما سعد هذيم وإخوتهم نهد أبناء زيد بن ليث فنزلوا وادي القرى والحجر والجناب ، وما ولاهن من البلاد ، ولحقت بهم حوتكة بن سود بن أسلم بن إلحاف بن قضاعة فلم يزالوا بها حتى كثروا وانتشروا فوقعت بينهم حرب ، وكانت العدد والقوة والعز والثروة في قبائل سعد

(١) أهيب: بن كلب بن وبرة.
(٢) معجم ما استعجم ١ : ٣٠.
(٣) معجم ما استعجم: ١ : ٣١.
(٤) معجم ما استعجم ١ : ٣١.
(٥) معجم ما استعجم ١ : ٢٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأخرجوا نهداً وحوتكة وبطون جرم منها ، ونفوهم عنها ورئيس بني سعد يومئذ رزاح بن ربيعة بن حزام بن ضنية بن عبد كبير بن عذرة بن سعد بن زيد وهو أخو قصي بن كلاب لأمه ، ولم يجتمع قضاعة على أحد غيره وغير زهير بن جناب الكلبي ، فقال زهير لما بلغه الذي كان من أمرهم ، وإخراج رزاح لفروع قبائله من تلك البلاد كراهة لذلك ، وعرف ما في تفرقهم من القلة والوهن ساءه ذلك : ـ

ألا من مبلغٌ عني رِزاحاً ... فإنّي قد لحيتُكَ في اثنتينِ
لحيتك في بني نهد بن زيدٍ ... كما فرَّقتَ بينهم وبيني
أحوتكة بن أسلم إنّ قوماً ... عَنَوكم بالساءة قد عنوني[1]

واستوطنت قبائل سعد هذيم بن زيد وادي القرى والحجر والحناب وما ولاها من البلاد ، فتكاثروا وانتشروا وتفرقوا أفخاذاً أو قبائل فكان في عذرة بن سعد وأمه عاتكة بنت مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ـ العدد والشرف ومنهم رزاح بن ربيعة أخو قصي بن كلاب لأمه ، وفيهم بيت بني عذرة بن سعد ـ وأمه : فاطمة بنت سعد بن سنبل .

« وكان أهل وادي القرى وما والاها اليهود يومئذ ، وكانوا نزلوها قبلهم على آثار من آثار ثمود والقرون الماضية ، فاستخرجوا كمائنها ، وأساحوا عيونها ، وغرسوا نخلها وجنانها ، فعقدوا بينهم حلفاً وعقداً وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ، ومنعوا لهم من العرب ، ودفعوا عنها قبائل بلى بن عمرو بن إلحاف وغيرهم من القبائل »[2] .

وقد قوي بأسهم ، واشتدت شكيمتهم ، وأخذت القبائل ترهب بأسهم حتى همَّ النعمان بن الحارث الغساني أن يغزوهم فحذره الشاعر النابغة الذبياني فلم يسمع منه فغزاهم وهزموه شر هزيمة وفي ذلك يقول الذبياني : ـ

---

(١) معجم ما استعجم: ٣٨: ٣٩ بتصرف.
(٢) معجم ما استعجم ١ : ٤٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد قلتُ للنعمانِ يوم لقيته ... يُريد بني حُنٍّ ببرقة[1] صادرِ
تجنَّبْ بني حُنٍّ فإن لِقاءهم ... كَريهٌ وإن لم تُلْقَ إلاّ بصابرِ
هُمُ قتلوا الطائيَّ بالحِجْر عنوةً ... أبا جابرٍ واستكحوا أمّ جابرِ
وهم ضربوا أنف الفزاري بعد ما ... أتاهم بمعقودٍ من الأمر فاقِرِ
وهم منعوها من قُضاعةَ كلِّها ... ومن مُضر الحمراء عند التغاور
وهم طرَّفوا عنها بليًّا فأصبحت ... بليٌّ بوادٍ من تهامةَ غائرِ
فتطمعُ في وادي القرى وحُنُوبه ... وقد منعوه من جميع المعاشر
وهم منعوا وادي القرى من عدوهم ... يجمع مُبيرٍ[2] للعدو المكاثرِ

وظل نفوذهم وسيادتهم على تلك البلاد حتى بعث رسول الله ﷺ فكانوا يأخذون الحيطة والحذر مع تعاملهم مع الرسول ﷺ حتى قبل أن يدخل الإسلام قلوبهم وربما ذلك نتيجة للعلاقة الحميمة بين بني قصي وعذرة ، فكانت تعبر جيوش الإسلام من المدينة المنورة إلى الشام فلا يعترضهم أحد مثل جيش غزوة مؤتة ، وغزوة ذات الطلاح ، وغزوة الرسول ﷺ حيث عبر بلادهم فأتت إليه وفودهم أثناء إقامته في تبوك في السنة التاسعة للهجرة .

وقد قدم وفد بني عذرة على الرسول ﷺ : حمرة بن النعمان بن هوذة بن مالك العذري فجعل له رمية سوطه ، وحضر فرسه من وادي القرى وجعل لبني عريض من اليهود تلك الأطعمة في كل عام من ثمار الأودية ، وكان بنو عريض أهدوا إلى النبي ﷺ خزيراً أو عريسة وامتحوه ، فطعمة بني عريض جارية إلى اليوم[3]، ولم يجلوا فيمن أجلي من اليهود[4] .

قال هشام : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الأنصاري ثم العجلاني عن إبراهيم بن البكير البلوي ، عن يثربي بن أبي قسيمة السلاماني ، عن أبي خالد السلاماني ، قال : خرج رجل من مِداش - ومِداش بن شق بن

(١) بنو حن : بن ربيعة بن حزام بن ضنة من بني عذرة بن سعد هذيم .
(٢) مبير : مهلك .
(٣) أيام تأليف الكتاب وقد توفى البكري الأندلسي سنة ٤٨٧ هجرية .
(٤) نقل بتصرف من معجم ما استعجم ١ : ٤٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عبد الله بن دينار بن سعد هذيم ، يقال له ورد فلقي حمرة بن النعمان بعد أن أقطعه رسول الله ﷺ الوادي ، فكسر عصا كانت بيد حمرة ، فاستادى حمرة عليه النبي ﷺ ، فقال دعو أسد الهورات ، فأقطعه حائطاً بوادي القرى يقال له حائط المِداش[1] .

وكانت بنو سعد هذيم من القبائل التي وفدت على الرسول ﷺ فأكرم وفادتها ، روى الواقدي عن ابن النعمان عن أبيه بن سعد هذيم قال : « قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي ، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد غلبة وأداخ العرب . والناس صنفان إما داخل في الإسلام راغب فيه ، وإما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد الحرام ـ يعني مسجد المدينة ؛ حتى انتهينا إلى بابه فنجد رسول الله ﷺ يصلي على جنازة في المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم وقلنا : حتى نلقى رسول الله ﷺ ونبايعه ثم انصرف ﷺ ، فنظر إلينا فدعا بنا فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا : من بني سعد هذيم فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا : نعم . قال : فهلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال ﷺ : أينما أسلمتم فأنتم مسلمون ، قالوا فأسلمنا وبايعنا . وقال النعمان : ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا أصغرنا ـ ولم يعرف البرهان اسمه ـ فبعث عليه السلام في طلبنا فأُتي بنا إليه قال : فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام فقلنا يا رسول الله إنه أصغرنا وخادمنا فقال : أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه ، قال النعمان : فكان والله خيرنا أقرأنا بدعاء رسول الله ﷺ ثم أمَّره علينا فكان يؤمنا ولما أردنا الإنصراف ، أمر بلالاً فأجازنا بأواقي من فضة لكل رجل منا فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام[2] .

ولما غزا الرسول ﷺ تبوك واستقر بها، وفد عليه وفد بني سعد هذيم فقالوا : يا رسول الله ، إنا قدمنا عليك وتركنا أهلنا على بئر لنا قليل ماؤها ،

---

(١) معجم ما استعجم ١ : ٤٥ .

(٢) وفود الإسلام تأليف أبي تراب الظاهري ص ١٨٠/١٨١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا القيظ ، ونحن نخاف إن تفرقنا أن نقتطع ، لأن الإسلام لم يفش حولنا بعد ، فادع الله لنا في ماء بئرنا ، وإن روينا به فلا قوم أعز منّا ، لا يعبر بنا أحد مخالف لديننا ، قال رسول الله ﷺ : أبلغوني حُصيات . فتناولت ثلاث حصيات فدفعتهن إليه ، ففركهن بيده ثم قال : اذهبوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوها واحدة وسمّوا ، فانصرفوا من عند رسول الله ففعلوا ذلك فجاشت بالرواء ونفوا من قاربهم من المشركين ووطئهم ، فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطأوا من حولهم عليه ودانوا بالاسلام[1] .

وفي شمال غرب الجزيرة تمثل بنو سعد هذيم مكانتها حيث قويت شوكتها قبل البعثة ، وبعد أن بارك الله لهم في بئرهم التي تُعدُّ من معجزات الرسول ﷺ - ومعجزاته في شمال غرب الجزيرة تبلور أكثرها في تدفق الماء وكثرته حيث الصحراء وغور الماء ونضوبه فأحوج ما يكون الإنسان إلى الماء ، فهذه عين تبوك الغائر ماؤها ينفث فيها الرسول ﷺ فيصبح لخريرها دوياً كدوي الرعد ، وهذا بئر بني سعد هذيم يزداد ماؤه بفضل رسول الله ﷺ حيث جمع حُصيات ودعا لهم عليها وأمرهم أن يقذفوها في البئر متتابعة فتدفق ماؤه وكان عوناً لهم على الدعوة إلى الله ومناصرة الرسالة .

وكان رجل من بني عذرة يقال له عدي يقول : جئت رسول الله ﷺ بتبوك فرأيته على ناقة حمراء يطوف على الناس يقول : أيها الناس ، يد الله فوق يد المعطي ، ويد المعطي الوسطى ، ويد المعطى السفلى . أيها الناس ، اقنعوا ولو بحزم الحطب اللهم ، هل بلغت ؟ ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله ، كان لي امرأتان[2] اقتتلنا فرميت فأصبت إحداهما[3] فرمى في رميتي - يعني ماتت ، كما تقول العرب : رمى في جنازته ، فقال

---

(١) الواقدي المغازي : ١ : ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، أحمد باشميل غزوة تبوك ١٤٠ .

(٢) في الأصل : «يا رسول الله امرأتين اقتتلتا» وما أثبتناه عن ابن الأثير . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٦).

(٣) في الأصل : «أحدهما».

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النبي ﷺ : تعقلها ولا ترثها .

وجلس رسول الله ﷺ في موضع مسجده بتبوك ، فنظر نحو اليمين ورفع يديه يشير إلى أهل اليمن فقال : الإيمان يمان ونظر نحو المشرق وأشار بيده : إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين[1] أهل الوبر من نحو المشرق حيث يطلع الشيطان قرنيه .

وقال رجل من بني سعد (بن) هذيم : جئت رسول الله ﷺ وهو جالس بتبوك ـ في نفر من أصحابه ، هو سابعهم ـ فوقفت فسلمت ، فقال : أجلس فقلت : يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، قال : أفلح وجهك ثم قال : يا بلال ، أطعمنا قال : فبسط بلال نطعاً[2] ، ثم جعل يخرج من حميت[3] له ، فأخرج خرجات بيده من تمر معجون بالسمن والأقط ، ثم قال رسول الله ﷺ : كلوا فأكلنا حتى شبعنا فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لآكل هذا وحدي . قال رسول الله ﷺ : الكافر يأكل في سبعة أمعاء[4] . والمؤمن يأكل في معي واحد . قال : ثم جئته من الغد متحيناً لغدائه لأزداد في الإسلام يقيناً ، فإذا عشرة نفر حوله . قال : فقال : هات أطعمنا يا بلال . قال : فجعل يخرج من حراب تمر بكفه قبضة قبضة ، فقال : أخرج ولا تخف من ذي العرش أقتاراً فجاء بالجراب فنثره . قال : فحزرته مدين . قال : فوضع النبي ﷺ يده على التمر ، ثم قال : كلوا باسم الله فأكل القوم وأكلت معهم ، وكنت صاحب تمر . قال : فأكلت حتى ما أجد له مسلكاً . قال : ويبقى على النطع مثل الذي جاء به بلال ، كأنّا لم نأكل منه تمرة واحدة . قال : ثم عدت من الغد . قال : وعاد نفر حتى باتوا ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين ، فقال : يا بلال أطعمنا . فجاء بذلك الجراب بعينه أعرفه فنثره ، ووضع

---

(١) الفدادون: الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم ، واحدهم فداد . (النهاية، ج ٣ ، ص ١٨٧).

(٢) النطع : بساط من الأديم (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٨٩) .

(٣) الحميت: الزق الذي لا شعر عليه ، وهو للسمن . (الصحاح ، ص ٢٤٧).

(٤) الأمعاء : جمع معي ، وهي المصارين . (للنهاية ، ج ٤ ، ص ١٠١) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ يده عليه فقال : كلوا باسم الله ، فأكلنا حتى نهلنا ، ثم رفع مثل الذي صب ففعل مثل ذلك ثلاثة أيام .

قال : وكان هرقل قد بعث رجلاً من غسان إلى النبي ﷺ فينظر إلى صفته وإلى علاماته ، إلى حمرة في عينيه ، وإلى خاتم النبوة بين كتفيه ، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقة ، فوعى أشياء من حال النبي ﷺ ، ثم انصرف إلى هرقل فذكر له ذلك ، فدعا قومه إلى التصديق به ، فأبوا حتى خافهم على ملكه ، وهو في موضعه لم يتحرك ولم يزحف . وكان الذي خبر النبي ﷺ - من بعثته أصحابه ودنوه إلى أدنى الشام - باطلاً ، ولم يرد ذلك ولم يهم به . وشاور رسول الله ﷺ في التقدم ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن كنت أمرت بالسير فسر ، قال رسول الله ﷺ : لو أمرت به ما استشرتكم فيه قال : يا رسول الله ، فإن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله عزّ وجلّ في ذلك أمراً .

قالوا : وهاجت ريح شديدة بتبوك ، فقال رسول الله ﷺ : هذا لموت منافق عظيم النفاق . قال : فقدموا للمدينة فوجدوا منافقاً قد مات عظيم النفاق .

قال : وأتى رسول الله ﷺ بجبنة بتبوك فقالوا : يا رسول الله ، إن هذا طعام تصنعه فارس ، وإنا نخشى أن يكون فيه ميتة . فقال رسول الله ﷺ : ضعوا فيه السكين واذكروا اسم الله .

قال : وأهدى رجل من قضاعة إلى النبي ﷺ فرساً ، فأعطاه رجلاً من الأنصار ، وأمره أن يربطه حياله استئناساً بصهيله ، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ففقد صهيل الفرس فسأل عنه صاحبه فقال : خصيته يا رسول الله قال رسول الله ﷺ : فإن الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، اتخذوا من نسلها وباهوا بصهيلها المشركين ، أعرافها أدفاؤها[1] ، وأذنابها مذابها . والذي نفسي بيده ، إن الشهداء ليأتون يوم

(١) الأدفاء : جمع دفء ، وهو ما يستدفأ به من الأوبار والأصواف . (النهاية ج ٢ ، ص ٢٦) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القيامة بأسيافهم على عواتقهم لا يمرون بأحد من الأنبياء إلاّ تنحى عنهم ، حتى إنهم ليمرون بإبراهيم الخليل خليل الرحمن فيتنحى لهم حتى يجلسوا على منابر من نور . يقول الناس : هؤلاء الذين أهريقوا دماءهم لرب العالمين ، فيكون كذلك حتى يقضي الله عزَّ وجلَّ بين عباده .

قالوا : وبينا رسول الله ﷺ بتبوك قام إلى فرسه الظرب فعلق عليه شعاره(١) وجعل يمسح ظهره بردائه . قيل : يا رسول الله . تمسح ظهره بردائك ؟ قال : نعم وما يدريك ؟ لعل جبريل أمرني بذلك ، مع أني قد بتُّ الليلة(٢) ، وإن الملائكة لتعاتبني في حس(٣) الخيل ومسحها . وقال : أخبرني خليلي جبريل أنه يكتب لي بكل حسنة أوفيتها إياه حسنة ، وإن ربي عزَّ وجلَّ يحطّ عني بها سيئة . وما من أمرىء من المسلمين يربط فرساً في سبيل الله فيوفيه بعليفه يلتمس به قوته إلاّ كتب الله له بكل حبة حسنة ، وحطّ عنه بكل حبة سيئة ، قيل : يا رسول الله ، وأي الخيل خير ؟ قال : أدهم(٤) أقرح ، أرثم ، محجل الثلث(٥) ، مطلق اليمين ، فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الصفة . قال : وقيل : يا رسول الله ، فما في الصوم في سبيل الله ؟ قال : من صام يوماً في سبيل الله تباعدت منه جهنم مسيرة مائة سنة كأغذ السير . ولقد فضّل نساء المجاهدين على القاعدين في الحرمة كأمهاتهم ، وما من أحد من القاعدين يخالف إلى امرأة من نساء المجاهدين فيخونه في أهله إلا وقف يوم القيامة فيقال له : إن هذا خانك في أهلك فخذ من عمله ما شئت ، فما ظنكم ؟

---

(١) الشعار : ما ولي الجسد من الثياب . (الصحاح ، ص ٦٩٩) .

(٢) في الأصل : « مع أني قريب الليلة » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٣) الحس : نفض التراب عن الدابة . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٠٦) .

(٤) يقال فرس أدهم إذا اشتدت ورقته . (الصحاح ، ص ١٩٢٤) .

(٥) الخيل الأقرح : هو ما كان في جبهته قرحة ، بالضم ، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة ، والأرثم : الذي أنفه أبيض وشفته العليا ، والمحجل : هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد . (النهاية ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، ج ١ ، ص ٢٠٤) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكان عبد الله بن عمر أو عمرو بن العاص يحدِّث قال : فزع الناس بتبوك ليلة ، فخرجت في سلاحي حتى جلست إلى سالم مولى أبي حذيفة وعليه سلاحه ، فقلت : لأقتدين بهذا الرجل الصالح من أهل بدر ، فجلست إلى جنبه قريباً من قبة رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ علينا مغضباً فقال : أيها الناس ، ما هذه الخفة ؟ ما هذا النزق ؟ ألا صنعتم ما صنع هذان الرجلان الصالحان ؟ يعنيني وسالماً مولى أبي حذيفة .

قالوا : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجراً قبلة مسجد تبوك بيده وما يلي الحجر ، ثم صلى الظهر بالناس ، ثم أقبل عليهم فقال : ما هاهنا شام ، وما هاهنا يمن .

وكذلك أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بقيام البساتين والمروج الخضراء في صحراء تبوك الجرداء ونحن عايشنا المرحلتين معاً . فقد رأينا تبوك وهي لا يوجد بها إلا بعض العيون التي تنبض بالماء في ما قبل عام ١٣٨٥ هـ ثم تطور حالها وازدادت الرقعة الخضراء بعد ١٣٩٥ هـ . حتى أصبحت المزارع تحتل مساحات شاسعة فيما يقرب من ستين كيلاً متراً ، امتداداً من الجنوب إلى الشمال وبعرض ثلاثين كيلاً من الشرق إلى الغرب . وقبيلة بني سعد هذيم تحتل الخط الأمامي لمدد جيوش المسلمين التي أخذت راياتها تخفق عالية في الشام ديار الخير تنشر السلام والعدل والإيمان ، فقبيلة بني سعد هذيم وغيرها من القبائل في شمال غرب الجزيرة كانت تمد الجيوش بالشباب المجاهدين في سبيل الله وكان دورهم مشهوداً في غزوة مؤتة وغزوة تبوك حيث أسلمت القبائل وقدمت وفودها على الرسول ﷺ في تبوك ، وأسلم عدد من أمراء المدن مثل معان وقام بالصلح مع أيلة ومقناً ، الأمر الذي جعل الروم يعذبون بعضهم ويفتكون بآخرين ، وكان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يبعثون الولاة ، والذين يجبون الزكاة ، وقد أمر أبو بكر سعيد بن العاص بالبقاء في تيماء لمدد الجيوش الإسلامية المقاتلة في الشام ، ومن المبعوثين النعمان بن بشير الذي وُلّي صدقات تبوك في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فجبى صدقات سعد هذيم وهم يستوطنون تبوك[1] .

(١) الأغاني ٢٨ : ٧٦، ٩٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدور السياسي لبني عذرة :

وعروة من قبيلة بني عذرة القبيلة العربية التي تنتمي إلى الأزد ، التي اشتهرت بتربية قصي بن كلاب جد الرسول ﷺ وقد بعثت جيشاً لمناصرته ضد خزاعة حتى استقام له الأمر[1] .

وتبوك من جملة مواضع بني عذرة وفيها ماء لسعد هذيم بن ضنه ، وقد وردت في أخبار الروم وذكرها بطليموس باسم Thapaua[2] .

وقد مكثت بنو عذرة في المنطقة قبل الإسلام وبعده فالرسول ﷺ غزا تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ويستوطن حولها بنو عذرة وأشهرهم في عهد الرسول ﷺ منهم بنو سعد هذيم وقد وفدوا عليه في المدينة المنورة قبيل غزوة تبوك ، وأعلنوا إسلامهم قبل أن يبايعوه ﷺ .

روى الواقدي عن ابن النعمان عن أبيه من سعد هذيم قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي ، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد غلبة وأداخ العرب ، والناس صنفان إما داخل في الإسلام رغبة فيه ، وإما خائف من السيف .

فنزلنا ناحية المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد الحرام حتى انتهينا إلى بابه فنجد رسول الله ﷺ يصلي على جنازة في المسجد[3] . . .

وقد كروا راجعين إلى قومهم وديارهم بعد أن دخل الإيمان في قلوبهم فلمَّا بلغوا ماءهم ـ حول تبوك ـ أخذوا يدعون عشيرتهم فآمنوا بدليل أن وفدهم للرسول ﷺ في غزوة تبوك كان مناصراً بل طلب المدد والقوة من الرسول ﷺ لاتحاد القبيلة ومقارعة غيرهم من القبائل التي لم تسلم وقطع الطريق عليهم : فقد قال قائلهم : « ونحن نخاف إن تفرقنا أن نقتطع ، لأن الإسلام لم يفش حولنا بعد ، فادع الله لنا في ماء بئرنا ، وإن

---

(١) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ٤ : ٤١ : ٤٢ : ١١٧ .

(٢) د. جواد علي ، المفصل ٤ : ٢٥١ .

(٣) وفود الإسلام ١٨٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

روينا به فلا قوم أعز منا ، ولا يعبر بنا أحد مخالف لديننا[1] . . .

وكان هذا من أدوارهم الإسلامية العامة فأيدهم الرسول ودعا لهم كما أسلفنا والدليل على تمكن الإسلام منهم أن جيش أسامة بن زيد لم يجد معارضة إبان غزوته ، وقد ظهرت الردَّة بين القبائل في الجزيرة ما عدا قبائل عذرة وبعض القبائل ؛ الأمر الذي يجعلنا نطمئن إلى تمكن الإسلام منهم ، والزمن الذي عاش فيه الشاعر عروة بن حزام والأهمية المكانية لمنازل القبيلة زادتا من مكانة ودور القبيلة ، حيث التحق رجالها بالجيوش الغازية لبلاد الشام ؛ فالتحق عدد منهم بجيش عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ولا أخالها إلا قد بعثت بأعداد غير قليلة مع الجيوش التي تعبر المنطقة مجاهدة حاملة لراية الإسلام . ولا سيما وقد أدرك الخليفة أبو بكر رضي الله عنه مكانة المنطقة وجعل فيها خط دفاعي أول بقيادة سعيد بن العاص الذي استقر في تيماء ليكون وسيطاً بين المدينة المنورة والشام ، وليجمع أبناء القبائل ويبعث بهم لميدان القتال ، فشاركت قبائل المنطقة في الفتوحات الإسلامية وكان لها فضل المعرفة بخفايا الطرقات ، والأماكن الحصينة . والحق أن تتابع الجيوش وسيرها المتواصل ومرورها بالقبائل له تأثير كبير حيث نشرت التعاليم الإسلامية وتأثر القوم بالصحابة والتابعين . وكذلك فإن الجيوش الإسلامية شجعت القبائل الشمالية وبني عذرة خاصة على استيطان البلاد الشامية .

وقد تلا ذلك انتقال الخلافة إلى دمشق حيث احتفظت القبائل بمكانتها وأهمية مواطنها حيث تسير القوافل بين البلاد المقدَّسة وعاصمة الخلافة دمشق ، بل إن كثيراً من أعيان المدينة من المهاجرين والأنصار انتقلوا عبر المنطقة ودونوا رحلاتهم في نقوش لا زالت مكتوبة واستوطنوا بجوار قبائل بني عذرة وغيرهم في الأردن في البلقاء والحميمة مثل أسرة آل العباس وآل هاشم رئيس فرقة الكيسانية التي استلم إمارتها محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وورثها إبنه إبراهيم ثم العباس السفاح وتكوَّنت الدولة العباسية .

---

(١) أحمد باشميل غزوة تبوك ١٤٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد ازدهرت المنطقة بعض الشيء فكثرت القرى ومنها الجديدة التي تقع جنوب شرق تبوك وثمت بعض القرى مثل وادي القرى وتيماء وقد أشير إلى بعضهم ممن التحق بخدمة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ومنهم سيد الخطباء في نظر معاوية حينما قال[1]، « فقد ذكر المؤرخون أن العذريين اشتركوا في فتح بلاد الشام في سنة ٢٢ هـ ٦٣٣ م تحت إمرة عمرو بن العاص، ونحن نجدهم مستوطنين في هذه البقعة أيام الحكم الأموي وربما كان للجوار تأثير على هؤلاء، فخضعوا للسياسة الأموية وسلموا بها ومالوا إليها، وهذا ما يفسر تصرف أحد العذريين لمّا اجتمع الناس وقامت الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهية لهذه البيعة، قيل وقام رجل من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط سيفه شبراً ثم قال: أمير المؤمنين هذا ـ وأشار بيده إلى معاوية ـ فإن مات فهذا ـ وأشار بيده إلى يزيد، فمن أبى فهذا ـ وأشار بيده إلى سيفه، فقال له معاوية أنت سيد الخطباء ».

ومنهم من التحق بخدمة عبد الملك بن مروان مثل روح بن زنباع والذي لا ريب فيه أن قبيلة بني عذرة مناصرة لبني أمية والخلافة في الشام إسوة بالقبائل اليمنية الأخرى وللمجاورة لدار الخلافة، في الأعصر الإسلامية المتقدمة تشعبت بنو عذرة إلى شعوب، وواصلت الزحف البشري إلى مصر، وكان كثير منهم وفد إليها ونالوا حظاً من العلم والجاه، ومنهم الفقيه الشافعي[2]:

وكان بنو عذرة يعتزون بأنفسهم ويحفظون له كتاباً يدونون فيه سيرتهم عن أبي عمر بن حريث العذري قال: وجدت في كتاب أبائي قال[3]...

ونخلص من هذا إلى أن المكان هيأ فرصة الوعي بالحياة والمعرفة عن كثب وأتاح لبني عذرة المشاركة في الأحداث الإسلامية، وعاشت

---

(١) خريستو نجم: جميل بثينة والحب العذري ٦٤.

(٢) علي بن الحسين المسعودي / مروج الذهب.

(٣) طبقات ابن سعد ١: ٣٣١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القبيلة في رغد من العيش ، وفيض من الخيرات ، وتواصل مع المسلمين في حجازهم وشامهم ، وقد هيمنت الروح الإسلامية على سلوكيات الجماعة والأفراد .

وقد ظهر مخاض الحياة الروحية في سلوك الشاعر عروة بن حزام حيث الخشية الربانية التي دفعت به إلى الحب العذري ودفعت غيره من أبناء القبيلة حتى اشتهرت بالحب العذري .

الغزل العذري يتجذر من التكوين الإنساني المتواصل مع الإنسانية في كل زمان وكل مكان فكثير من العقلاء والنبلاء تسمو بهم النظرة إلى المرأة ، فيرتفعوا بها إلى المساواة وتبادل الشعور ولا سيما بعد الأنس والتآلف والتوادّ واكتشاف القيم السامية في الفرد وتمحورها في قلب الصاحب وهنا تنزو على غيرها وتتقلب فيها معالم الجمال بكمالية خاصة في نظر العاشق ، وتظل صفاتها وملاحتها ورنين صوتها محلق على سواها وكأنها وحيدة الزمان ، والفتاة تتماثل لها الفتوة والفداء والقوة في فتى أحلامها فيسمو على غيره وبذا يمتلك الحب أفئدتهم ، ومن هنا نقول : إن الغزل العذري ليس خاصاً بزمان ولا مكان فنحن نسمع عن كثير من الشعراء في الجاهلية هلكوا وجْداً على محبوباتهم من مثل عبد الله بن عجلان[1] وغيره من المجتمعات العالمية بيد أن الخصائص العامة الإنسانية في زمن ومكان محددين تتكاثف وتنثال اتجاهات إيمانية وفكرية وشعورية لتهيىء وتبرز لوناً نفسياً من الغرائز أكثر من غيرها .

تماماً كما حدث للمجتمع الإسلامي في بادية الجزيرة حيث الشعور الديني ، والأمانة والمروءة ، والصدق والتفاني والوفاء ، والحفاظ على المكانة الاجتماعية والسمعة الحسنة بين أفراد القبيلة ، والإلتقاء بين الفتيان والفتيات ، فيتبادلون الأحاديث ، والإعجاب فيتدرج الحب بقصد الروابط الإنسانية الشريفة التي لا سبيل لها إلا بالزواج ، غير أنه يشذ منهم حالات لا يتهيأ فيها الزواج ، ومنهم من يتجمل بالصبر ويذعن للواقع ويسير في

---

(١) أبو تمام ، الحماسة ٤٧٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ركابه ، ومنهم من يعجز عن الفكاك ويستحوذ على فكره وعقله وشعوره ومن ثم تتأثر مسيرة حياته مثل عبد الله بن عجلان ، وعروة بن حزام ، ومجنون ليلى ، وجميل بثينة ، وقيس بن ذريع .

ظهور الغزل العذري:

المتفحص في الأدب العربي يجد لوناً من الغزل الذي يسمو بالخلق ويعلو على الشهوات الحسية لكن لم يتبلور هذا اللون إلا بعد ظهور الإسلام ، فهل ترى أنه نتيجة التأثير الإسلامي الذي يدعو إلى الطهر والعفاف والسمو بالنفس والاستشعار بتعاليمه في السر والعلن ؟! الذي لا مرية فيه أن الإسلام تغلغل في النفس العربية حاضرة وبادية وأصبح الهاجس المهيمن على التكوين الفكري والشعوري والسلوكي في الفرد المسلم ولا سيما القبائل العربية في البوادي حيث الإلتزام الإسلامي واستلهامه بين أبناء القبائل لمَّا انتشر الدعاة وحفظة القرآن ، والدعوة إلى الجهاد ، والامتزاج بالصحابة والعلماء من التابعين . ومتعارف عليه أن بني عذرة التي عرفت بهذا اللون من أقوى القبائل تأثراً بالإسلام ، حيث يعتقدون أنهم أخوة لقصي جد الرسول ﷺ فهم يأنسون به وبادروا إلى مبايعته والوفود عليه ، وكذلك فإن الرسول ﷺ مكث عشرين ليلة في تبوك والصحابة يلتقون بوفود القبائل والمنطقة ، ودعا الرسول ﷺ لتزداد مياههم فبارك الله فيها ، وجاب الرسول ﷺ ديارهم بجيشه ، وقبل الغزوة كانت هناك عدد من الغزوات للمنطقة مثل معركة مؤتة وغزوة ذات الطلاح وغيرهما .

أما في عهد الخلفاء فإن بلاد بني عذرة أصبحت الدروب لجيوش المسلمين المتجهة لبلاد الشام وكان الصحابة والمسلمون يدعون لله وينشرون التعاليم الإسلامية وكان رجال القبائل يلتحقون بالجيوش ويجاهدون في سبيل الله ونظراً لقربهم من مواطن الحرب فإنهم يكررون العودة لديارهم وهي طريق القوافل الإسلامية التي تعبر بين المدينة وبلاد الشام ، وبلاد بني عذرة ليست بالنائية عن العاصمة الإسلامية المدينة المنورة فيبعث إليهم الخليفة من كبار الصحاب مثل النعمان بن بشير ، ولذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجد عندهم الوازع الديني والعفة أكثر من غيرهم من القبائل العربية التي رأينا عندهم بعض التهاون في العلاقة الجنسية بالنسبة للمعاصرين كما يمثل ذلك ابن ميادة وشبيب البرصاء ، والفرزدق وغيرهم .

والغزل العذري تمت بذوره مع انتشار التعاليم الإسلامية التي أخذت الألباب ، واستحكمت في القلوب وصدر عنها السلوك الإنساني الجماعي والفردي لذا رأينا قيس بن ذريح يستجير بالحسين ، وعروة بن حزام الذي مات في عهد عثمان على بعض الروايات أما الدكتور شكري فيصل فيرى أن نشأته لم تكتمل إلا في العصر الأموي « لم يكن من الممكن أن يظهر في عصر الخلفاء الراشدين بالرغم من أنّ تمثل النفس والصلاح كان في عصر الراشدين أشد وضوحاً منه في عصر الأمويين ، وبالرغم من الانعتاق من بعض الحدود والتحلل من بعض النواهي والتحرر من بعض التشديد وجد مجالاً في العصر الأموي بأكثر مما كان في عصر الراشدين »[1].

ويعلل ذلك بقوله « فهذا الغزل العذري يجب أن يكون أثر التربية يجب أن يكون أثراً لتربية جيل جديد تربية صادقة صارمة ، وهذا من نحو ، ويجب أن يكون أثراً لنوع من الحياة الاجتماعية ، تعرف الإستقرار وتساعد عليه من نحو آخر ، وكلا هذين الأمرين لم يتوفرا معاً إلا في عصر بني أمية »[2] .

والغزل ذو وشائج مع النفس البشرية ، أين حلت ، أو ارتحلت ، فهو غريزة خُلقت في الإنسان ، تتداعى إليه كما تتداعى إليه الغرائز الأخرى ، من حب للمال ، أو شهوة للأكل ، أو الميل إلى القيادة الإدارية أو الفكرية ، غير أنها لم تسر هذه الغرائز والنزعات النفسية في خطوط متوازنة بل إنّ بعضها يطغى على الأخرى عند الأفراد ، وعند جماعة تحت ظروف طارئة ، ومن هنا تتجه الاهتمامات الفردية ، فلا غرابة أن تهيمن نزعة الفروسية عند سلامة بن جندل لأنه نشأ في بيت عز وكرم وإقدام . وتتلى آيات الفضائل في منتدياته كل ليلة . ولا غرابة أن يهيمن الفحش والغزل

(١) د. شكري فيصل ، تطور الغزل في الجاهلية والإسلام ٢٨٤.

(٢) المرجع السابق ٢٨٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصريح على امرىء القيس لأن فرقة المجان التي تحف به قد رجحت ذلك الجانب ، ونحن نستأنس بآراء جلساء يحيى البرمكي الذين خاضوا في العشق وأتوا على خصائصه ، كما روى المسعودي في مروج الذهب فقال[1] : ـ

«وقد» كان يحيى بن خالد ذا (علم ومعرفة) وبحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل (الآراء) والنحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والطفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجريح (ونفي الصفات وإثباتها ، والاستطاعة والأفعال) والكمية والكيفية والمضاف ، والإمامة أنص هي أم اختيار ، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع ، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه ، وخطر (إيراده) بباله .

فقال علي بن هيثم (وكان إماميّ المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة) : أيها الوزير ، العشق ثمر(ة) المشاكلة ، وهو دليل تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ، ورقة الصنيعة ، وصفاء الجوهر (وليس يحد لسعته) ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمي ، وهو خارجي المذهب (وهم الشراة) : أيها الوزير ، العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين ، وامتزاج الثكلين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صيب المزن في خلل الرمل (وهو ملك على الخصال) تنقاد له العقول ، وتستكين له الآراء .

---

(١) علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣: ٣٧٩ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الرابعة ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال الثالث : وهو محمد بن الهذيل[1] العلاف ، وكان معتزلي المذهب وشيخ البصريين : أيها الوزير ، العشق يختم على النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتقى في الأجساد ، ومسرعة في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون ، متغير الأوهام ، لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية[2] من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع ، وطلاوة توجد في الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغي إلى داعية المنع ، ولا يسنح به نازع العذل .

(وقال الرابع ـ وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته وكبير الصنعة في عصره ـ : أيها الوزير ، العشق حبالة نصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص في النوائب ، فإذا علق المحب في شبكتها ونشب في أثنائها فأبعد به أن يقوم سليماً أو يتخلص وشيكاً ، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة ، وتكافؤ في الطريقة ، وملاءمة في الهمة ، له مقتل في صميم الكبد ومبهجة القلب ، يعقد اللسان الفصيح ، ويترك المالك مملوكاً والسيد حولاً حتى يخضع لعبد عبده) .

وقال النظام إبراهيم بن يسار المعتزلي (وكان من نظار البصريين في عصره : أيها الوزير) العشق أرق من السراب ، وأدب من الشراب ، وهو من طينة عطرة عجنت في إناء الجلالة ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد خبلاً قاتلاً ، وفساداً معضلاً ، لا يطمع في إصلاحه ، له سحابة غزيرة تهمي على القلوب ، فتعشب شعفاً ، وتثمر كلفاً ، وصريعه دائم اللوعة ، ضيق المتنفس ، مشارف الزمن ، طويل الفكر ، إذا أجنه الليل أرق ، وإذا أوضحه النهار قلق ، وصومه البلوى ، وإفطاره الشكوى .

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مر دليل عليه .

---

(١) في ب (وقال أبو الهذيل وهو مغربي).

(٢) في أ « نغبة من حياض الثكلى » .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال المسعودي : تنازع الناس (ممن تقدم وتأخر) في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار ، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه ؟

فقال بقراط : هو امتزاج النفسين ، كما لو امتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال ، والنفس ألطف من الماء وأرق مسلكاً ، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ، ولا تخلقه الدهور (ولا يدفعه دافع) دق عن الأوهام مسلكه ، وخفي عن الأبصار موضعه (وحارت العقول عن كيفية تمكنه) غير أن ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير إلى سائر الأعضاء ، فتظهر الرعد في الأطراف ، وتصفرة في الألوان ، واللجلجة في الكلام ، والضعف في الرأي (والويل والعثار) حتى ينسب صاحبها إلى النقص .

وذهب بعض الأطباء إلى أن العشق طمع يتولد في القلب (وينمى) وتجتمع إليه مواد (من الحرص فإذا قوي زاده بصاحبه الاعتياج واللجاج والتمادي والتفكر والأماني والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطعم وفساد العقل ويبس الدماغ ، وذلك أن التمادي في الطمع للدم محرق ، فإذا احترق استحال إلى السوداء ، فإذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة ، وتلتهب الصفراء ، ثم تستحيل الصفراء إلى الفساد فتلحق حينئذ بالسوداء ، وتصير مادة لها فتقوى . ومن طبائع السوداء الفكر ، فإذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات (بالفساد ، ومع الاختلاط تكون الفَدَامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون ولا يتم) فحينئذ يشتد ما به . فيموت أو (يقتل نفسه ، وربما شهق فتخفى روحه أربعاً وعشرين ساعة فيظن أنه مات فيقبرونه ، حياً ، وربما تنفس الصعداء فتخفى روحه في تامور قلبه وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وربما ارتاح وتشوق بالنظر ، ويرى من يحب فجأة ، وأنت ترى العاشق إذا سمع ذكر من يحب كيف يهرب دمه ويحول لونه .

وذهب إلى هذا القول جماعة من الأعراب ، ففي ذلك يقول جميل بن عبد الله بن معمر العذري في بثينة :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ومن قبل ما كنا نطافاً ، وفي المهد
فزاد كما زدنا ، فأصبح نامياً وليس وإن متنا بمنتقض العهد
ولكنه باق على كل حالة وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

وقال جالينوس : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين في الحمق ، لأن العقل يجري على ترتيب ، فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة ، والحمق لا يجري على ترتيب ، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان .

وقسَّم بعض العرب الهوى فقال :

ثلاثة أحباب ، فحب علاقة وحب تلاق وحب هو القتل

وقال الصوفية من البغداديين : إن الله عزَّ وجلَّ إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه ، ليشق عليهم سخطه ، ويسرهم رضاه . فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله ، إذ كان لا مثل له ، ولا نظير (وهو خالقهم غير محتاج إليهم ، ورازقهم مبتدئاً بالمنِّ عليهم) فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه ، كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه[1] .

الحب العذري في قبيلة بني عذرة : ـ

تعود تسمية الحب العفيف النقي البعيد عن هتك المحرمات الى الحب العذري، نسبة إلى قبيلة بنى عذرة، لاشتهار القبيلة بذلك، وربما تأتي من رقة القبائل في شمال غرب الجزيرة، لتأثرها بالحياة الحضرية المجاورة وقربها من موطن الديانات في فلسطين، وأصحاب الأيكة، ومدين بلاد شعيب . وظهور الحضارات العربية القديمة، الثمودية واللحيانية، والآرامية والنبطية، وكونهم تحت سيادة دولة فهم تبع الغساسنة، فكانوا أكثر ارتباطاً بالحياة المتحضرة، فلما جاء الإسلام، ثقّف عقولهم، وزرع فيهم التقى والعفاف، ورأوا الجمال والملاحة، وكانوا في منأى عن المجاعات لموقعهم الممتاز، فهم إذا أجدبت بهم الأرض انتقلوا إلى مشارف الشام

---

(١) علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ٣: ٣٧٩ إلى ٣٨٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حيث الخصب، وزاد الخير والثراء والأمن والاستقرار لما أظلهم الإسلام بظلاله، وتلاشت الحروب القبلية، من هنا وجد الفراغ بين شباب القبائل والتقوا بالفتيات، فعلقت قلوبهم، مما جعل الحب العذري ينتشر انتشاراً واسعاً، ويجد من إفراطه وتفريطه التقى والورع والخشية الربانية . روى ابن السراج أن محمد بن جعفر بن الزبير قال:

«أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي فيما أذن لنا في روايته قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن حيوية الخزاز قال: أخبرنا محمد بن خلف بن المرزبان إجازة قال: حدثنا أحمد بن منصور بن سوار قال: حدثنا نوح بن يزيد المعلم قال: حدثنا إبراهيم بن سعد قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن جعفر بن زبير قال: سمعت رجلا من بني عذرة عند عروة بن الزبير يحدثه، فقال عروة: يا هذا بحق أقول لكم أنكم أرق الناس قلوباً، فقال: نعم، والله، لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم السل، وما بهم داء إلا الحب».

ومن هنا شاع عن هذه القبيلة الحب العفيف، وطارت في الآفاق أخبارهم وتناقله الشعراء والقصاص، ونسبوا الى الرقة وضعف القلب والبعد عن النزوات والمآثم يقول ابن السراج:

«أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني إجازة قال: حدثنا ابن دريد قال: حدثنا عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه عن أبي عمرو بن العلاء قال:

لقيت أعرابياً بمكة، فاستنطقته فوجدته ظريفاً، فاستنسبته، فأخبر أنه عذري، فقلت: إنكم لقبيلة قد شاع عنكم في العرب ما شاع من رقة القلوب وصدق المقة[٢] مع العفاف، وتجنب المآثم، فهل صحبت شبيبتك بشيء من ذلك ؟ فقال: والله لقد كنت أصحب الشباب بالتصابي، وأتحدث إلى العقائل. فقلت: فهل قلت في ذلك شيئا؟ فأنشدني:

---

(١) جعفر بن أحمد السراج ، مصارع العشاق ١ : ٤٢.

(٢) المقة : المحبة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تتبَّعن مرمى الوحش حتى رمينا ... من النبل لا بالطائشات الخواطف[1]
ضعائِف يقتلن الرجال بلا دم ، ... فيا عجباً للقاتلات الضعائف
وللعين ملهى في التّلاد ولم يَقِدْ ... هوى النفس شيء كاقتياد الطرائف[1][2]

ويقول (أجاتون) عن رقة الحب: انه لا يأوي إلا إلى أرواح الآلهة والأناسي، ويفر من الأرواح الفظة الغليظة، ويصفه بأنه لين ليست القسوة من صفاته فهو رهن رغبات الناس طوع موافقتهم، وهو إلى جانب هذا أقوى من أي شيء وأشجع، وهو بعد ذلك يجعل المحب شاعراً[4].

وكانت تلك الخصلة من الضعف سبباً في التشنيع عليهم من القبائل الأخرى كما روى ابن السراج:

أنبأنا أبو بكر أحمد بن علي الشروطي قال: أخبرنا علي بن أيوب القمي قال: حدثنا محمد بن عمران قال: حدثنا ابن دريد قال: حدثنا أبو عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى قال: أخبرني التوزي قال:

سمعت أبا عبيدة يقول: قال رجل من بني فزارة لرجل من عذرة: تعدّون موتكم من الحب مزيّة، أي فضلية، وإنما ذلك من ضعف البنية، ووهن العقيدة، وضيق الرويّة. فقال العذري: أما لو أنكم رأيتم المحاجر البلج ترشق بالأعين الدعج من فوقها الحواجب الزج ، والشفاء السمر تفتر عن الثنايا الغر، وكأنها سرد الدر، لجعلتموها اللآت والعزى، ودفعتم الإسلام وراء ظهوركم[5].

ومن هنا أطلق الناس على هذا اللون من الحب الحب العذري وقد اشتهرت القبيلة بهذا ورضيت بالتسمية واعترف لها القبائل بذلك وأول من

---

(١) الخواطف ، الواحد خاطف : السهم الذي يقع على الأرض ثم يسرع إلى الهدف . والسهم الطائش : هو الذي يحيد عن الهدف .

(٢) ابن السراج ، مصارع العشاق ١ : ٢٠٤ .

(٣) الطرائف ، الواحدة طريفة : الشيء الغريب النادر . والطرائف : الحديث المستحسن .

(٤) أحمد عبد الستار الجواري ، الحب العذري نشأته وتطوره ٧.

(٥) ابن السراج ، مصارع العشاق ١ : ٣٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أطلق التسمية في شعره جميل بن معمر فقال :

وقد رابني من جعفر أن جعفراً يلحُّ على قرصي، ويبكي على حُمل
فلو كنت عذري العلاقة لم تكن بطيناً وأنساك الهوى كثرة الأكل[1]

ونحن هنا نسرد أسماء الشعراء وقصص الحب العذري في تلك القبيلة في زمن الإسلام وعصر بني أمية:

١ـ أخبار عبد الله بن عجلان وصاحبته هند[2]

هو عبد الله بن عجلان بن عبد الأحب بن عامر بن كعب يتصل بقضاعه وهو فخذ من بني الحريش وسعد افترقوا من قضاعة على ما ذكر في الأنساب أربعون فخذاً .

وفي النزهة إنه عذري وليس كذلك ، ولكن بينه وبينهم حيث لا ترمى العصا ، وذلك دون خمس جدود ، وقال في كتاب الأنساب كانت العرب تعد الرجال منها ما لم يفارقهم بخمس بطون فإذا بلغ ذلك ، قالوا قطع النسب ، ورميت العصا ، وكان عبد الله هذا يكنى أبا عمرة وهو شاعر مفلق وناطق مزلق ، رقيق أديب ، قال في بلغة الإشفاق في ذكر أيام العشاق وهو جزء لطيف لابن رشيق موضوعه ذكر مدة العشاق في العشق إن عبد الله هذا أقل العشاق أياماً ، عاش مكابد المحبة وغصة العشق ثلاثين سنة وهو جاهلي ضرب به المثل .

وهند هي بنت كعب بن عمرو بن ليث النهدي تتصل مع عبد الله في النسب ، وقال في الطرائف : إن سبب تعلقه بها ، أنه خرج يوماً إلى شعب من نجد ، ينشد ضالة فشارف ماء يقال له نهر غسان وكانت بنات العرب تقصده فتخلع ثيابها وتغتسل فيه .

فلما علا ربوة تشرف على النهر المذكور ورآهن على تلك الحالة ،

---

(١) جعفر بن أحمد ابن السراج مصارع العشاق ، ٢ : ٦١، الدكتور حسين نصار ، ديوان جميل ١٨٢ .

(٢) داود الانطاكي ، تزيين الأسواق في أخبار العشاق ١ : ١٤٠ بتصرف الأغاني ١٧٦٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فمكث ينظر إليهن مستخفياً فصعدن حتى بقيت هند ، وكانت طويلة الشعر فأخذت تمشطه وتسيله على بدنها وهو يتأمل شفوف بياض جسمها من خلال سواد الشعر ، ونهض ليركب راحلته فعجز ، وأقعد ساعة وكان يقال عنه قبل ذلك إن العرب كانت تصف له ثلاث رواحل قائمة فيلحقها ويركب الرابعة فعند ذلك داخله من الحب ما أعجزه وعطل حركاته فأنشد فوراً:

لقد كنتُ ذا بأس شديد وهمة ... إذا شئت لمساً للثريا لمستها
أتتني سهام من لحاظ فأرشقت ... بقلبي ولو أستطيع ردّاً رددتها

ثم قال: هذه والله الضالة التي لا ترد ، ثم عاد ، وقد تمكن الهوى منه فأخبر صديقاً له ، فقال اكتم ما بك واخطبها إلى أبيها فإنه يزوجك بها وان أشهرت عشقها حُرمتها ، ففعل ، وخطبها فأجيب وتزوج بها وأقاما على أحسن حال ، وأنعم بال لا يزداد فيها إلا غراماً فمضى عليهما ثمان سنين وإنها أقامت على ذلك ولم تحمل ، وكان أبوه ذا ثروة ليس له غيره فأقسم عليه أن يتزوج غيرها ليولد له ولد لحفظ النسب والمال فعرض عليها ذلك فأبت أن تكون مع أخرى ، فعاود أباه ، فأمره بطلاقها ، فأبى عليه ، وهو لم يجب إلى أن بلغه يوماً أن عبد الله ، قد تمكن السكر منه ، فعدّها فرصة ، وأرسل إليه يدعوه ، وقد جلس مع أكابر الحي ، فمدحته هند ، وقالت والله لا يدعوك لخير ، وما أظنه إلا عرف أنك سكران ، فيريد أن يعرض عليك الطلاق ، ولئن فعلت لمّت وأظن أنك فاعل .

قال في النزهة وكان قد خلى على هند قبل ذلك اليوم عجوز كاهنة تضرب الحصى وأخبرت هند أنها ستطلق ، فأبى عبدالله إلا الخروج فجاذبته ويدها مخلقة بالزعفران ، فأثرت في ثوبه ، فلما جلس مع أبيه وقد عرف أكابر العرب حاله فأقبلوا يعنفونه ، ويتناوشونه من كل مكان حتى استحيا ، فطلقها ، فلما سمعت بذلك احتجبت عنه فوجد وجداً كاد أن يقضي معه وأنشد:

طلقت هنداً طائعاً ... فندمت بعد فراقها
فالعين يذرف دمعها ... كالدر من آماقها
متحسلباً فوق الردا ... فتجول في رقراقها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خـود رداح طـفـلة ما الفحش من أخلاقها
ولـقـد ألـذ حـديثـهـا وأسـر عـنـد عـنـاقـهـا
وان كـنـت سـاقـيـة ببـز ل الأدم أو بـحـقـاقـهـا
فـاسـقي بـنـي نـهـد إذا شـربـوا خيـار رقـاقـهـا
فـالخيـل تعلم ألحقـهـا غـداة لـحـاقـهـا
بـأسـنـة زرق مـنـحـن الـقـوم حـد رقـاقـهـا
حتى تـرى قصـد القنـا والبيض في أعـنـاقـهـا

لم يـزل شوقـه ينمو ووجـده يسمو حتى لـزم الوسـاد، وتـوفي على مـا ذكـر في النزهة قبل عام الفيل بأربعة أعوام ، وكان سبب وفاته على الأصح أنه قصد هنداً وقد تزوجت في نمير وهي قبيلة من بني عامر ، وكان بينهم وبين بني نهد ثارات ودماء كثيرة ، فحذره أبوه من ذلك ومناه الاجتماع بعكاظ في الأشهر الحرم حيث تكف الجاهلية عن الحرب .

فأبى وخرج سراً حتى أتاها ، فرآها جالسة على حوض وزوجها يسقي إبلاً له ، فلما تعارفا شد كل منهما على صاحبه ودنا منه حتى اعتنقا وسقطا إلى الأرض ، فجاء زوجها فوجدهما ميتين .

وقيل إن عجوزاً دخلت عليه في مرضه ، فأخبرتهم أنه عاشق ، وأن يطبخوا له شاة ويرفعوا قلبها يقدموها إليه ، ففعلوا فجعل يحاولها بضعة بضعة فقال :

أما لشاتكم قلب فقال له أخوه أعاشق أنت ولم تدر ، فتأوه ومات ، وقيل رأى زوج هند يطوف وعليه ثوب فيه كف بالخلوق كالذي في ثوبه ، حين جاذبته فمات ، وقيل : إنه ترنم بهذه الأبيات يوماً ومد بها صوته فمات وهي :

ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً وأصبحت من أدنى حموتها حما
فأصبحت كالمقمور جفن سلاحه يقلب الكفين قوساً وأسهما

ولابن عجلان أشعار كثيرة في محاسنها قوله:

قـد طال شـوقي وعـاد لي طـربي من ذكـر خـود كـريمـة الحسب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

غـراء مثـل الهـلال صـورتهـا ... أو مثـل تمثـال صـورة الـذهب

ومنها :

ألا بلغـا هنـداً سـلامي وان نـأت ... فقلبي مذ شطت بها الدار مـدنف
ولم أر هنـداً بعـد مـوقف سـاعـة ... بـأنعم كمن أهـل الـديـار تـطوف
أتت بين أتراب تمايـس إذا مشت ... دبيب القـطا أوهن منهن ألـطف
يـبـاركـن مـرات خـلـيـا وداده ... ذكياً وبـالأيـدي مـدال ومسـوف
أشـارت إلينـا في حيـاء وراعهـا ... سراة الضحى مني على الحي موقف
وقـال تبـاعـد يـا ابن عم فـإنني ... منيت بـذي صـول يغـار ويعنف

ومنها:

خليلي زورا قبل شحط النوى هنداً ... ولا تـأمنا من دار ذي لـطف بعدا
ولا تعجلا لم يدر صاحب حاجـة ... أغيـاً يلاقي في التعجـل أم رشدا
ومـرا عليهـا بـارك الله فـيكـمـا ... وإن لم تكن هند لوجهكما قصدا
وقـولا لهـا ليس الضـلال أجـازنـا ... ولكننـا حـزنـا لنلقـاكم عمـدا
غـداً يكثـر البـاكـون منـا ومنكم ... وتـزداد داري من ديـاركم بعـدا

٢ ـ معاوية والفتى العذري[1]

أخبـرنا أبـو محمد الحسن بن علي قـراءة عليه ، أخبـرنا أبـو عمر محمد بن العباس بن حيوية قال : قرىء على محمـد بن المرزبـان ، وهو يسمع وأنا أسمع حدثني محمد بن عبد الرحمن القرشي ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا أبو محنف عن هشام بن عروة قال :

أذِن معاوية بن أبي سفيان للناس يوماً ، فكان في من دخل عليه فتى من بني عذرة ، فلما أخذ الناس مجالسهم قام الفتى العذري بين السماطين ثم أنشأ يقول :

مُعاوِيَ يا ذا الحلم والفضل والعقل، ... وذا البر والإحسان والجـود والبذل
أتيتُكَ لما ضاق في الأرض مسكني، ... وأنكِـرتُ مِمّـا أُصِيبَ بـه عقلي

---

(١) جعفر بن أحمد السراج: مصارع العشاق ٢ : ١٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ففرِّج، كلاك الله عنّي، فإنّني ... لقيتُ الذي لم يلقه أحدٌ قبلي
وخذ لي، هداك الله، حقي من الذي ... رماني بسهم كان أهونه قتلي
وكنت أُرجّي عدلَهُ إذ أتيتُهُ، ... فأكثر ترددي مع الحبس والكبل[1]
فطلقتها من جهد ما قد أصابني ... فهذا أمير المؤمنين مِنْ العدل؟

فقال له معاوية : أدن . بارك الله عليك ، ما خطبك ؟ فقال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين إنني رجل من بني عذرة تزوجت ابنة عم لي . وكانت لي صرمة[2] من إبل وشويهات ، فأنفقت ذلك عليها ، فلما أصابتني نائبة الزمان وحادثات الدهر رغب عني أبوها ، فكرهت مخالفة أبيها ، فأتيت عاملك ابن أم الحكم ، فذكرت ذلك له ، وبلغه جمالها ، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوجها ، وأخذني فحبسني وضيق علي ، فلما أصابني مس الحديد وألم العذاب طلقتها ، وقد أتيتك ، يا أمير المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، وسند المسلوب ، فهل من فرج؟ ثم بكى وقال في بكائه :

في القلب مني نار، ... والنار فيها شنار[3]
وفي فؤادي جمر، ... والجمر فيه شرار
والجسم مني نحيل، ... واللون فيه اصفرار
والعين تبكي بشجو ... فدمعها مِدرار
والحبُّ داءٌ عسيرٌ ... فيه الطبيب يَحَارُ
حملتُ منه عظيماً ... فما عليه اصطبارُ
فليس ليليَ ليلاً، ... ولا نهاريَ نهارُ

فرق له معاوية ، وكتب له إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً ، وكتب في آخره :

ركبت أمراً عظيماً لست أعرفُهُ، ... أستغفر الله من جور أمرىء زان

---

(١) الكبل : القيد.
(٢) الصرمة : القطعة من الإبل .
(٣) الشنار : العيب .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قد كنت تشبه صوفيا له كتب ... من الفرائض أو آيات فرقان
حتى أتاني الفتى العدريُّ مُنتحباً، ... يشكو إلي بحق غير بُهتان
أعطى الإله عهوداً لا أُخيسُ بها ... أو لا فأبرأ من دين وإيمان
إن أنت راجعتني في ما كتبت به ... لأجعلنك لحماً بين عُقبان
طلق سُعاد، وفارقها بمجتمع، ... وأشهد على ذلك نصراً وابن طيبان
فما سمعتُ كما بلغت من عجب، ... ولا فعالك حقاً فعل إنسان

فلما ورد كتاب معاوية على ابن أم الحكم تنفس الصعداء وقال: وددت أن أمير المؤمنين خلى بيني وبينها سنة ثم عرضني على السيف، وجعل يؤامر نفسه في طلاقها ولا يقدر، فلما أزعجه الوفد طلقها، ثم قال: أخرجي يا سعاد، فخرجت شكلة[1] غنجة، ذات هيبة وجمال، فلما رآها الوفد قالوا: ما تصلح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابي، وكتب جواب كتابه:

لا تحنثنّ أميرَ المؤمنين، وفي ... بعهدك اليوم في رفقٍ وإحسان[2]
وما ركبت حراماً حين أعجبني، ... فكيف سميت باسم الخائن الزاني
وسوف تأتيك شمس لا خفاء بها ... أبهى البرية من إنس ومن جان
حوراء يقصر عنها الوصف إن وصفت، ... أقول ذلك في سر وإعلان

فلما ورد على معاوية الكتاب قال: إن كانت أعطيت حسن النغمة مع هذه الصفة، فهي أكمل البرية، فاستنطقها، فإذا هي أحسن الناس كلاماً، وأكملهم شكلاً ودلاً، فقال: يا أعرابي هل من سلو عنها بأفضل الرغبة؟ قال: نعم، إذا فرقت بين رأسي وجسدي، ثم أنشأ يقول:

لا تجعلنّي، والأمثال تضرب بي، ... كالمستغيث من الرمضاء بالنار
أردد سُعاد على حرّان مكتئب ... يمسي ويصبح في همٍّ وتذكار
قد شفه قلقٌ ما مثله قلقٌ، ... وأسعرَ القلبُ منه أيّ إسعار

(١) شكلة: ذات دلال وغنج.
(٢) قوله في بعهدك، الوجه: ف، أمر من وفى، اتبع الكسرة فتولد منها ياء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والله والله لا أنسى محبتها حتى أغيب في رمسٍ وأحجار
كيف السُّلُو وقد هام الفؤادُ بها وأصبح القلبُ عنها غير صبار

قال : فغضب معاوية غضباً شديداً ، ثم قال لها : اختاري ، لإن شئت ، أنا ، وإن شئت ابن أم الحكم ، وان شئت الأعرابي ، فأنشأت سعاد تقول :

هذا، وإن أصبح في أطمار، وكان في نقص من اليسار
أعز عندي من أبي وجاري، وصاحب الدرهم والدينار
أخشى، إذا غدرت ، حر النار

فقال معاوية : خذها لا بارك الله لك فيها ، فأنشأ الأعرابي يقول :

خلّوا عن الطريق للأعرابي، ان لم ترقّوا ويحكم لما بي

قال : فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وناقة ووطاء ، وأمر بها ، فأدخلت بعض قصوره حتى انقضت عدتها من ابن أم الحكم ثم أمر بدفعها إلى الأعرابي.

٣ ـ وجدت بخط أبي عمر بن حيوية ونقلته منه قال : حدثنا أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان ، أخبرني صالح بن يوسف المحاربي قال : أخبرني أبو عثمان المازني ، أخبرنا العبني عن شبابة بن الوليد العذري[1]

أن فتى من بني عذرة ، يقال له أبو مالك بن النضر ، كان عاشقاً لابنة عم له عشقاً شديداً ، فلم يزل على ذلك مدة ، ثم إنه فقد بضع عشرة سنة ، ولم يحسن له خبر .

قال شبابة بن الوليد : فضلّتْ إبلٌ ليَ ، فخرجت في طلبها ، فبينا أنا أسير في الرمال إذا بهاتف يهتف بصوت ضعيف ، وهو يقول :

يا ابنَ الوليدِ ألا تحمون جاركم، وتحفظونَ له حقّ القَرَابَات
عهدي إذا جارُ قومٍ نابَهُ حَدَثٌ وَقَوه من كل أضرارِ الملمّاتِ

(١) جعفر بن أحمد السراج ، مصارع العشاق : ١ : ٢٨٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا أبو مالك الممسي ببلقعةٍ، مع الضباع وآسادٍ بغاباتِ
طليحُ شوقٍ بنارِ الحُبّ محترقٌ تعتادُهُ زفراتٌ إثر لوعاتِ
أما النهارُ فيضنيه تذكّرهُ، والليلُ مرتقبٌ للصبح هل يأتي؟
يهذي بجاريةٍ من عذرةَ اختلست فؤاده ، فهو منها في بلياتِ

فقلت : دلني عليه ، رحمك الله ، فقال : نعم ، اقصد الصوت ، فلما قصدت غير بعيد سمعت أنيناً من خباء فأصغيت إليه ، فإذا قائل يقول :

يا رسيس الهوى أذبتَ فؤادِي وحشوتَ الحشا عَذاباً أليماً

فدنوت منه ، فقلت : أبو مالك ؟ قال : نعم قلت : ما بلغ بك ما أرى؟ قال : حبي سعاد ابنة أبي الهيذم العذري ، فشكوت يوماً إلى ابن عم لنا من الحي ما أجِدُ من حبها ، فاحتملني إلى هذا الوادي منذ بضع عشرة سنة ، ويأتيني كل يوم بخبرها ، ويقوتني ، حفظه الله ، من عنده . فقلت له : إني أصير إلى أهلها ، فأخبرهم بما رأيت ، قال : أنت وذاك .

فانصرفت ، وسرت إلى أهل الجارية ، فخبرتهم بحال الفتى ، ما رأيت منه ، وحدثتهم حديثه ، فرقوا له فزوجوه بحضرتي ، ورجعت إليه عامداً لأفرج عنه لما رأيت منه ، فلما أخبرته الخبر ، حدد النظر إلي ، ثم تأوه تأوهاً شديداً بلغ من قلبي ، ثم أنشأ يقول :

الآن إذ حشرجت نفسي وحاصرها فراق دنيا ، وناداها مناديها

ثم زفر زفرة ، فمات ، فدفنته في موضعه ثم انصرفت فأعلمتهم الخبر ، فأقامت الجارية ثلاثاً لا تطعم طعاماً ثم ماتت .

٤ ـ الجعد بن مهجع العذري[1]:

أخبرنا أبو طاهر بن السواق أحمد بن علي قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن فارس قال : حدثنا عبد الله بن إبراهيم الزيبي قال : حدثنا

(١) جعفر بن أحمد السراج مصارع العشاق، ١ : ٩٢ ورواه صاحب الأغاني ١١ : ٣٩٥٥ وما بعدها ، ورواه العقد الفريد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

محمد بن خلف قال : كتب إليّ أبو علي الحسن بن عليل المنزي ، ثم لقيته بعد ذلك ، فحدثني به قال : حدثني أبو شراعة القيسي قال : حدثنا شيبان بن مالك قال[1] :

قال حماد الراوية : أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة ، فتذاكروا العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر: أحدثكم عن بعض ذلك : إنه كان لي خليل من عذرة ، وكان مستهتراً[1] بحديث النساء ، يشبب بهن ، وينشد فيهن على أنه لا عاهر الخلوة ولا سريع السلوة ، وكان يوافي الموسم كل سنة ، فإذا أبطأ تَرَجَّمتُ له الأخبار وتوكفت[2] له السفار ، حتى يقدم ، وإنه راث عني ذات سنة خبره ، وقد وفد عذرة ، فأتيت القوم أنشد عن صاحبي ، فإذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال : عن أبي المسهر تسأل؟ قلت : عنه نشدت وإياه أردت . قال : هيهات أصبح ، والله ، أبو مسهر لا مُؤيِساً منه فيهمل ، ولا مرجواً فيعلل ، أصبح والله كما قال :

لعمرُكَ ما حبي لأسماءَ تاركي صحيحاً[3] ، ولا أقضي به فأموت

قال قلت : وما الذي به ؟ قال : به مثل الذي بك من طول تهكمكما[4] في الضلال ، وجركما أذيال الخسار ، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار ، قال قلت : من أنت منه يا ابن أخي ؟ قال : أنا أخوه . قال قلت : والله ما يمنعك من أن تركب طريق أخيك التي ركبها ، وتسلك مسلكه الذي سلك ، إلا أنك وأخاك كالوشي والبجاد[5] ، لا يرقعك ولا ترقعه ، ثم انطلقت وأنا أقول :

أرائحةٌ حُجّاجُ عذرةَ روحةً ، ولَمَّا يَرُحْ في القوم جعدُ بنُ مهجعِ

---

(١) المستهتر بالشيء : المولع به ولعاً شديداً.

(٢) توكفت الأخبار : تتبعتها ، وانتظرت ظهورها.

(٣) الأغاني ١١ : ٣٩٥٥ روى «أعيش».

(٤) تهكمكما: تجاوزكما الحد . وروى الأغاني «تهوركما».

(٥) الوشي : الثياب الموشية المنقشة . البجاد : الثوب المخطط.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خليلين نشكو ما نُلاقي من الهوى ... فتى ما أقل يسمع وإن قال أسمع[1]
ألا ليت شعري أيّ شيءٍ أصابه ... فلي زفراتٌ هِجْنَ ما بين أضلعي[2]
فلا يبعدنك الله خلا ، فإنني ... سألقى كما لاقيت في الحب مصرعي

فلما حججت وقفت في الموضع الذي كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات ، وإذا أنا براكب قد أقبل حتى وقف ، وقد تغير لونه وساءت هيئته ، فما عرفته إلا بناقته ، فأقبل حتى خالف بين عنق ناقتي وناقته ، ثم اعتنقني وجعل يبكي . فقلت : ما الذي دهاك وما غالك ؟ فقال : برح[3] العذل وطول المطل ، ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عديلةُ ذات بثٍّ[4] ... لقد عَلِمتْ بأن الحُبّ داءُ
ألم تنظر إلى تغيير جسمي ، ... وأني لا يزايلني[5] البكاء
وأني لو تكلفت[6] الذي بي ... لعيّ[7] الكلم وانكشف الغطاء
وأن معاشري ورجال قومي ... حُتُوفهم الصبابةُ واللُّقاءُ
إذا العذريُّ مات بحتف أنفٍ[8] ، ... فذاك العبد يبكيه الرشاء[9]

فقلت : يا أبا مسهر إنها ساعة عظيمة ، وإنك في جمع من أقطار الأرض ، ولو دعوت كنت قميناً أن تظفر بحاجتك وأن تُنصر على عدوك. قال: فجعل يدعو حتى إذا تدلت الشمس للغروب وهمّ الناس بأن يفيضوا[10] سمعته يهمهم ، فأصغيت له مستمعاً ، فإذا هو يقول :

---

(١) الأغاني : جـ ١ : ٣٩٥٦ : روى « خليلان » « متى ما يَقُلْ اسمع وإن قلت يسمع ».
(٢) البيت رواه الأغاني ١ : ٣٩٥٦.
(٣) برّح به : جهده وأذاه أذى شديداً .
(٤) الأغاني روى « عُديّة » و« لُبّ ».
(٥) الأغاني « لا يفارقني » ١١ : ٣٩٥٦.
(٦) الأغاني « ولو أني تكلفت » .
(٧) الأغاني « لقفّ » .
(٨) الأغاني « خليّ ذرع » .
(٩) الرشاء: الحبل الدلو.
(١٠) يفيضوا : من أفاض الناس من عرفات أي رجعوا وتفرقوا وأسرعوا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يـا ربَّ كـلِّ غـدوةٍ وروحـة، من محرمٍ يشكو الضّحى ولـوحه
أنت حبيب الخطب يوم الدَّوحة[1]

فقلت له : وما يوم الدوحة؟ قال: سأخبرك إن شاء الله إني امرؤ ذو مالٍ كثير من نَعَمٍ وشاة، وإني خشيت على مالي التلف ، فأتيت أخوالي من كَلْب ، فأوسعوا لي عن صدر المجلس وسقوني بجمة البئر[2] ، فكانوا خير أخوال حتى هممت بمواقعة[3] إبل لي بماء يقال له الخرزات ، فركبت وتعلقت معي شراباً كان أهداه إلي بعض الكلبيين ، وانطلقت ، حتى إذا كنت بين الحي ومرعى النعم ، رفعت لي دوحة عظيمة ، فقلت : لو نزلت تحت هذه الشجرة ، وتروحت مبرداً[4] ؟ لنزلت فشددت فرسي بغصن من أغصانها ثم جلست تحتها ، فإذا بغبار قد سطع ، فتبينت فبدت لي شخوص ثلاثة ، فإذا رجل يطرد مسحلاً وأتاناً[5]، فلما قرب مني إذا عليه درع أصفر وعمامةُ خز سوداء ، وإذا هو تنال فروع شعره كتفيه ، فقلت في نفسي : غلام حديث عهد بعرس ، فأعجلته لذة الصيد فنسي ثوبه وأخذ ثوب امرأته . فما لبث أن لحق بالمسحل فصرعه ثم ثنى طعنة الأتان فصرعها ، ثم أقبل ، وهو يقول :

نـطعـنـهـم سُـلكـى ومـخـلوجـةً كَـرَّكَ لأمـيـن عـلـى نـابـلِ[6]

قال فقلت : إنك قد تعبت وأتعبت . فلو نزلت . فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة ثم أقبل حتى جلس قريباً مني ،

(١) اللوح : العطش . الدوحة : الشجرة العظيمة .
(٢) جمة البئر : الماء الكثير .
(٣) مواقعة : مداناة ، مقاربة .
(٤) تروحت : ذهبت عند الرواح ، أي المساء . مبرداً : أي داخلاً في البرد ، أي حينما يكون قد برد الهواء .
(٥) المسحل : الحمار الوحشي . الأتان : أنثاه.
(٦) السلكى : الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه . المخلوجة : الطعنة إلى جانب . كرك : دفعك بسرعة . اللأمين ، الواحد لأم : ما يوضع من الريش على السهام . النابل : صانع النبال ، وصف قومه بسرعة الطعن وشبههم بمن يدفع الريشة إلى النبال في السرعة ، وإنما يحتاج إليه في السرعة لأن الغراء إذا برد لم يلزق ، فيستعمل حاراً .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول الشاعر:

وإنّ حديثاً منكِ ، لو تبذلينه ، جنى النحلِ في ألبان عَودٍ مطافِلِ[1]

قال : فبينا هو كذلك إذ حك بالسوط على ثنيته ، فرأيت ، والله ، يا ابن أبي ربيعة ظل السوط بينهما ، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط فقلت : مه فقال : ولم ؟ قلت : إني أخاف أن تكسرهما ، فإنهما رقيقتان قال : هما عذبتان ، ثم رفع عقيرته[2] فجعل يغني :

إذا قَبّل الإنسان آخر يشتهي ثناياه لم يأثم وكان له أجراً
فإن زاد زاد الله في حسناتِهِ مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

ثم قال لي : ما هذا الذي تعلقت في سرجك ؟ قلت : شراب أهداه إليّ بعض أهلك ، فهل لك فيه ؟ قال : وما أكرهه . فأتيته به فوضعه بيني وبينه ، فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة ، قد أضلت ولداً ، أو ذعرها قانص ، فعلم أين نظري ، فرفع عقيرته يغني :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقلت له: من أين لك هذا الشعر ؟ قال : وقع رجل منّا باليمامة وأنشدنيه ، ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسي ، فرجعت وقد جرّ العمامة عن رأسه ، وإذا غلام كأنه الدينار المنقوش ، فقلت : سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك قال : كيف قلت ذاك ؟ قلت : مما راعني من نورك وبهرني من جمالك . قال : وما الذي يروعك من زرق[3] الدواب وحبيس التراب ، ثم لا تدري أينعم بعد ذلك أم ييأس .

ثم قام إلى فرسه ، فلما أقبل برقت لي بارقة الدرع ، فإذا ثدي كأنه حق . قلت : نشدتك الله أإمرأة ؟ قال : أي ، والله ، امرأة تكره العهر ،

---

(١) العود من النياق : المسنة . المطافل : ذوات الأطفال .
(٢) عقيرته: صوته .
(٣) الزرق: التحجيل .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتحب الغزل . قلت : والله وأنا كذلك . قال : فجلست تحدثني ، ما أفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة سكراً ، واستحسنت ، والله ، يا ابن أبي ربيعة الغدر ، وزين في عيني ، ثم إن الله عزَّ وجلَّ ، عصمني بمنّة ، فجلست منها حجرة ، فما لبثت أن انتبهت مذعورة ، فلاثت[1] عمامتها برأسها ، وأخذت الرمح ، وجالت في متن فرسها ، فقلت : أما تزوديني منك زاداً؟ فأعطتني ثيابها ، فشممت منها كالنبات الممطور ، ثم قلت : أين الموعد؟ فقالت : إن لي إخوة شرسين ، وأبا غيوراً ، ووالله لأن أسْرَكَ أحب إليّ من أن أضرك . قال : ثم مضت ، فكان أخر العهد بها إلى يومي هذا فهي والله ، التي بلغت بي ما تراه من هذا المبلغ ، وأحلتني هذا المحل .

قال قلت : وأنت والله يا أبا مسهر ما استحسن الغدر إلا بك ، فإذا قد أخضلت لحيته بدموعه . قال قلت : والله ما قلت لك ذلك إلا مازحاً وداخلتني له رقة ، فلما انقضى الموسم ، شددت على ناقتي ، وشد على ناقته ، وحملت غلاماً لي على بعير ، وحملت عليه قبة أدم خضراء كانت لأبي ربيعة ، وأخذت معي ألف دينار ومطرف[2] خز ، ثم خرجت حتى أتينا كلباً ، فإذا الشيخ في نادي قومه ، فأتيته ، فسلمت عليه ، فقال : وعليك السلام ، من أنت؟ قلت : عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي . قال : المعروف غير المجهول ، فما الذي جاء بك؟ فقلت : جئت خاطباً . قال : أنت الكفوء لا يرغب عن حسبه ، والرجل لا يرد عن حاجته .

قال قلت : إني لم آتك في نفسي ، وإن كنت موضع الرغبة ، ولكن أتيتكم لابن أختكم العذري .

قال : والله إنه لكفيء الحسب كريم المنصب ، غير أن بناتي لم يقعن إلا في هذا الحي من قريش .

---

(١) حجرة : ناحية . لاثت عمامتها : لفتها وعصبتها .

(٢) المطرف : رداء خز ذو أعلام .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال : فعرف الجزع من ذلك في وجهي ، فقال : أما إني لم أصنع بك شيئاً لم أصنعه بغيرك ، أخيرها ما اختارت .

قال قلت له : والله ما أنصفتني . قال : وكيف ذاك ؟

قال : كنتَ تختارُ لغيري ، ووليْتَ الخيار ليَّ غيرك :

فأومأ إليّ صاحبي أن دعه يخيّرها . قلت : خيّرها .

فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا ، فارتأي رأيك . قال : فأرسلت إليه : ما كنت لأستبد برأي دون القرشي ، أما الخيار فخياري ما اختار .

قال قد صَيّرَتْ الأمرَ إليك . فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه وقلت : قد زوجتها الجعد بن مهج ، وأصدقتها هذه الألف دينار وجعلت تكرمتها العبد والقُبّة ، وكسوت الشيخ المطرف ، فقبله وسر به وسألته أن يبني بها من ليلته ، فأجابني إلى ذلك ، وضربت القُبّة وسط الحي وأُهديت إليه ليلاً وبتُّ عند الشيخ خير مبيت . فلما أصبحت غدوت ، فقمت بباب القبة ، فخرج إلي وقد تبين الجذل في وجهه . قال : فقلت له : كيف كنت بعدي ، وكيف هي بعدك ؟ فقال : أبدت لي كثيراً مما أخفت يوم رأيتها . فقلت : ما حملكِ على ذلك ؟ فأنشأت تقول :

كتمتُ الهوى إني[1] رأيتك جازعاً ... فقلت فتى بعضَ الصديق يريد

وان تطرحنّي أو تقول : فُتَيَّةٌ ... يَضرُّ بها بَرْحُ الهوى فتعود

فورّيتُ عما بي وفي الكبد[2] الحشا ... من الوجد بَرْحٌ ، فاعلمنَّ ، شديدُ

قال فقلت : أقم على أهلك ، بارك الله لك وانطلقت إلى أهلي ، وأنا أقول :

كفيت أخي العذريَّ ما كان نابه ... ومثلي لأثقال النوائب أحمل[3]

أما استُحسِنت منّي المكارم والعلا ... إذا اطُرِحت ، أني أقولُ وأفعل[4]

---

(١) الأغاني روى « لما » ١١ : ٣٩٦١ .

(٢) الأغاني ، روى : « داخل » .

(٣) الأغاني «وإني لأعباء النوائب حمال» .

(٤) الأغاني «إذا طرحت! إنّي لما لي بذّال» .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال العذري :

إذا ما أبو الخطاب خلى مكانه ... فافٌ لدنيا ليس من أهلها عُمَرْ
فلا حيٌ فتيان الحجازين بعده ... ولا سُقيتْ أرضُ الحجازين بالمطرْ[1]

٥ ـ جميل بن عبد الله بن معمر من بني عذرة ، أمه من جذام قبيلة مجاورة لبني عذرة وكان وسيماً جميلاً ، طويل القامة ، متأنق في ملبسه ، تعلق بحب بثينة حينما تحرشت بإبله وسابته فأعجبه قولها وملاحتها ، ومن هنا بدأت العلاقة من زمن الخلفاء الراشدين لأنه عرف بحبه في عهد معاوية بن أبي سفيان وولاية مروان بن الحكم للمدينة وجالس خلفاء بني أمية مادحاً لهم ، وانتقل إلى مصر وظل يمدح عبد العزيز بن مروان والي مصر حتى مات في عام ٨٢ هـ.

وهو الشاعر الذي ابتعد عن الأسطورة وعرف بواقعية حبه ، واشتهر به وقصائده مشهورة في الأدب العربي وقد جمع ديوانه وحققه الدكتور حسين نصار[2] .

---

(١) الأغاني ١١ : ٣٩٦١ وهما لم يردا في تزيين الأسواق للأنطاكي .

(٢) المراجع: الأغاني طبع دار الكتب ٨/٩٠، والشعر والشعراء ، ١ : ٤٠٠ وطبقات الشعراء لابن سلام ٤٦١ ، جميل بثينة والحب العذري ، دكتور خريستو نجم ، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام دكتور شكري فيصل .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني :

حياة الشاعر

- أسرته
- زمن مولده
- مكان المولد
- وفاته
- النشأة والتكوين الفكري
- تنامي الحب وغلبته
- خطبة عروة لعفراء
- زواج عفراء
- رحلاته
- رحلته إلى صنعاء
- رحلته إلى الشام
- رحلته إلى اليمامة
- رحلته إلى الحجاز
- رحلته الأخيرة إلى الشام

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أسرته

عني القدماء بالشاعر عروة بن حزام ، وأخباره مع عفراء غير أنهم أغفلوا الحديث عن حياته ، وسيرته العامة والخاصة ، ما عدا العشق وما يتصل بوشائجه ، وربما إنهم لم يعثروا عليها ، وحجبت عنهم ، لأن أسرته ليست من الأسر ذات الشأن والريادة ، ولم يلمع فيها من الفرسان والحكماء وأهل السيادة الذين أحاطوا بالخلفاء والأمراء شأنهم شأن القبائل العربية الأخرى ، فلم يخلّد التاريخ منهم إلّا أولئك الذين التحقوا بالخلفاء ، أو ناصروهم مثل زُفَر بن الحارث مع عبد الملك بن مروان أو عارضوهم أو إن الخلفاء أرادوا تأليف قلوبهم أو اشتهر منهم شاعر أو شعراء يسطر أحداث القبيلة مثل شعراء بني تميم الفرزدق وجرير .

ولا نستبعد أن قبيلة بن عذرة قد دوّنت تاريخها كما يروى عن أبي عمرو بن حريث العذري قال : وجدت في كتاب آبائي[1] .

وربما إن إعراض الرواة وجامعي الشعر في عصر التدوين عن جمع أشعار القبائل المحاذية للدول العظمى خوفاً من العجمة . تماماً كما أعرضوا عن جمع اللغة والشعر من مكة المكرمة والمدينة المنورة كان له كبير الأثر في فقد كثير من الأشعار التي تمت إلى تاريخ القبيلة بصلة .

وكذلك فإن البعد الشاسع لقبيلة بني عذرة عن عاصمتي الأدب

---

(١) طبقات ابن سعد ١ : ٣٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والرواية البصرة والكوفة كان له دوره في فقد الشعر المنسوب إلى هذه القبيلة .

وما دام أن عروة بن حزام لم يعش في كنف أسرة لها ارتباط بكيان الدولة فلا يحتمل أن نعثر على تاريخ لآبائه وأعمامه وإن عرفنا التاريخ على نفر من قبيلة عذرة مثل رزاح بن ربيعة أخو قصي لأمه وهو الذي أعان قصياً حتى غلب على البيت(١) .

ومن قبيلته من التحق بالغزوات الإسلامية مثل خالد بن عرفطة ولاّه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ميمنة الناس يوم القادسية(٢) .

ومنهم من قدم عند معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو يزيد بن المقنع الذي وضعه بين الخطباء حين اختط من سيفه شبراً ثم قال : أمير المؤمنين هذا - وأشار بيده إلى معاوية - فإن مات فهذا - وأشار بيده إلى يزيد - فمن أبى فهذا وأشار بيده إلى سيفه ، فقال له معاوية أنت سيد الخطباء(٣) .

ومنهم روح بن زنباع الذي نال الحظوة والثقة عند الخليفة عبد الملك بن مروان وأصبح مستشاره وقائد الشرط وهو الذي دلّ عبد الملك على الحجاج بن يوسف الثقفي فولاه قيادة الجيش لحرب ابن الزبير .

أما أسرته المقربون :

فقد أجمعت الروايات التاريخية لحياة الشاعر العفيف عروة بن حزام أن أباه حازماً قد توفاه الله وابنه عروة صغير ، وقد نص داود الأنطاكي أن حازماً مات ولعروة من العمر أربع سنين ، وكان يشرف على تربيته عمهُ (عقال) على رواية الأصبهاني و (هصر) كما رواه الأنطاكي ومالك كما رواه ابن قتيبة .

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ٣ : ٢٩١ .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٩١ .

(٣) الجاحظ البيان والتبيين ١ : ٣٠٠، جميل بثينة والحب العذري ٦٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولم يورد التاريخ شيئاً عن أبيه حازم ، غير أنه ترك بنات[1] أربع ولم يكن له من الأبناء إلا عروة ، فكانت أمه وأخواته ينظرون إليه نظرة إجلال وتقدير وآمال في أن يدرأ عنهن ويدافع ، ويحميهن ، ويكون لهن عوناً على عوائد الدهر ، وكانت الأم تقف وراء ابنها وترضعه بلبان المروءة ، والصدق ، والإيمان والعفاف ، حتى رأى الناسُ فيه علامة النجابة والفتوة والاتزان ، والنأي عن الطيش ، وعرف قومه له ذلك ، وأحبه عمه ، وكانت له عمة لها دالة على عمه (عقال) .

وكانت تقرب عروة وتجله وتقدره ، ولها الحظوة لديه يقال لها هند بنت مهاصر ورد ذكرها في ثنايا الحديث عن خطبته لعفراء « فأتى عروة عمة له يقال لها : هند بنت مهاصر . فشكا إليها ما به من حب عفراء » .

وكانت له خالة تعطف عليه وتشد من أزر أختها في تربية أولادها الذين فقدوا الرعاية الأبوية . فكانت الخالة تواسي الأسرة[2] وتمد يد العون لها .

أما الأسرة التي ينتمي إليها عروة بن حزام ، فإنها تحتل منزلة عالية بين قبيلة بني عذرة ولها جاه ومكانة - وقد التحق عدد منهم بجيوش المسلمين ونالوا حظاً من المال والجاه ، فهذا ابن عم لعروة يستوطن صنعاء اليمن ، ويشتهر بالثراء والكرم ، ويقصده عروة طالباً نواله ، ودفع المهر الذي طلبته زوجة عمه أم عفراء فاستجاب له وعاد بمائة من الإبل[3] .

أما اتصال أسرته وعشيرته المقربين بالشام فليس بالمستغرب ولا بالمستبعد فإن القبائل في شمال الجزيرة يفدون إلى الشام كثيراً في عروض التجارة والإنتجاع للمراعي ، وطلباً للعمل وبحثاً عن الرزق ، فكان هذا شأنهم قبل الإسلام ، فازداد بعد أن فتح الله الشام للمسلمين فاستوطنتها القبائل العربية ومنهم رهط من أبناء عمومة عروة بن حزام الرجل الذي تزوج

---

(١) ابن السراج : مصارع العشاق ١/٣١٩.

(٢) الأغاني ٢٨/٩٥٦٧.

(٣) الأصبهاني الأغاني : ٢٨ : ٩٥٦٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عفراء ويقال له (أُثالة بن سعيد بن مالك وكان[1] ذا مال وجاه) . وربما كان من عمال بني أمية ، وليس هو فحسب في البلقاء ، إنما تتواجد فيها قبيلة عذرة حتى أن عروة بن حزام لم يستطع إخفاء نفسه في البلقاء بل تعرفوا عليه ودلوا ابن عمه أثالةَ بخبره فأكرم وفادته[2] .

وعروة من الحظوة بمكان بين المقربين له وعلى قمتهم عمه عقال أبو عفراء الذي أفاض على ابن أخيه بالحنان والرعاية الصالحة . وكان يرى علامات النجابة في عروة وكان مناه أن يربط بين ابنته وعروة بالزواج لذا دأب يكرر الفكرة على مسمع منهما وهما لم يبلغا الحلم .

فكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفهما : « أبشر فإن عفراء امرأتك إن شاء الله »[3] وقد ذكر النعمان بن بشير أخواته وأمه وخالته : (وإذا أمثال التماثيل حوله أخواته وأمه وخالته فقلت أنت عروة ؟ قال : نعم . ثم استوى قاعداً وقال : وأنا الذي أقول :

وعينان ما أوفيت نشزاً فتنظرا ... بمآقيهما إلا وهما تكفان

ثم التفت إلى أخواته فقال :

من كان من أخواتي باكياً أبداً ... فاليوم إنّي أُراني اليوم مقبوضا
يُسمعنني فإنّي غيرُ سامعه ... إذا علوت رقاب القوم معروضا

ثم رجع الحديث قال : فبرزن والله يضربن وجوههن ويشققن جيوبهن ثم لم أبرح المكان حتى مات[4] .

وخبر أخواته الأربع ظل محجوباً عنا فلم يتحدث عنهن المؤرخون للأدب بأكثر من هذا فلا علم لنا هل هن متزوجات ويجتمعن عند أخيهن لمرضه أم ما زلن كواعب أتراباً ؟

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق ، ١ : ١٣٠ .
(٢) الأصبهاني ، الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٨ .
(٣) الأغاني ٢٨/٩٥٦٧ .
(٤) الأغاني ٢٨ : ٩٥٨٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا علم لنا هل هن أكبر منه سناً كلهن أو بعضهن ؟

لأننا لو اطلعنا على هاتيك المعلومتين لتبين لنا من سيرة عروة ما غمض وخفي لكن حالت الأستار والحجب دون التحقق منه .

والملحوظة الجديرة بالتسجيل أن التركيبة الأسرية المحيطة بعروة جلها من النساء .

فالتعامل النسائي واللطف والحنان ، والضعف والتباكي ربما كان له كبير الأثر في حياة عروة بن حزام .

الأمر الذي جعله يضعف وتخر قواه أمام قوة العشق والهيام ، والذي سنتحدث عنه بإفاضة في المستقبل إن شاء الله .

أما المرأة الأخرى التي لها دور في حياة عروة فهي امرأة عمه ، فهي التي تشاره وتعارضه ، وتقف في وجهه ، وتطالبه بالابتعاد عن ابنتها ، وما تنفك تناله بسوء ، وتلومه على فقره ، وتكثر التقريع والتأنيب لزوجها لخفضه جناحه لابن أخيه الفقير المدقع ، فهي التي عصفت بحياة عروة وابنتها حيث استلمت قيادة زوجها ، ولبى رغبتها ، فأدبر عن عروة وأقبل على الثّري الغني فزوجه عفراء ، تحت تأثيرها وإلحاحها ، وتأنيبها وليس لعفراء من الرأي مثقال ذرة فالعصمة في يد الأب يقول عنها الأصفهاني :

« وكانت أمها سيئة الرأي فيه تريد لابنتها ذا مال ووفر » .

فلما جاء رجل من أهل الشام وخطبها امتنع والدها ولكنه رأى ليناً وإقبالاً من أمها « فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولاً لبذله ، ورغبت في ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى عقال فآذته ، وصخبت عليه وقالت : أي خير في عروة حتى تحبس ابنتي عليه ، وقد جاءها الغني يطرق بابها ، والله ما ندري أعروة حيّ أم ميت ؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضرا ورزقاً سنياً فلم تزل به حتى قال لها : إن عاد لي خاطباً أجبته ، فتوجهت إليه :

أن عدْ إليه خاطباً ، فلما كان من غد نحر جزراً عدة ، وأطعم ووهب وجمع الحي معه على طعامه ، وفيهم أبو عفراء فلما طعموا أعاد القول في

www.aiukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخطبة ، فأجابه وزوجه ، وساق إليه المهر ، وحولت إليه عفراء »[1] .

نسبه :

عروة بن حزام بن مهاصر أحد بني حزام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة وضنة بطن من بطون سعد هذيم الذي تفرع عنه (صعب) و (سلامان) و (عذرة ، وضِنة ، والحارث ، ووائل بنو سعد هذيم بن زيد) .

وبعض الكتب تروي حزام بن ضِنة : حزام بلا أعجام كما في معجم ما استعجم وغيره .

وبعض الكتب تروي بالباء بدل النون وهذا تحريف لأن ضبة قبيلة أخرى ، ضبة بن أد بن طابخة[2] وقد أثبتت أكثر الكتب صحة رواية النون فهي ضِنة لا ضبة[3] . يقول السيوطي : « وفي قِضاعة ضِنة بن سدر وفي عذرة ضِنة بن عبد ، وفي أسد ضنة بن الحلاف ، وفي الأزد ضنة بن العاص ، والأربعة بكسر الضاد وبالنون »[4] .

وذكر صاحب تزيين الأسواق نسبه : عروة بن حزام بن مالك بن حزام بن ضنة بن عبد بن عذرة[5] .

وفيه اختلاف عما ذكر الأصفهاني فإنه زاد فيه مالك وكرر حزام في نسبه وأغلب الظن أن الأنطاكي قد اختلط عليه نسب عروة مع نسبه محبوبته عفراء فإن عفراء ابنةٌ لمالك ولكنه جعلها ابنة هصر أخي حزام كما يؤيد ذلك ما روا صاحب مصارع العشاق .

قال : « نقلت عن خط بن حيوية : حدثنا أبو بكر بن المرزباني

---

(١) الأغاني ١ : ٩٥٦٨.

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٠.

(٢) معجم ما استعجم ١ : ٨٨، ٢٨١، ٣١١.

(٣) ٢٨/٩٥٧٩ معجم ما استعجم ٢ : ٨٠٧.

(٤) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهر ٢ : ٤٥٢، وتحقيق محمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٥) تزيين الأسواق ١/١٢٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حدثني أبو العباس فضل بن محمد اليزيدي ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي أخبرني لقيط بن بكر المحاربي : أن عروة بن حزام وعفراء ابنة مالك العذريين ، وهما بطن من عذرة يقال لهم بنو هند بن حزام بن ضنة بن عبد الكريم بن عذرة »[1] .

ونراه قد انفرد ببكير بدل كبير ومائل بن قتيبة في نسبه لعفراء الذي يقول (وصاحبته عفراء بنت مالك العذرية)[2] .

والسراج صاحب كتاب مصارع العشاق اختص بهذه الرواية من بين المترجمين لعروة بن حزام وقد وجدت أن صاحب جمهرة أنساب العرب يؤيده[3] .

وقد ذكر ذلك النسب القلقشندي في كتابه نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب فقال :

بنو هند ـ أيضاً ـ بطن من عذرة بن زايد بن قضاعة من القحطانية وهم بنو هند بن حزام بن ضبة بن عبد بن كبير بن عذرة بن زيد . وهم رهط عروة بن حزام بن مالك بن العذري صاحب عفراء بنت مهاصر بن مالك[4] .

وفيما نقلناه من نهاية الأرب اختلاف عما أسلفنا فإنه وضع عبيد وغيره يذكر عبد وحرام . وربما يكون أقرب إلى الواقع مما ذكر الأنطاكي في تزيين الأسواق (عروة بن حزام بن مالك بن حزام) . لأن ابن قتيبة صرح بأنها ابنة مالك فلا يعقل أن يكون مالك بن مالك .

والأمر الذي يدعو للعجب اختلاف الرواية بين مصارع العشاق وتزيين الأسواق مع أن كل منهما ينسب الرواية للمرزباني .

والقلقشندي يذكر (ضنة) بالباء (ضبة) وهذا اختلاف لما ورد في كتب الأنساب .

---

(١) مصارع العشاق ١ : ٣١٦.

(٢) الشعر والشعراء ٦٩٢.

(٣) جمهرة أنساب العرب ٤٤٩.

(٤) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٩٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد انفرد الأصبهاني بأنه ذكر عقالاً أباً لعفراء : (لا يعرف له شعر إلا في عفراء بنت عمه عقال بن مهاصر) وبهذا فإن جمع بينهما حيث إن حزام وعقالاً ابنا لمهاصر بن مالك وهذا ما رجحه الفيروزآبادي وما أرجحه لأن الأصبهاني يعتمد على السند ولأنه أسبق من الذين اعتمدنا على كتبهم . ولأنه لا يخالف المنطق حين يروي نسبه ونسب ابنة عمه عفراء ولما جمعه الأصبهاني من روايات حول الرجل من وجوه مختلفة ولما فيه من ذكر من يمت بصلة نسب إلى الشاعر وهو الأسباط بن عيسى العذري ونحن نثبت الإسناد التي أثبتها الأصبهاني لتكون في متناول المحقق الباحث : (أخبرني بخبرها جماعة من الرواة . فمنه ما أخبرني به الحسن بن علي بن محمد الأدمي ، قال :

حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات ، قال حدثنا موسى بن عيسى الجعفري عن الأسباط بن عيسى العذري ، وأخبرني الحسين بن يحيى المرداسي ومحمد بن مزيد بن أبي الأزهر عن حماد بن إسحاق عن أبيه عن رجاله وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري ، قال :

حدثنا عمر بن شبة، وأخبرني الحرص بن أبي العلاء ، قال :

حدثنا الزبير بن بكار عمن أسند إليه وأخبرني إبراهيم بن أيوب الصائغ عن ابن قتيبة وعلق الأصبهاني بقوله : (وقد سقت رواياتهم وجمعتها) .

قال : الأسباط بن عمر بن عيسى - وروايته أتمها وأشد إنساقاً عن الروايات جميعها يقول الأسباط وابن عيسى :

(أدركت شيوخ الحي يذكرون : أنه كان من حديث عروة بن حزام وعفراء بنت عقال . . . [1] .

وقوله : (أدركت شيوخ الحي يذكرون) له دلالة الرواية الواقعية المستقاة من قبيلة الشاعر ومعارفه الأكثر التصاقاً به والذين يروون قصة حبه .

وينفرد صاحب البداية والنهاية بذكر كنيته فهو الوحيد الذي روى أنه

---

(١) الأغاني ٢٨/٩٥٦٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يكنى أبا سعيد فقال عن عروة في معرض حديثه عمن توفوا في زمن عثمان ولا يعرف وفاتهم بالتعيين إلا عروة بن حزام أبو سعيد العذري[1] : كان شاعراً مغرماً في ابنة عم له هي عفراء بنت مهاصر ، يقول فيها الشعر واشتهر بحبها ، فارتحل أهلها من الحجاز إلى الشام ، فتبعهم عروة فخطبها إلى عمه ، فامتنع من تزويجها لفقره ، وزوجها بابن عمها الأخر فهلك عروة في محبتها[2] .

زمن مولده :

نفر قليل في العالم القديم أولئك الذين يُدوّن تاريخ ميلادهم ، أما لكونهم ينتسبون إلى سلالة عريقة في المجد والملك ، وأما لمصادفة ولادتهم حدثاً عظيماً يؤرخ به العرب كمثل عام الفيل الذي ولد فيه الرسول ﷺ وعمر بن أبي ربيعة الذي ولد يوم مات عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهكذا .

لذا يظل التعرف على يوم الاستهلال بل عامه من القضايا التي لا يقطع فيها باليقين ، ونحن نحاول أن نسدد ونقارب ، وإن كنا لا نجزم ، فهناك آراء تقول :

إنّ عروة بن حزام مات سنة ثلاثين للهجرة[3] ، في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كما تشير رواية النعمان بن بشير التي أوردتها جل الكتب التي ترجمت لعروة ، فذكرت أنه تولى صدقات تبوك في عهد عثمان وروي أنه شهد وفاة عروة ، أما كونه في عهد عثمان وبالذات عام ثلاثين للهجرة فإنه يعارضه كون ولادة الشاعر في عهد الرسول ﷺ ، وأنه نشأ نشأة جاهلية لأن الإسلام لم يدخل ديار قبيلة عذرة إلا في العام التاسع للهجرة بل إن وفد سعد هذيم عشيرة الشاعر للرسول ﷺ في غزوة تبوك قالوا : إننا أسلمنا ويحيط بنا الكافرون ، وخشوا الفرقة والشتات إن نقص ماؤهم ،

---

(١) ورد في الكتاب العدوي وهو ظاهر التصحيف فهو « العذري ليس العدوي » .

(٢) البداية والنهاية ٧ : ٢٣٢ .

(٣) أحمد الكتبي فوات الوفيات ٢ : ٢٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فطلبوا من الرسول ﷺ الدعاء لزيادة ماء بئرهم . وسيرة عروة بن حزام وعفافه تتعارض مع النشأة الجاهلية التي تحتمها تلك الرواية حيث تجعلنا نقترب من زمن ولادته قبل الهجرة وهذا أمر من الإستحالة بمكان .

وعلى رواية النعمان بن بشير ، فإني أُرجّح الرأي القائل بجبايته للصدقات في عهد معاوية ، مما يؤكد أن عروة مات فيما بعد الأربعين أي في الخامسة والأربعين أو ما يقرب منها . فيكون ولد عروة في السنة العاشرة أو ما يقرب منها وهذا يتناسب مع التكوين الإيماني الإسلامي الذي عمر قلوب بني سعد هذيم الذين رشحوا أنفسهم لحماية الإسلام في المنطقة ، وثبت الإسلام في قلوبهم صحبةُ الرسول وتلك المعجزات التي شهدوها فسمعوا ورأوا تدفق المياه من عين تبوك ، مما دعاهم إلى طلب الرسول ﷺ أن يدعو لبئرهم أيضاً فاستجاب لهم الرسول ﷺ ، الأمر الذي مكن الإسلام في عشيرتهم وأخذوا ينشرونه وينافحون عنه بين القبائل المجاورة ، ثم إن الإسلام أخذ ينتشر ، وتأثيره غزا الألباب الأمر الذي صقل عروة بن حزام وهيأ له الشخصية العذرية العفيفة ، الملتزمة بحدود الله كما قال لعفراء حينما عرضت عليه شراباً : والله ما دخل جوفي حرام قط ، ولا أرتكبته منذ كنت ، ولو استحللت حراماً لكنت قد استحللته منكِ »[1] .

وأولئك الذين يروون ويرون وفاته بمشهد ابن عباس رضي الله عنهما في مكة المكرمة لا يعارض زمن ولادته فيما يقرب السنة العاشرة للهجرة بل يأزره ويدعمه لأن ابن عباس لم يستقر في الطائف إلا بعد انتقال الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان وبعضهم ينسب مقولة معاوية بن أبي سفيان : « لو علمت بحال هذين الشريفين لجمعت بينهما » لعمر بن الخطاب[2] . وأراه ضعيفاً لأنه يحتم ولادة ونشأة عروة بن حزام في الجاهلية التي تتعارض مع مقولة عروة الآنفة الذكر ، وتتعارض مع رواية أنه مات سنة ثلاثين للهجرة

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني الأغاني ٢٨ / ٩٥٧٢٠.

(٢) ابن قتيبة الشعر والشعراء ١ : ٦٢٧، وجعفر بن أحمد السراج مصارع العشاق ١ : ٢٦٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لأن عمر استشهد عام ٢٣ هـ . وتعارض أيضاً كون ابن عمه زوج عفراء استوطن البلقاء ، فالعرب المسلمون لم يستوطنوها إلا بعد الفتوح الإسلامية .

مكان المولد .

أغلب الظن أن المكان الذي ولد فيه عروة بن حزام ليس بمنأى عن تبوك ، لأن بعض المؤرخين ينسب عين تبوك لسعد هذيم .

ذكرت ذلك في ثنايا الحديث عن غزوة تبوك ، ومن جهة أخرى ؛ فإن منازل سعد هذيم كانت قريبة من تبوك ، بل أكدت أنها على مفترق الطرق وفي موقع يهيمن على تنقل القبائل المتجهة إلى الشام والوافدة منها، وربما أنها نزحت عن تبوك في فترة الغزوة طلباً للمرعى ، وما دام أنها تستوطن حول عين تبوك أو بالقرب من بئرهم الروحاء والذي قامت عليه مدينة إسلامية أكبر من تبوك وسميت الجديدة وآثارها الآن تسمى (القلبان) جمع قليب وهو البئر وما زالت التسمية الرويحاء تطلق على وادٍ قريب لهذا المكان .

كل ذلك يدعونا إلى أن نحدد مكان مولده بالقرب من تبوك ولا نجزم بذلك ، لأن القبائل العربية ذات نجعة وارتحال ولها منازل شتوية وصيفية ، الأمر الذي يحول بين الباحث وتحديد المكان . غير أن تواجد سعد هذيم قبل غزوة الرسول ﷺ بتبوك ، وذكرهم في الغزوة وبقاؤهم في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية وتملكهم لعين تبوك يدل على استقرارهم حتى يضطروا للظعن لملاحقة الكلأ ومنابت الشجر ولا يلبثوا حتى يعودوا ، وربما إن رحلة من رحلاتهم وافقت ابتعادهم عن تبوك بدليل أن ركب عفراء قابله عروة في تبوك فمعنى ذلك أن منازلهم تبعد بمراحل وهذا يؤكد أنهم يقطنون حول الماء الذي طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعو الله ليبارك لهم فيه وهو ماء قرب الروحاء التي حرف اسمها الآن وتعرف بالرويحاء في الجهة الجنوبية الشرقية من تبوك على طريق الحاج وبالقرب من بلدة الجديدة التي عرفت في الإسلام وربما أنها قامت على بئر سعد هذيم هذا ببركة دعاء الرسول وآثارها الآن تعرف (بالقلبان) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتقع على درب الحاج بين تبوك والمعظم والذي يعبر إلى الشام يمر بتبوك كما مر ركب عفراء والتقى به عروة في تبوك ويدعم هذا قول عروة :

ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر الروحاء ثم دعاني[1]

فحاضر الروحاء يدل على قرية قريبة منها وهذا ما ينطبق تماماً على قرية الجديدة وليس المقصود الروحاء[2] المشهورة التي تقع بين مكة والمدينة وهي للمدينة الأقرب ، لأن بني عذرة وبالذات بني سعد هذيم لم يستوطنوا تلك البلاد .

ودليل آخر من شعر عروة يدل على أنهم يستوطنون الجهة الجنوبية الشرقية من تبوك فقد ذكر ذكرياته ومواطن أنسه مع عفراء فيقول :

ألا حبذا من حب عفراء ملتقى نعام وبرك حيث يلتقيان[3]

ونعام : واد في الجهة الجنوبية الغربية من تبوك يصب بالقرب من جبل برك المعروف بالجهة الشرقية الجنوبية من تبوك وهما يبعدان عنها بما يقارب ثلاثين كيلاً متراً ويقع المكان بين درب الرسول ﷺ في غزوة تبوك ودرب الحاج بالقرب من الجسور التي في وادي الأيثلي جنوب تبوك .

وفاته :

انفرد الأنطاكي برفع رواية قصة وفاة عروة بن حزام لعمرو بن العاص حيث قال : « استعملني عمر رضي الله عنه في جباية صدقات العذريين فبينما أنا يوماً بإزاء بيت إذ نظرت امرأة عند كسر البيت وإلى جانبها شخص لم تبق إلا رسومه فجلست أنظر إليه فتموج ساعة ، ثم خفق خفقة فارق الحياة ، فقلت من الرجل ، قالت عروة فقلت كأنه قضى فقالت نعم » .[4]

وأنا أستبعد صحة نسبة الرواية لعمرو بن العاص ؛ لأنّه رضي الله عنه

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٨٣.

(٢) معجم ما استعجم.

(٣) ذيل الأمالي ١ : ١٦٢ .

(٤) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق ١/١٣٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التحق بقيادة الجند في عهد الخليفة أبو بكر رضي الله عنه . ومن الشام انطلق إلى مصر ولم يتول الصدقات لعمر . وربما أراد بابن العاص سعيد بن العاص والي تيماء ، وهذا تولى في عهد الخليفة أبي بكر ثم عاد إلى المدينة في عهد عمر رضي الله عنه ، ويضعف من الخبر أننا سبق وأن أثبتنا أن وفاة عروة متأخرة كثيراً عن عهد عمر وعهد عثمان رضي الله عنهما . ومنهم من يرى أنَّ وفاته في مكة بين يدي حبر الأمة عبد الله بن عباس فروى ابن صالح قال : وكنت مع ابن عباس بعرفة ، فأتاه فتيان يحملون فتى لم يبق إلا خياله فقالوا : يا ابن عم رسول الله ﷺ أدع الله تعالى له ، قال وما به ، فقال الفتى : ـ

بنا من جوى الأحزان في الصّدر لوعةٌ تكاد لها نفس الشفيق تذوب
ولكنّما أبْقَى حُشاشةَ مُعْوِلٍ على ما به عُوْدُ هناك صَليبُ

ثم خفت في أيديهما ؛ فإذا هو قد مات[1] .

الواقع أن لقاءه بابن عباس لا ننكره ولكن نؤول ذلك بأن حالة من الإغماء غشيته وهي كثير ما تفتأ تعاوده ، فظنه صحب ابن عباس قد فارق الحياة .

وروى الأصبهاني عن الحرمي بن العلاء ، قال : حدثنا الزبير بن بكار ، قال حدثنا عبد الملك بن الماجشون عن أبي السائب قال : أخبرني ابن أبي عتيق ، قال : ـ

والله إني لأسير في أرض عذرة ، وإذا بامرأة ، تحمل غلاماً جزلاً ، ليس يحمل مثله ، فعجبت لذلك ، حتى أقبلت به ، فإذا له لحية ، فدعوتها فجاءت ، فقلت لها : ويحك : ما هذا ؟

فقالت : هل سمعت بعروة بن حزام ؟ فقلت نعم ـ قالت هذا والله عروة فقلت له : أنت عروة ؟ فكلمني وعيناه تذرفان وتدوران في رأسه وقال

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ٢٨ : ٩٥٨٣ .
(٢) أحمد الكتبي : فوات الوفيات ٢ : ٤٤٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نعم ، أنا والله عروة القائل . . .

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف حجر إنْ هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كُلِّه ... وقاما مع العُواد يبتدران
فعفراءُ أحظى الناس عندي مودةً ... وعفراءُ عني المُعْرض المتواني

قال وذهبت المرأة ، فما برحت من الماء حتى سمعت الصيحة فسألت عنها ، فقيل مات عروة بن حزام . . .

قال عبد الملك : فقلت لأبي السائب : ومن أي شيء مات ؟ أظنه شرق ؟ فقال : سخنت عيناك . بأي شيء شرق ؟ قلت بريقه ، وأنا أريد العبث بأبي السائب ، أفترى أحداً يموت من الحب ؟ قال : والله لا تفلح أبداً ، نعم يموت خوفاً أن يتوب الله عليه[1] .

وابن عتيق صرح بأنه لم يشهد موته وإنما سمع صائح ينوح على عروة وأخاله مثل الأول ، إنما هي نوبة إغماء غشيته . . .

ونقل السراج قال : أبو بكر بن المرزباني وأخبرنا أحمد بن زهير ، أخبرنا الزبير بن بكار ، أخبرني أبي قال : قال عروة بن الزبير : ـ مررت بوادي القرى فقيل لي : هل لك في عروة بن حزام ؟ فقلت الذي يلقى من الحب ما يلقى ؟ قالوا : نعم ، فخرجت حتى جئته ، فإذا هو في بيت منفرد عن البيوت ، وإذا ، والله حوله أخوات له ، أمثال التماثيل وأمه وخالته ـ قال فقلت له أنت عروة ؟ قال نعم : قلت : صاحب عفراء ؟ قال نعم صاحب عفراء ؟ . ثم استوى قاعداً فقال : وأنا الذي أقول :

وعينان ما أوفيت نشزاً فتنظرا ... بما فيهما إلا هما تكفان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما ... إلى حاضر البلقاء ثم ذراني

وحاضر البلقاء المكان الذي انتقلت إليه عفراء مع زوجها ، والبلقاء يطلق على مجموعة قرى قامت عليها الآن مدينة عمان العاصمة الأردنية .

ثم التفت إلى أخواته فقال : ـ

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من كان من أُمّهاتي باكياً أبـداً فاليوم إني أُراني اليوم مقبوضـا
من كان ينحو فإني غير سامعه إذا علوتُ رِقابَ القومِ معروضا

قال : عروة بن الـزبير : فلمـا سمعن قولـه برزن والله يضـربن حر الوجوه ويشققن جيوبهن . قال عروة فقمت فما وصلت لمنزلي حتى لحقني رجل فقال : قد مات[1] . وهو لم يشهد وفاته أيضاً ، وربما إن موته زيادة على رواية ابن الزبير ولم يُصَّلِ عليه فلو مات لذكر صلاته ودعاءه أو امتناعه عن ذلك إن امتنع . . .

وروى ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء قال : « حدثني ابن مرزوق عن ابن الكلبي عن أبي السائب المخزومي عن هشام بن عروة عن أبيه عن النعمـان بن بشير قـال : بعثني عثمان أو معـاويـة مصـدقـاً لبني عـذرة ، فصدقتهم ثم أقبلت راجعاً ، فإذا أنا ببيت حريد ليس قربه أحد ، وإذا رجل بفنائه مستلق على قفاه ، لم يبق منه إلا جلد وعظم ، فلما سمع وجسي ترنم بصوت حزين : ـ جعلت لعراف اليمامة حكمه « الأبيات كلها » .

ثم قال : وإذا أمثال التماثيل حوله ، أخواته وأمه وخالته ، فقلت له : أنت عروة ؟ قال نعم ، قلت : صاحب عفراء ؟ قال نعم ثم استوى قاعداً ، وقال أنا الذي أقول : ـ

وعينـان ما أوفيت نشـزاً فتنظرا بمـا فيهمـا[2] إلا همـا تكفـان
كـأن قـطاة علقت بجنـاحهـا على كبـدي من شدة الخفقـان

ثم التفت إلى أخواته فقال : ـ

من كان من أخواتي باكياً أبـداً فاليوم إني أُراني اليوم مقبوضـا
يسمعنني فـإني غيـر سـامعـه إذا علوت رقاب القوم معروضا[3]

ثم رجع الحديث ، قـال : فبرزن والله يضـربن وجوههن ويشققن

---

(١) مصارع العشاق ١ : ٣١٦ .
(٢) ورد في تزيين الأسواق : «بمآقيهما» ، ١ : ١٣٧ .
(٣) السراج مصارع العشاق ١ : ٣١٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جيوبهن ثم لم أبرح حتى مات ، فهيأت من أمره وصليت عليه ودفنته . هذا معنى الحديث . . .

والملاحظ أن النص يقترب جداً مما رواه عروة بن الزبير ولا غرابة في ذلك فالرواية عن هشام بن عروة بن الزبير عن النعمان بن بشير وهي مخالفة للرواية التي سردها الأصبهاني في كتابه الأغاني يقول فيها : ـ « أخبرني عمي : قال : حدثنا الكراني ، عن العمري ، عن الهيثم بن عدي عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن النعمان بن بشير ، قال :

ولّاني عثمان ، رضي الله عنه ، صدقات سعد هذيم ، وهم صعب . وسلامان . وعذرة ـ وضنة . والحارث ووائل بنو سعد هذيم بن زيد . فلما قبضت الصدقة قسمتها في أهلها ، فلما فرغت وانصرفت بالسهمين إلى عثمان رضي الله عنه إذا أنا ببيت مفرد عن الحي . فملت إليه ، فإذا أنا بفتى راقد بفناء البيت ، وإذا بعجوز من ورائه في كسر البيت ، فسلمت عليه فرد عليّ بصوت ضعيف فسألته : مالك ؟ فقال :

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان

وذكر الأبيات النونية المعروفة ، ثم شهق شهقة خفيفة كانت نفسه فيها « ونظرت إلى وجهه فإذا هو قد مضى » فقلت : ـ

أيتها العجوز ، من هذا الفتى منك ؟ قالت : إبني ؟ فقلت : إني أراه قد مضى ، فقالت : وأنا والله أرى ذلك ، فقامت فنظرت في وجهه ثم قالت : فارق ورب محمد قال : فقلت لها : يا أماه من هو فقالت : عروة بن حزام أحد بني ضنة ، وأنا أمه ، فقلت لها ما بلغ به ما أرى ؟ قالت : الحب ، والله ما سمعت له منذ سنة كلمة ولا أنّة إلا اليوم ، فإنه أقبل عليّ ثم قال :

من كان من أمهاتي باكياً أبداً ... فاليوم إني أُراني اليوم مقبوضا
يسمعنني فإني غير سامعه ... إذا علوت رقاب القوم معروضا»(٢)

(١) الأغاني : ٢٨ : ٩٥٨٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ورغم أن الرواية عن هشام بن عروة مرفوعة إلى النعمان بن بشير في كل من الشعر والشعراء والأغاني إلا أن بينهما اختلافاً واضحاً وربما إن ابن قتيبة اعتمد على نقل المعنى كما أوضح في آخر روايته حيث قال : « هذا معنى الحديث »[1] فاختلط في نقل النص وتبعه الكثير من بعده في عباراته . . .

وقد أشار أبو زيد عمر بن شبة في خبره هذه القصة عن عروة بن الزبير كما ذكر ذلك الأصبهاني[2] .

والذي أرجحه أن عروة بن الزبير قد لقي عروة بن حزام أثناء رحلته من الحجاز إلى مصر حيث استوطن تلك الديار ، وأن ابنه هشام سمع رواية النعمان بن بشير وجمع بين الروايتين غير أنه أغمي عليه بحضور عروة بن الزبير وأفاق بعده ، وإن موته بحضور النعمان بن بشير . ولذا فإننا نرجح رواية النعمان على غيرها من الروايات فيما يتعلق بوفاته وذلك لأنها انتقلت إلينا عن طريق الحديث ، ونحن نعرف ثقة الرواية في الحديث ، ولأن النعمان كان قد حضر لديار سعد هذيم بن زيد ، قبيلة عروة وقت جباية الصدقات ، وإن ذلك أقرب إلى الواقع ، وكذلك فإنه شهد وفاته والصلاة عليه ودفنه ووصف أمه بأنها عجوز يقرب من الواقع ، ولم يذكر نواح أخواته وأمه وخالته بينما ذكرها عروة بن الزبير في روايته والأقرب إلى الصواب أن عروة بن الزبير التقى بالشاعر العاشق في مراحل الحب الأولى قبل أن تتزوج أخواته ، وأمه ما زالت محتفظة بجمالها . لكن لما طال بها الأمد وعانت ما عانت من حالة ابنها ضعفت وخارت قواها وأصبحت عجوزاً كما رآها النعمان بن بشير رضي الله عنه .

ولم يحدد أحد من الرواة الذين سردنا رواياتهم ، تاريخ وفاة عروة بن حزام غير أن صاحب فوات الوفيات قال عنه « مات عشقاً في حدود الثلاثين من الهجرة في خلافة عثمان رضي الله عنه »[3] .

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٥.

(٢) الأغاني : ٢٨ : ٩٥٨٧.

(٣) فوات الوفيات ٢ : ٤٤٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد أشار الأنطاكي إلى أن الذهبي ذكرها في سنة ثلاثين من الهجرة ، فقال : « توفي عروة بن حزام على ما ذكر الذهبي في تاريخه في خلافة عثمان سنة ثلاثين للهجرة »[1] .

ويبدو الأمر واضحاً أن الكتبي قد أخذ تاريخ وفاة عروة من الذهبي الذي حاول التقريب من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه . . . وذكر أنه في خلافة عثمان رضي الله عنه . . .

وقد ذكر الأنطاكي أنه عثر على كتاب مجهول يحدد وفاته في ثمان وعشرين فقال : « ورأيت في كتاب مجهول التأليف أن وفاته كانت لعشر بقين من شوال ثمان وعشرين للهجرة . . . وكون الشاعر مات في عهد عثمان فقد رجحه بعضهم لأنه ورد في رواية الأغاني صريحاً في حديث النعمان بن بشير ، ولأن النعمان لم يتول الصدقات في عهد معاوية ، ويدعمه رواية الأنطاكي التي أسلفت ورواية الكتبي صاحب فوات الوفيات وإن كنت لا أستبعد موت الشاعر فيما يقرب الخامسة والأربعين من الهجرة ، بدليل أنه طال عشقه وهيامه حتى عرف في الديار الإسلامية في مكة والمدينة المنورة والشام ، وربما يدعم هذا أيضاً ما روي أن معاوية . . . « لو علم بحال هذين الكريمين الشهمين لجمعت بينهما » . فإن ذلك كان في هيمنته على الشام وولايته الأخيرة في عهد عثمان .

وهذه الأدلة يدعمها تشكيك ابن قتيبة في موت عروة زمن عثمان أمر لا يبتعد عن الواقع فابن قتيبة قال في رواية النعمان بن بشير « بعثني عثمان أو معاوية » . الأمر الذي يجعلنا لا نستبعد تأخر وفاته حتى الخامسة والأربعين ويدعم ذلك وصف النعمان لأمه بأنها عجوز تقدَّم بها العمر ، كما أسلفت في تحديد وفاته وخير دليل يرجح ذلك ويدعمه ما ذكره المؤرخون للأدب من أن أُثالة بن سعيد الذي تزوج عفراء من عمال بني أمية[2] ، ولم تتجسد دولة بني أمية إلا في عهد معاوية رضي الله عنه .

---

(١) تزيين الأسواق ١ : ١٣٠ .

(٢) الأصبهاني ، الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفاة عفراء :

روى ابن قتيبة أنه (لما بلغ عفراء موته قالت لزوجها يا هناه قد كان من أمر هذا الرجل مما قد علمت وما كان والله إلا على الحسن الجميل وقد بلغني أنه قد مات في أرض غربة ، فإن رأيت أن تأذن لي فأخرج في نسوة قومي فنندبه ونبكي عليه ؟

فأذن لها فخرجت وهي تقول :

ألا أيُّها الركبُ المُخِبّون ويحكمْ ... بحقٍّ نعيتم عُروَةُ بن حِزامِ؟
فلا نفع الفتيان بعدك لذّةٌ ... لا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ
وقل للحبالى لا يرجِّين غائباً ... ولا فرحت من بعده بغلام

فما زالت تردد هذه الأبيات حتى ماتت)[1] ويلاحظ أنه لم يذكر موتها على قبره . وصاحب الأغاني لم يذكر خروجها لقبره واكتفى بأنها تردد الأبيات حتى ماتت حيث قال : (وبلغ عفراء خبر وفاته فجزعت جزعاً شديداً وقالت ترثيه (الأبيات) ولم تزل تردد هذه الأبيات وتندبه بها حتى ماتت بعد أيام قلائل بعده)[2] .

غير أن أبا بكر محمد بن داود الأصبهاني صاحب الزهرة روى قصة تكاد تكون متكاملة لوفاة عفراء ولأنه أقدم المؤلفين فقد توفي سنة ٢٩٦ هـ ولاختصاصه في جمع شعر العاشقين ، فإن روايته لها المكانة البارزة التي يعتمد عليها فقال : (وذكروا أن عروة لما انصرف من عند عفراء ابنة عقال فتوفي وجد بها صبابة إليها . مر به ركب فعرفوه فلما انتهوا إلى منزل عفراء صاح صائح منهم :

ألا أيها القصر المغفل أهله ... نعينا إليكم عُروة بن حزام

ففهمت صوته ففزعت وأشرفت فقالت :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم ... بحقٍ نعيتم عروة بن حزام

(١) الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٤.
(٢) الأغاني : ٢٨/٩٥٧٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأجابها رجل من القوم :

نعم قد تركناه بأرض بعيدة مقيماً بها في سبسب وآكام

فقالت لهم :

فإنْ كان حقاً ما تقولون فاعلموا بأنْ قد نعيت بدر كلَّ ظلام
فلا لقي الفتيان بعدك لذَّةً ولا رجعوا من غيبةٍ بسلام
ولا وضعت أنثى تماماً بمثلِهِ ولا فرحت من بعده بغلام
ولا لا بلغتم حيثُ وجهتُمُ لهُ ونُغِّصتُمُ لذَّاتِ كلَّ طعام

ثم سألتهم أين دفنوه ؟ فأخبروها فسارت إلى قبره فلما قاربته قالت : أنزلوني . فإني أريد قضاء حاجة ؛ فانزلوها فانسلت إلى قبره فانكبت عليه فما راعهم إلا صوتها . فلما سمعوه بادروا إليها .

فإذا هي ممدودة على القبر قد خرجت أنفاسها . فدفنوها إلى جنبه[1] .

وقد روى خبر وفاة عروة بن حزام صاحبُ خزانةِ الأدب عبد القادر البغدادي بما يقرب من رواية ابن قتيبة ولكن نغفلها لاختلاف النص والمضمون ولاختلاف في رواية الأبيات حيث ذكر أن فتية يريدون إغضاب عفراء والنكاية بها فقال :

(فقال بعضهم لبعض والله لنأتين عفراء بما يسوؤها . فصاروا حتى مروا بمنزلها وكان ليلاً . فصاح صائح منهم وهي تسمع :

ألا أيها البيت المغفل أهله إليهم نعينا عروة بن حزام

ففهمت عفراء الصوت ونادت بهم :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم أحقاً نعيتم عروة بن حزام

---

(١) الزهرة ١ : ٤٨٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ : ٢١٧ ، الأضواء لمحمد بن القاسم الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٤٢٣ ، الأغاني ٢٨ : فوات الوفيات ٢٢ : ٤٤٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأجابته وقالت :

فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا ... بأن قد نعيتم بدر كل تمام
نعيتم فتى يُسقى الغمامُ بوجهه ... إذا هي أمست غير ذات غمام
فلا نفع الفتيان بعدك لذةٌ ... ولا ما لقوا من صحة وسلام
وبِتْنَ الحالى لا يُرجَين غائباً ... ولا فريحاتٍ بعده بغلام

ثم أقبلت على زوجها فقالت له :

أنه قد بلغني من أمر ذلك الرجل ما قد بلغك ـ والله ما كان إلا على الحسن الجميل ، وقد بلغني أنه مات ، فإن رأيت أن تأذن لي فأخرج إلى قبره ، فأذن لها ، فخرجت في نسوة من قومه تندبه وتبكي عليه حتى ماتت[1] .

وليس من المنطقية والواقعية في شيء ، أن نصدق ما نقل الرواة أنَّ عفراء استأذنت زوجها لمَّا علمت بوفاة عروة لتسافر في جمع من النسوة وتنوح على قبره ، لأنه ليس مرغوباً به في النصف الأول من الهجرة ولأن الرجل العاقل لا يتيح فرصة لزوجته بأن تهلك نفسها أو تسافر مع غيره بلا محرم لها ، وكذلك لا يعرف الناس رحلة طويلة الأمد من أجل النياحة والبكاء ، وربما إن الذي رآه الدكتور عمر فروخ رحمه الله هو الأقرب للصواب فقد أشار إلى أنها مرت بقبره فجاشت الذكرى واضطربت نفسها وخفق قلبها فهلكت . يقول :

« ويزعمون أن عفراء مرت يوماً بقبر عروة فنزلت عليه تبكي وتنحب حتى ماتت عنده »[2] .

ومما يساند رأي فروخ أن صاحب الزهرة وهو من أقدم المصادر لم يتعرض لاستئذانها من زوجها أو طلب النواح عليه . ولكنها سافرت فلما قربت من القبر انسلت إليه من حيث لا يشعر رفقاؤها وهذا يدل على أن

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٢١٧ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ١ : ٢٩٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السفر بعد مضي زمن كأن طلبت الزيارة لأهلها ، وقد أمن زوجها عليها بعد وفاة عروة بن حزام فسارت إلى بلادها ولكنها عرجت على القبر فتأثرت وماتت عليه وأما ما روي عن النياحة فأرى أنها استأذنت زوجها بعد الوفاة مباشرة فناحت عليه ولكن لم تمت ، ولم يكن ذلك على قبره .

ويقال : إن عفراء لم تزر قبر عروة بدليل أبياتها :

عـداني أن أزورك يـا خليلي ... معـاشـر كلهـم واش حسـود
أشاعوا مـا علمت من الدواهي ... وعـابـونـا ومـا فيهم رشيـد
فـأمـا إذ ثـويت اليوم لحـداً ... فـدور النـاس كلهم اللحـود
فـلا طـابت لي الـدنيـا فـراقـاً ... لبعدك لا يطيب لي العـديد[1]

والأبيات هذه إما أن تكون قد قالتها عفراء في الفترة التي لم تتمكن من السفر والانسلال إلى قبر عروة . ثم أتيح لها السفر. وقضت نحبها إلى القبر وهو الأرجح الذي يجمع الروايات .

أو إنها جمعت النسوة للنياحة في دارها ثم ساءت حالها وخارت قواها وأخذت تردد أبيات الرثاء حتى وافاها أجلها .

والذي أُرجحه أن النياحة أظهرت حالتها للناس فترقبوا موتها ، وأن الوفاة الحقيقية بعد أن استأذنت زوجها وانسلت إلى القبر فماتت هناك . وعشق عروة بن حزام لابنة عمه عفراء سمع به القاصي والداني ودرج على كل لسان ، فلا غرابة أن تصحبه الخرافات والأساطير ، وتحاك حوله القصص ويدخل على القصة الأصل ، ما لا يمت لها بصلة ، ومن ذلك ما تناقله رواة الأدب بعد وفاة العاشقين :

روى صاحب مصارع العشاق :

قال ابن المرزبان : حدثني إسحاق بن محمد بن إبان قال :

حدثني معاذ بن يحيى قال :

خرجت إلى صنعاء ، فلما كنا ببعض الطريق قيل لنا : إنّ قبر عفراء

---

(١) الأنطاكي ، تزيين الأسواق ١ : ١٣٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعروة على مقدار ميل من الطريق . قال : فمضت جماعة كنت فيهم فإذا قبران متلاصقان ، قد خرج من كل قبر ساق شجرة حتى إذا صارتا على مقدار قامة التف كل واحد منهما بصاحبها قال إسحاق : فقلت لمعاذ أي ضرب هو من الشجر ؟ فقال لا أدري ولقد سألت أهل القرية عنه فقالوا : لا نعرف هذا الشجر ببلادنا[1] . ورواية إن القبرين قرب صنعاء ليست من الواقع والحقيقة في شيء اللهم إلا إذا أراد الراوي أنه خرج من دمشق في الشام فإنه يمر بديار عروة وعفراء[2] وقد روى القصة الأنطاكي في تزيين الأسواق وزاد فيها قطعتين من الشعر ، ولم يحدد المكان .

فقال : « فنبت من القبرين شجرتين حتى إذا صارتا على حد قامة التقتا فكان المارة تنظر إليهما ولا يعرفا من أي ضرب من النبات ، وكثيراً ما أنشدت فيهما الناس من ذلك قول الشهاب محمود :

بالله يا سرحة الوادي إذا خطرت ... تلك المعاطف حيث الرند والغار
فعانقيهم عن الصب الكئيب فما ... على معانقة الأغصان إنكار

وقول صاحب الأصل :

غصنان من دوحة طال ائتلافهما ... فيها فجالت صروف الدهر فافترقا
فصار في يد تحويه ليس له ... منها براح وهذا في الغلاة لقا
حتى إذا ذويا يوماً وضمهما ... بعد التفرق بطن الأرض واتفقا
حنا على العهد في أرجائها فحنا ... كل على ألفه في الترب واعتنقا

وعلق الأنطاكي على القطعتين بقوله : « قلت وبين هذين خلاف في اللفظ والمعنى ويحتمل رجوعه إلى خصوص وعموم مطلق ، فإن الأول أرق وأعذب وألطف لكنه قاصر عن المراد ، وغير دال على خصوص المقام وفيه التكرار الذي عدته البلاغة عيباً فإن الرند والغار مترادفان ، وفيه عيب خفي إلا على الناقد فإنه لم يجعل المتعانقين المتحابين بل أمر السرحة (يعني

(١) مصارع العشاق ١ : ٢١٢ ، مصارع العشاق ١ : ٢٦٤ .

(٢) ويكون ذلك من قبيلة بين البصرة ومكة المكرمة وهناك مكان يسمى صنعاء على درب الحاج بين تبوك والعلا في مواطن قبيلة عذرة ولا زال معروفاً بهذا الاسم فربما قصده .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشجرة) أن تعانق تلك المعاطف يعني معاطف المعشوقة نيابة عن العاشق وعلل ذلك بالإنكار على تعانق المتحابين ، ولقد تضافرت كلمات المحبين باستهال الذم في قضاء الوطر .

أمّا الثاني فقد تضمن حكاية الحال مع حسن الاستعارة المكنية ودل على المقام ولكنه غير رقيق ولا خال عن السماجة »[1] .

النشاة والتكوين الفكري :

تكونت التركيبة الذهنية للشاعر عروة بن حزام من خلال المشاهدات ، التي تقرؤها عيناه في مضارب القبائل العربية التي عاشت الحياة في الصحراء وبين التلال والوهاد والنجود والسهول والجبال والآكام ، فرضع الشاعر الحياة البدوية تماماً كما يتغذى من ثدي أمه ، فرأى الخيام المتجاورة والأطناب المتشابكة المنسوجة من الأوبار والأشعار ، يستظل بظلالها ويسكن بكنهها وهي الوكر الذي يأوي إليه مستغيثاً به من الحر والقر .

يقول طرفة بن العبد : ـ

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد[2]

وعروة يصف الخيام « أو بيت الشَعر » وكيف أنه يأنس به رغم خلقانه وهلهلته : ـ

فوالله لولا حبّ عفراء ما التقى عليّ رواقا بيتك الخلقان
خليقان هلها لأن لا خير فيهما قبيحان يجري فيهما اليرقان
رواقان هفافان لا خير فيهما إذا هبت الأرواح يصطفقان[3]

وفي هذه الأخبية وبينها وأمامها وخلفها يلعب الصبية ، ويسمعون حسيس الناس وأحاديثهم ، وينشأ في مواكبة الحياة اليومية ، الكل مهطع

---

(١) تزيين الأسواق ١/١٣٤ .
(٢) شرح القصائد السبع ـ الأنباري ١٩٦ .
(٣) ذيل الأمالي ٢ : ١٦٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى عمله يؤدي وظيفته جاهداً مخلصاً من الطفل الصغير حتى الشيخ الكبير ، فكل طفل في البداوة يرعى البهم حتى يشتد عوده ، ثم ينتقل إلى رعي الأغنام والشاة ، أو يكون مدركاً إدراكاً تاماً للمهمتين معاً ، ويقوم برعي الإبل أو الإشراف على هذا وذاك ، وكثيراً ما يعمل ساقياً نازحاً الماء من قاع الجب بساعدين مفتولين .

والشاعر عروة بن حزام ، قد مارس تلك الحياة ونما بين رفقته من البنين والبنات وأكثرهم قرباً منه عفراء ابنة عمه وربيبة بيته كما يقول المجنون :

ألا طالما لاعبت ليلى وقادني إلى اللهو قلب للحسان طروب[1]

ولم يلبث أن التحق بالخدمة فيرعى البهم مع أقرانه ويحتك بالفتيات ويصور لنا أيامه السالفة التي حفلت باللقاء والتواد والتآلف .

ويا ليت إنا الدهر في غير ريبة خليان نرعى البهم مؤتلفان

وجاء المجنون من بعده وأخذ المعنى في بيتين تداولهما الناس : ـ

تعلّقتُ ليلى وهي ذاتُ ذؤابةٍ ولم يبدُ للأتراب من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم[2]

وربما رعى الأغنام والإبل ، وأثرت فيه صفحة الطبيعة المفتوحة بنضرتها وحبورها ، وتألق زهورها ، وعبير أنفاسها وتغريد طيورها ، واهتزاز أغصانها : ـ

ناحت على غصن من أيكة نضر في يوم دجن له ريح وأنداء
فالريح ترفعه والطلُّ يخفضه والعين والغصن يجري منهما الماء[3]

ورأى تدفق السيول من الشعاب والأودية ، والتقت عيناه بوحوشها وظبائها والمها جارياً في تلاعها ، قافزاً في قيعانها ، وغيرها من الحيوانات

---

(١) الأغاني ٢ : ٤٢٥ .
(٢) الأغاني ٢ : ٤٢٩ .
(٣) ديوان الأخطل : ١ : ١٩٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الهادئة والنافرة ، والجارحة والكاسرة .

وعانى ما عانى من قر الشتاء ، ودبوره ، وصقيعه ، ورياحه العاتية في وقت ينحسر معه الغذاء للإنسان . ويشعر بالخطر يداهم الشاة والبعير وهما الثروة التي يعتد بهما ، ويفقد لذيذ العيش ورغيده ، فيشتد عليه العبء ويدأب في مصارعه الحياة حتى تلامسه نسمات الربيع بغيثه ونعمائه ، ويزهو حتى لا يرى له مثيلاً ولا نداً ، ويقبل الصيف بهجيره وسمومه فيشتد الحر ، ويذبل الشجر ، وتهيم الإبل فيكون الإنسان أحوج ما يكون إلى الماء ، فيجتمع الأعراب حول المياه الغزيرة ، وهنا تكون التجمعات البشرية ، واللقاءات والتعارف والتجاور ، والتزاور والتواد والتحاب ، وربما التنافر والتباغض ، فإذا ما دار العام دورته وأدبر الصيف وأقبل الشتاء ، يظعن القوم ويتفرقون شتاتاً فينعب غراب البين والفراق على الأحباب ، يقول الأخطل : ـ

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ... وأزعجتهم نوى في صرفها غِيرُ[1]

صحا القلب إلا من ظعائن فاتني ... بهن ابن خلاس طفيل وعزهل

كأني غداء الضغن للعيش مسلم ... بضربة عنق أو غوى معذل[2]

ويظعنون بعيداً عن المياه الثابتة التي درستها الماشية ، ويتفرقون جماعات صغيرة لتتغذى ماشيتهم بما حولها ، ولكنهم مع ذلك يتحامون ويتناصرون ، فإذا ما داهمهم الخطر في أحد المضارب فإنهم يلبون نداء الصارخ الفزع : ـ

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له قرع الضنابيب[1]

وليس بالضرورة أن يتجاوز الأقربون الأدنون ، بل يرتحل الابن أو الأخ مع فريق آخر : ـ

ونشأة عروة بن حزام وابنة عمه عفراء بنت عقال تحت حضانة الأخير

---

(١) ديوان الأخطل : ١ : ١٤ .

(٢) المبرد ، الكامل ١ : ٣ تحقيق محمد أحمد الدالي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

زادت وشائج الاتصال والتواصل ، فقد عنى بهما معاً ، فهو الرجل الذي له إبنة ولم يذكر التاريخ له بنين ، فجمع الله له بين البنين والبنات . . . بابن أخيه وابنته عفراء ، وبنى حياته وحياة أسرته على الوفاق والاتفاق ورأى أن الزواج وسيلة لتثبيت السيرة الحياتية للأسرة . فأعلن أن عفراء لعروة ، وهذه عادة عربية في شمال غرب الجزيرة العربية توارثتها القبائل . فإنهم ينحلون البنات للبنين ولا زالت العادة حتى عهد قريب وقد انحسرت مع انتشار الوعي والتعليم ، لما تبين خطؤها وما تحدثه من مشاكل حين يبلغ الأولاد الحلم فتختلف الرغبات وربما يحدث الخصام ويتضح عدم التكافؤ .

وكانت التربية التي صبغت عروة وعفراء بصبغتها واحدة فأثرت في التكوين النفسي والعقلي مما زاد في تقاربهما وتآلفهما .

يقول ابن حزم : -

« وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات أنما هو الاتصال والانفصال والشكل دأباً يستدعي مشكلة والمثل إلى مثل ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها ، العالم الصافي الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل ، وسنحها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والشوق والانحراف والشهوة والنفار »[1] .

والتركيبة النفسية لعروة وعفراء تخضع لأيديولوجية واحدة لأنهما تحت رعاية واحدة فهما يقلدان رجلاً واحداً ، ويأتمران بأمره وقد أوجد تقارباً ، ومعرفة ، وثقة ولا أخالها إلا قائمة على الخير والحق والجمال لأنهما أدرى الناس بخفاياهما مما زاد تعلقهما ببعضهما ، وقد لمع شهاب الحب حين بدأت بوادر الافتراق بينهما واستهلاها وأحسا بوجيب القلب عندما بدأت علامات النضوج والتحقت بالنساء واشتد عوده والتحق بالرجال فلا يرى بعضهما بعضاً إلا لماماً ، مما أوقد جذوة الحب .

وعروة ذلك الغلام الذي نشأ فاقداً لحماية الأب ورعايته وكانت كفالة

---

(١) طوق الحمامة ٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العم ورفقه بابن أخيه أمر لا يستهان به ، فقد عوض بعض الشيء عن فقد أبيه . غير أنه خفف منها غيرة زوجة العم وإلحاحها على التهوين والتقليل من شأن عروة ، لكن ما فقده من حنان الأبوة ، وجده في حضن الأمومة وكنف الخالة والعمة والأخوات فدرج الصبي يحفه الحب وفيض من الحنان الأنثوي مما هيأ له الاعتدال الذي يبشر بتكوين فتى يدرج في الحياة بثقة وروية بل إن الأمر يدفع به إلى تحمل المسؤولية في سن مبكرة أكثر من أقرانه لأن الأسرة العربية تعتمد على ذكورها أكثر من الإناث ، فتؤهلهم لتحمل المسؤولية ، ولا سيما إذا كان الفتى هو الإبن الوحيد للأسرة ، فتشعره بأهميته ودوره المنتظر فيتحمل الأعباء من نعومة أظفاره ، وتتيح له الممارسة ومباشرة الأعمال ، فتبعث الأم به إلى محادثة الرجال واستقبالهم والحوار معهم وتبعث به مع وفود القبيلة طلباً للرزق .

وتدفع به إلى مبارزة الأقران ، والأخذ بأسباب القوة والمنعة وتهيئته نفسياً لاستقبال الحياة ، وتقرع له طبول الحماس ، وتثير فيه كوامن الشجاعة والولاء للأسرة ، وتوحي له بمكانته المنتظرة ، وما تفتأ تردد على مسامعه بأنها وبناتها نساء ضعاف وهو الرجل القوي الذي يذود عن الأسرة .

والأم العربية تلاقي الصعاب ، وشظف العيش ، وتدفع حياتها ومتاعها وملذاتها في سبيل تربية ابنها حتى يشب عن الطوق ، فتعرض عن الإقتران بالرجال ليظل ابنها هاجسها الدائم ، وأملها المنتظر ، وتكتمل السعادة برؤيتها له وقد تمثل لها رجلاً كاملاً ، وهذا شأن أم عروة التي أحسنت تربيته حتى أصبح فتاها يشار إليه بالبنان لكن لم يلبث داء الحب أن قوّض آمال الأم الحانية وحملت ما لا طاقة لها به ، وأصيبت في وحيدها ، وأخذت تحمله وتعنى به في زمن كانت تتوق إلى أن تراه يرعاها ويُعنى بها .

أما الأسرة عامة وعروة خاصة فإنهم إلى العوز أقرب منهم إلى الثراء والغنى ولا سيما أنه يعول الأم وأخوات أربع ، وقد أشارت زوجة العم إلى فقره وضيق حاله . الأمر الذي دعاه إلى الرحلة إلى صنعاء حيث إبن العم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثري ولم يخيب آماله فدفع له بمائة ناقة ، وقد بين شعره حالة الفقر فقال : ـ

يكلفني عمي ثمانين ناقة وما لي والرحمن غير ثمان

أما العم فليس بأحسن حالاً فهو إلى العدم أميل منه إلى الغنى بل إن أوعية خيمته تدل على البؤس والفقر .

يقول عروة واصفاً خيمته : ـ

فوالله لولا حب عفراء ما التقى عليّ رواقا بيتك الخلقان
خلقان هلها لأن لا خير فيهما قبيحان يجري فيهما اليرقان
رواقان هفافان لا خير فيهما إذا هبت الأرواح يصطفقان

فهذه الأبيات لا تدل على العدم والعوز فحسب بل إنها تشير إلى سوء إدارة زوجة العم وقدراتها وكأنه يريد أن يعرض بذمها ولا يصرح . ومن خلال سيرة عروة بن حزام نلتمس أن الأسرة ذات نسب عريق غير أنها لم تحتل مكانة في عهد عروة وإنما تمثل الطبقة الشعبية للقبائل العربية فأغلب أبناء القبائل لا يتجاوز عدد الإبل عندهم العشرة وأما أمراء القبائل والأثرياء فإنهم يمتلكون قطعاناً كثيرة من الأنعام والخيل وأسباب الحياة .

تنامي الحب وغلبته :

الحب دوحة العاشقين ، يستظلون ظلالها ويتفيئون فيئها ، ويغردون على أغصانها ، ويعبقون شذا عبيرها ، ويرتوون رحيق شريانها ، ويجنون ثمارها ، فهي وطنهم الذي يأنسون ، وليسوا عنه بمهاجرين ، لذا فإنهم يصدحون بأناشيد الهوى ، فكأن فقدان التدبر أو تعطيل العقل أخرجهم من حياة الإنسان التي تقوم على الاعتدال والتوازن ، إلى حرية العصافير المغردة ، والبلابل الصداحة ، الأمر الذي حجبهم عن وظيفة الإنسان في هذا الكون وليس هذا فحسب بل حجبهم عن العاطفة والأهواء والملذات التي غالباً ما تستأثر بالإنسان ، وتلك قوة ليست بالهينة ، وكل ذلك لن يتأتى إلا نتيجة لتلاقي الأرواح ، والإعجاب كل الإعجاب بالكلمة المؤثرة ، والوفاء ، والملاحة ، والطرفة وخفة الروح ، وطول الأنس ، ومداومة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التفكير ، ونتيجة التجارب ، ونهم النظر ، وعلوق القلب ، وقوة الاندفاع ، وطول التمني ، وبناء هرم من أحلام اليقظة تتحول إلى فكر وتتبلور كأنها عمل حتمي الوجود ، فيغلب العشق ، ويهيمن ، ويستحوذ بعد رحلة زمنية مملوءة بالأحداث بين العاشقين ولا سيما في مرحلة الصبا والشباب فتتحول قوة الشجاعة وقوة الكرم وقوة المروءة إلى ذات واحدة هي المحبوبة ، وتحجب ما عداها عن وعي العاشق .

أشار ابن حزم في كتابه طوق الحمامة إلى أسباب الحب ، وكيفية علوقه بالقلب ، وأشار إلى اختلاف السبل والتأثير واستقرأ الحالات التي ألمّ بها في حياته وشاهد أصحابها وجالسهم فتبين له أن الحب ربما يقع في النوم وبالوصف ، وبالنظرة الواحدة العجلى ومنهم من يحب مع المطاولة وتكرار اللقاء كما هو الشأن بين عروة وعفراء وقد نسب ابن حزم الثلاثة الأولى إلى الصرعة والطيش والنزغ ، وأثنى على المطاولة ، وكثرة المشاهدة ، وتمادي الأنس ، « وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون ظني متمكناً من صحيح الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً ، وأخذي معه في كل جد وهزل ، وكذلك أنا في السلو والتوقي ، فما نسيت وداً لي قط ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو وفي ذلك أقول : ـ

سأبعد عن دواعي الحب إني ... رأيت الحزم من صفةِ الرشيد
رأيتُ الحب أوّله التصدي ... بعينك في أزاهير الخدود[1]

ويقول : ـ

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ... ولا وريت حين ارتياد زنادُها
ولكن على مَهَل سرت وتولدت ... بطول امتزاج فاستقر عمادُها[2]

(١) ابن حزم طوق الحمامة : ٢٤، ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ٢٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاعر عروة بن حزام نجم حبُّهُ عن طول تواد وصحبة وألفة واقتران دام أيام الطفولة الأكثر علوقاً ، وتواصل أيام الصبا الأكثر اندفاعاً ، وأيام الشباب الأكثر إخلاصاً ، فقد نشأ في بيت واحد يقول عروة : -

أناسية عفراء ذكراي بعدما تركت لها ذكرى بكل مكان

وتواصل اللقاء والأنس كفيل بتثبيت وشائج الحب بين العاشقين : -

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل جامع
لقد نبتت في القلب منك محبة كما نبت في الراحتين الأصابع[1]

وحب قيس بن الملوح مجنون ليلى صاحب الأبيات كان نتيجة الصحبة الطويلة فكانا يرعيان البهم الأمر الذي ثبت أواصر الحب بينهما .

وكان نتيجة التواصل بين عروة وعفراء أن غلب عليهما الحب ، واستحوذ على جوارح عروة وغرائزه ، ما ينفك عنه في دقائقه ولا ساعاته ولا يومه أو ليله ، ونكب جانباً عن كل ما عداه ، واستلذ بتكراره على مسامعه ، فلا مناص من البوح به « فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً ، وهذا من أبعد غايات العشق ، وأقوى تحكمه على العقل ، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح ، والقبيح في هيئة الحسن ، وهناك يرى الخير شراً ، والشر خيراً ، وكم مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء ، قد كشف الحب ستره ، وأباح حريمه ، وأهمل حماه ، وصار بعد الصيانة علماً ، وبعد السكون مثلاً ، وأحب شيء إليه الفضيحة ، فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه ؛ فسهل ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً »[2].

ومن هنا لا تستغرب دعوة عروة أن يكونا بعبرين أجربين مطاردين في الصحراء : -

فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان

---

(١) الأغاني ١ : ٤٦٣ .
(٢) طوق الحمامة ص ٣٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويا ليت أن الدهر في غير ريبة خليان نرعى القفر مؤتلفان
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله وقالوا بعيرا عرة جربان[1]

وتجاوز الأمر الحياة إلى الموت فإنه المحبوبُ الذي يشتهي لقاؤه إذا ما كان سبيلاً للقاء في الآخرة يقول عروة : ـ

وإني لأهوى الحشر إذا قيل إنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان[2]

وقد أحسن وصف العشاق محمد بن الهذيل العلاف حين يقول : ـ (العشق يختم النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتقى في الأجساد ، ومسرعة في الأكباد وصاحبه متصرف الظنون ، متغير الأوهام ، لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع ، وطلاوة توجد في الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغي إلى داعية المنع ، ولا يسنح به نازع العذل)[3] .

خطبة عروة لعفراء : ـ

هلك حزام وخلف وراءه صبية صغاراً ، الإبن الأوحد فيهم هو عروة فنشأ في حجر عمه صغيراً ، وكان لعمه عقال ابنته عفراء التي تقترب من عروة في زمن الولادة ، فأصبحا قريبين يكونا معاً ، فتآلفا حتى كانت تسكن قلبه ، ويسكن قلبها ، يسكن بيتها ، وتسكن بيته كانا يتقاسمان ألعابهما ويتقاسمان الرغيف وقدر اللبن والماء وكان يضمهما فناء واحد ، وكنف واحد ، وحنان واحد ، كانا صبيين يلهوان ويمرحان ، متآلفين منسجمين ، لا خلاف ولا تنافر ، فكانا زهرتين تتآلفان في الجو الأسري .

وكانا نجمين لامعين يرنو إليهما عقال بقلب الأب الرؤوف ، لذا أخذ يمنيهما بالارتباط .

---

(١) ذيل الأمالي ٢ : ١٦١ .
(٢) ذيل الأمالي ٢ : ١٦١ .
(٣) مروج الذهب ٣ : ٢٨٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كما يروي الأصبهاني : « أن حزاماً هلك وترك ابنه عروة صغيراً في حجر عمه عقال بن مهاصر ، وكانت عفراء تربأ لعروة ، يلعبان جميعاً ، ويكونان معاً حتى ألف كل واحد منهما صاحبه ألفاً شديداً وكان عقال يقول لعروة لما يرى من ألفهما : أبشر فإن عفراء إمرأتك إن شاء الله »[1] .

ذلك ما شغل عروة عن العمل الجاد في حياته ، فغلبت على أمره وأصبحت الهاجس الثابت في قلبه الذي يلوب في لبه ، ويكيف سلوكياته .

ولما بلغ عروة بن حزام الشباب بدأت المعاناة ومكابدة الحب مع التي شغف بها حباً ووجداً ، غير أن الأثر الإسلامي لتربية الفرد المسلم تجلت بجلاء ووضوح في تصرفات عروة رغم صغر سنه وحداثته ، فأعرض عن تدنيس الأعراض ، وارتكاب المحرمات ، والتجأ إلى السبل السليمة التي تكفل الارتباط الشرعي المباح فأخذ يكرر الخطبة المرة تلو الأخرى يلح ويلج الأبواب ، فيذهب بنفسه ويستدر عطف عمه ، ويبعث من لهم المكانة والتأثير ، وكل هذا في مرحلة الشباب الأولى : ـ

فروى صاحب الأغاني : أنه أتى عمة له : « يقال لها هند بنت مهاصر فشكا إليها ما به من حب عفراء ، وقال لها في بعض ما يقوله : يا عمة إني لأكلمك وأنا منك مستح ، ولكن لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعاً بما أنا فيه ، فذهبت عمته إلى أخيها فقالت له : يا أخي قد أتيتك في حاجة ، أحب أن تحسن فيها الرد ، فإن الله يأجرك بصلة رحمك فيها أسألك فيه ، فقال لها قولي فلن تسألي حاجة إلا رددتك بها ، قالت : تزوج عروة إبن أخيك ابنتك عفراء ، قال : ما عنه مذهب ولا هو دون رجل يرغب فيه ، ولا بنا عنه رغبة ، ولكنه ليس بذي مال وليست عليه عجلة ، فطابت نفس عروة وسكن بعض السكون »[2] .

وقد سجل عروة هذه الرغبة فقال :

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٧.

وقد نقل النص الكتبي في فوات الوفيات ٢ : ٤٤٧.

(٢) الأغاني : ٢٨ : ٩٥٦٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنيتي عفراء حتى رجوتها وشاع الذي منيت كل مكان

غير أن عروة يسعى في اتجاه ، وأم عفراء تسعى لضده ، فإن عروة غير مرغوب فيه لأنه ليس بذي المال والجاه وهما ما تبتغيهما الأم لابنتها الأمر الذي دعا للمعارضة والإلحاح على زوجها ليرفض عروة ، سيما وقد أتاه ذو المال والجاه ابن عم لهم يقال له : « أثالة بن سعيد بن مالك »[1] فلما أحس به عروة مد يده لابنة عمه مرة أخرى فأقبل على عمه فقال : « يا عم قد عرفت حقي وقرابتي وأني ولدك ، وربيب في حجرك ، وقد بلغني أن رجلاً يخطب عفراء فإن أسعفته بطلبه قتلتني وسفكت دمي ، فأنشدك الله ورحمي وحقي . . . فرقَّ له وقال له : -

« يا بني أنت معدم ، وحالنا قريبة من حالك ، ولست مخرجها إلى سواك وأمها أبت أن تزوجها إلا بمهر غال . فاضطرب واسترزق الله تعالى » ، ولم يقتصر على عمه فحسب بل ذهب إلى أم عفراء ، « فجاء إلى أمها فلاطفها وداراها ، فأبت أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر وبعد أن يسوق شطره إليها » ، فلما أدرك أن لا محالة من المال وإحضاره حتى يتزوج عفراء فإنه أخذ بالأسباب فقصد إبن عم له مؤسر باليمن وكان مقيماً بها فجاء إلى عمه وامرأته فأخبرهما بعزمه ، فصوباه ، وواعداه ألا يحدثا حدثاً حتى يعود »[2] فلما رحل عروة إلى اليمن وطالت به الغيبة وفد إلى ديار عفراء ابن عم لها .

ويروي صاحب الأغاني « أنه رجل من أهل الشام من أسباب بني أمية نزل في حي عفراء ، فنحر ووهب وأطعم . وكان ذا مال ، فرأى عفراء ، وكان منزله قريباً من منزلهم ، فأعجبته ، وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى إبن أخ لي يعد لها عندي وما إليها لغيره سبيل ، فقال له : إني أرغبك في المهر قال لا حاجة لي بذلك ، فعدل إلى أمها . فوافق عندها قبولاً لبذله ، ورغبت في ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى

---

(١) تزيين الأسواق ١ : ١٣٠ .

(٢) الأغاني ٩٥٦٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عقال فآذته وصخبت عليه ، وقالت : أي خير في عروة حتى تحبس ابنتي عليه ، وقد جاءها الغني يطرق عليها بابها والله ما ندري أعروة حي أم ميت ؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً فلم تزل به حتى قال لها : فإن عاد لي خاطباً أجبته ، فوجهت إليه : أن عد عليه خاطباً ، فلما كان من غد نحر جزراً عنده ، وأطعم ووهب ، وجمع الحي معه على طعامه ، وفيهم أبو عفراء ، فلما طعموا أعاد القول في الخطبة ، فأجابه وزوجّه ، وساق إليه المهر وحولت إليه عفراء ، وقالت قبل أن يدخل بها :

يا عرو إن الحيَّ قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

في أبيات طويلة ، فلما كان الليل دخل بها زوجها ، وأقام ثلاثاً ، ثم ارتحل إلى الشام »[1] .

أما الأنطاكي فإنه لم ير رحلة عروة إلى اليمن ، بل إن عمه بعث به إلى الشام ولم يتناول الخطبة كما فصل القول فيها الأصبهاني وإنما قال : « وجاء ابن أخ له يقال له أثالة بن سعيد بن مالك يريد الحج فنزل بعمه عصر ، فبينما هو جالس يوماً تجاه البيت إذ خرجت عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميها تحمل أدوات سمن وعليها إزار خز أخضر ، فلما رآها وقعت في قلبه بمكانة عظيمة فخطبها من عمه فزوجه بها »[2] .

وقد اقتصر ابن قتيبة والبغدادي حديثهما عن خطبة عروة بقولهما : -

« كان عروة يتيماً في حجر عمه ، حتى بلغ ، فعلق عفراء علاقة الصبي ، وكانا نشئا معاً ، فسأل عمه أن يزوجه إياها ، فكان يسوقه ، إلى أن خرج في عير لأهله إلى الشام ، وخطب عفراء ابن عم لها من البلقاء فتزوجها وحملها إلى بلده »[3] .

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٩.

(٢) تزيين الأسواق ١ : ١٣٠ .

(٣) الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٢/ خزانة الأدب ٣ : ٢١٥ ونقل مثل هذا مصارع العشاق ١ : ٣١٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما الرواية التي رواها هارون بن مسلمة عن غصين بن بران عن أم جميل الطائية « إن عفراء كانت يتيمة في حجر عمها عمه ، فعرضها عليه فأباها ثم طال المدى ، وانصرف عروة في يوم عيد بعد أن صلى صلاة العيد فرآها وقد زينت فرأى منها جمالاً بارعاً وقد قدمت له تحفة ، فنال منها وهو ينظر إليها ، ثم خطبها إلى عمه فمنعه ذلك ، مكافأة لما كان من كراهته لما عرضها عليه ، وزوجها رجلاً غيره ، فخرج بها إلى الشام »[1] . فالذي أرجحه أن القصة اختلطت مع رواية ابن عمها أثالة بن سعيد بن مالك فإنه هو الذي رآها وأعجب بها ، وربما وقع الإهداء من الفتاة عفراء لابن عمها عروة يوم العيد ولكن لا يعقل أنه يعرض عنها أثناء اللقاء والتآلف ويقبل إليها من نظرة واحدة ، وإنما رفعت الرماد عن جذوة دفينة فاشتعل الحب في قلب عروة .

زواج عفراء : ـ

أجمعت الكتب التي سردت قصة عروة بن حزام أن عفراء تزوجت ، ولكنهم اختلفوا فيه : فمن قائل : إنه رجل من عمال بني أمية « وقد كان رجلاً من أهل الشام من أسباب بني أمية . نزل في حي عفراء »[2] .

ومنهم من يرى أنه من بني أمية كما يقول الكتبي : ـ فنزل بالحي رجل ذو يسار ومال من بني أمية فرأى عفراء فأعجبته فبذل كثيراً من المال ـ فلم تزل أمها بأبيها إلى أن زوجها منه فلما أهديت إليه قالت : ـ

يا عرو إن الحي قد نقضوا عهد الإله وحالفوا الغدرا[3]

أما الأنطاكي فقد ذكر أنه ابن عم لها واسمه أثالة بن سعيد بن مالك[4]. وربما تقع التلباثية بين الأم والأبناء وبين الأخوة كما رصد ذلك بعض المهتمين وكما رصدوا ذلك مع بعض الحيتان في البحر عن طريق الذبذبات الكهربائية .

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٨١.

(٢) الأغاني : ٢٨ : ٩٥٦٩.

(٣) فوات الوفيات : ٢ : ٤٤٧.

(٤) تزيين الأسواق : ١ : ١٣٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وربما يشعر بها من التقى روحاهما فقد شعر عروة بن حزام بإحساس غريب حينما كان في عِيره وأقبل عِير عفراء عن بعد وأخبر عروة صحبه أن عفراء في هذا العير فبهت صحبه بعد أن أدركوا حقيقة الأمر .

كما روى ابن قتيبة : « وخطب عفراء ابن عم لها من البلقاء فتزوجها وحملها إلى بلده ، وأقبل عروة في عيره راجعاً حتى إذا كان بتبوك نظر إلى رفقة مقبلة من ناحية المدينة فيها امرأة على جمل أحمر ، فقال لأصحابه : والله لكأنها شمائل عفراء فقالوا : ويحك! ما تترك ذكر عفراء على حال من الأحوال : فلم يرع إلا بمعرفتها فبئس قائماً . لا يحير جواباً ، حتى نفذ القوم فذلك قوله : ـ

وإني لتعروني لِذِكراكِ روعةٌ ... لها بين جلدي والعِظام دبيبُ
وما هو إلاّ أن أراها فُجاءةً ... فأُبهتُ حتّى ما أكاد أُجيبُ
وأصرف عن رأي الذي كنت أرتئي ... وأنسى الذي أعددتُ حين تغيبُ
ويُظهِرُ قلبي عذرَها ويعينها ... عليّ فما لي في الفُؤادِ نَصيبُ
وقد عَلِمتْ نفسي مكان شفائها ... قريباً وهل ما لا يُنالُ قريب؟
لإن كان بردُ الماءِ أبيضَ صافياً ... إليّ حبيباً إنها لحبيبُ

ثم انصرف إلى أهله باكياً محزوناً ، فأخذه الهلاس ، حتى لم يبق منه شيء وقال قوم : هو مسحور ، وقال قوم : به جنة »[1] . وقد روى الأصبهاني أن أباها لما إرتحلت عفراء مع زوجها عمد إلى قبر عتيق فجدده وسوّاه ، وسأل الحي كتمان أمره وقدم عروة بعد أيام فنعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أياماً ، وهو مضنى هالك ، حتى جاءته جارية من الحي فأخبرته الخبر فتركهم وركب بعض إبله .

وكان عروة يأتي حياض الماء التي كانت إبل عفراء تردها فيلصق صدره بها ، فيقال له : مهلاً فإنك قاتل نفسك فاتّق الله فلا يقبل ، حتى أشرف على التلف ، وأحس بالموت فجعل يقول : ـ

(١) ابن قتيبة الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٢ ونقله بتصرف البغدادي في خزانته ٣ : ٢١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بي اليأس والداء الهيام سُقيته فإياك عني لا يكن بك ما بيا

وكان الهلاس كما يقول إبن قتيبة أو السل كما يقول البغدادي أو الهزال والهيام قد فعلت الأفاعيل ببنية الرجل الجسمية والنفسية معاً حتى أصبح كالخيال ، أو كما يقول المتنبي : ـ

كفى بجسمي نحولاً إنني رجل لولا مكالمتي إياك لم ترني

فأخبر الحرمي بن أبي العلاء ، قال حدثنا الزبير بن بكار قال : ـ

حدثني عبد بن عبد العزيز بن الماجشون عن أبي السائب قال : ـ أخبرني ابن أبي عتيق قال : ـ

والله إني لأسير في أرض عذرة ، إذا بامرأة تحمل غلاماً جزلاً ، ليس يحمل مثله ، فعجبت لذلك ، حتى أقبلت به ، فإذا له لحية فدعوتها ، فجاءت فقلت لها ويحك! ما هذا ؟ فقالت هل سمعت بعروة بن حزام ؟ فقلت نعم ، قالت : هذا والله عروة[1] وعروة دائم الاحساس بعفراء ، فكيف إذا شنفت أذناه باسمها فإنه يضطرب ، ويختل توازنه ، « فقد قيل إنه حمل ليلة إلى فضاء ليتنزه به فسمع رجلاً يقول لوالده على أي ناقة حملت الشعب يعني قرب الماء ، فقال على العفراء ، فأغمي عليه ساعة ثم قام مخبولاً »[2] .

رحلاته

نشأ عروة شاباً ذا مروءة وفتوة ، وحسن خلق ، وحمل على عاتقه مسؤولية أسرة ، فكان يرتحل مع أبناء عشيرته في أرجاء الجزيرة وراء الكلأ ومنازل الغيث ، وقد حدثني من أثق فيه من أبناء البادية في تلك الديار بأنهم يرتحلون من وادي الحجر جنوباً إلى أرض البلقاء وبئر السبع وسيطاء شرقاً وساحل البحر الأحمر غرباً ، فكانت حياة البدو أسفاراً في جلها وأي أسفار أسفارهم إنها سير على الأقدام أو فوق خيولهم أو إبلهم فهم يطيلون

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٨ .

(٢) تزيين الأسواق ١ : ١٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البصر والبصيرة فيما يشاهدون ، ويمثل ذلك في الزمن القديم قصيدة جميل بثينة فقد ذكر الأماكن التي تستوطنها قبائلهم من وادي الحجر حتى حاضرة معان وجبال الشراة مروراً بتبوك :

ذكرتُك يوم النحر يا بثن ذكْرَةً ... على قرنٍ والعيسُ بالقوم جُنَّحُ[1]
عواطِفَ بالعينين بين سرَّةٍ ... لَقاحاً وأُخرى حائل تتلقَّحُ[2]
دُهنَّ باسقاط اللِّغام كأنّه ... إذا قطّعتهُ الرِّيح قَزٌّ مُسَرَّحُ[3]
ويومَ وردنا قُرْحَ هاجت لي البُكا ... من الورقِ حَمّاءُ العِلاطين تصدحُ[4]
ويوم وردنا الحِجرَ يا بثن عادَتي ... لك الشوق حتى كدت باسمك أفصِحُ[5]
وليلةَ بِتنا بالجُنَيْنَةِ[6] هاجَني ... سَنا بارقٍ من نحو أرضِك يلمحُ
قعدتُ له والقوم صرعى كأنهم ... لدى العيس بالأكوار خُشْبٌ مُطَرَّحُ[7]
أُراقِبُهُ حتى بدا مُتبلِّجٌ ... من الصبح مشهورٌ وما كدتُ أصبحُ
وليلةَ بتنا ذات حَاجٍ ذكرتكمْ ... هُدُوّاً وقد نام الخليُّ المُصحَّحُ[8]
وبتُّ كئيباً لإذكاري وصُحبتي ... على مشرَعٍ فانهلتّ العينُ تسفحُ[9]
ويوم معَان قال لي فعصيته ... أفِق عن بثينَ ، الكاشِحُ المُتنَصِّحُ

---

(١) قرن : جبل . والعيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . وأجنح : مسرعة .

(٢) المسرة : المخفية ، أي تتلقى اللقاح فتخفيه في رحمها واللقاح : ماء الفحل ، وفي المنتهى : لقاح ، بدون نصب . والحائل : الناقة التي حمل عليها فلم تلقح ، أو التي لم تلقح سنة أو سنتين أو سنوات .

(٣) المنتهى : وهن ، تحريف ، والاسقاط : جمع سقط ، وهو ما أسقط . واللغام الزبد . والقز : الحرير والمسرح : المرسل .

(٤) قرح : وادي القرى أو سوقها . الورق : الحمام . وحماء : سوداء . والعلاط : صفحة العنق .

(٥) الحجر : أرض ثمود .

(٦) الجنينة : يطلق عليه الآن قاع المجينة ، في الجهة الجنوبية الغربية للمعظم على بعد مرحلة .

(٧) في المنتهى : العيش في موضع : العيس . صرعى : يريد نيام .

(٨) ذات حاج : شمال تبوك على بعد ثمانين كيلاً ، على درب الحاج .

(٩) المشرع : مورد الماء .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويـوم نـزلنـا بـالجبـال عشيـةً ... وقد حبـست فيها الشّراة وأذرُحُ[1]
ذكـرتكم فـاتـهلّت العـينُ إنّهـا ... إذا لم يكـن صبـرٌ أخفُّ وأروحُ
وليلةَ غـرّسنا بـأوديـة الغضـا[2] ... ذكـرتُك ، إنّ الحبّ داءٌ مُبـرِّحُ
ويوم تبوكٍ[3] كدتُ من شدّة الأسى ... عليـكِ بما أُخفي من الوجد أصـرحُ[4]

وكان رجال القبائل ، يرتحلون إلى الشام لجلب الحبوب وألوان من الأطعمة والأكسية فكل قبيلة من القبائل تبعث البعوث إلى أطراف الشام وأعماقه في رحلة صيفية ، للعمل والكسب والتزود بالضروريات الحياتية ولعروض التجارة ، وهذه سيرة القبائل في شمال غرب الجزيرة حتى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة النبوية .

وعروة رغم حداثته وصغر سنه فإن أمه تبعث به مع أبناء القبيلة ليقوموا بالأعمال التجارية ، ثم يعودوا إلى بلادهم بُجَرَ الحقائب ، والرحلة إلى الشام أمر ليس بمستغرب ، لذا فإن عمه يدفعه إلى أن يخرج في عِير الشام قبيل عزمه على زواج عفراء وربما إن الدافع إلى الرحلة الأخيرة هو إبعاد عروة لكي تتاح له فرصة زواج ابنته من غير عروة ، والقبائل المستوطنة في شمال غرب الجزيرة ، يكثر انتقالها إلى بلاد الشام ، طلباً للعشب ، إذ إن الشام دائمة الخصب ، فيفدون عليها بأنعامهم فمنهم من يعود إذا عم الخير بلاده ومواطنه الأصلية ، ومنهم من يمكث هناك وهكذا تكون الهجرات البشرية التي تمور وتتدافع إلى بلاد الشام ومصر .

---

(١) البكري : ولما نزلنا . المنتهى : فينا . والحبال : الكثبان الرملية المستطيلة ، والشراة : من أدنى الشام بفلسطين . وأذرح مدينة وحبست : يريد غابت وراء هذه الكثبان الرملية .

(٢) وادي الغضا : جنوب تبوك على بعد أربعين كيلاً .

(٣) تبوك : في شمال غرب تبوك ، غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ازدهرت في العهد السعودي وأصبحت عاصمة المنطقة ، يبلغ سكانها أكثر من مائة وعشرون ألف نسمة .

(٤) ديوان جميل بن معمر ٤٨ ، ٤٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رحلته إلى صنعاء : ـ

أول رحلاته ، رحلته إلى اليمن ، التي اضطر إليها اضطراراً طلباً للمساعدة ، لما رأى أن لا فائدة ، ولا حيلة له ، إلا بالمال الذي طُلب منه ومقداره ثمانون ناقة ولا يملك إلا ثمان ، فراودته نفسه السفر إلى اليمن حيث ابن العم الكريم الثري ، الذي يأمل فيه كل الأمل ، والرحلة إلى اليمن ليست بالأمر الميسور ، فإنها تستغرق أشهراً في الذهاب وأشهراً في الإياب ، محفوفة بالمخاطر ، فهي إذا كانت عن طريق الساحل شديدة الحرارة والرطوبة بحيث لا يطيقه من نشأ وترعرع في اعتدال الجو الشامي ، وإن كانت عن درب الرحلة الشتوية المكية القرشية ، فتحتاج إلى جهد أكبر ، وعلى كل حال فإن طولها وبعد أمدها ، وعناءها ، ومخاطرها أمر أحبته ورغبت فيه أم عفراء لعلها تحول بين عروة وعفراء الأمر الذي جعلها تقول في ثنايا حديثها مع عقال « أي خير في عروة حتى تحبس ابنتي عليه ، وقد جاءها الغني يطرق عليها بابها ، والله ما ندري أعروة حي أم ميت ، وهل ينقلب إليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً »[1] .

وقد قصد عروة ابن عمه في اليمن وصحبه صاحباه العامريان ، المجاوران له في الديار وقد انحصرت رواية الرحلة اليمنية لعروة في رواية الأصبهاني فحسب حيث يقول : ـ

« وعلم أنه لا تنفعه قرابة ولا غيرها إلا بالمال الذي يطلبونه ، فعمل على قصد ابن عم له موسر ، كان مقيماً باليمن فجاء إلى عمه وامرأته فأخبرهما بعزمه ، فصوّباه ، ووعداه ألا يحدثا حدثاً حتى يعود . وصحبه في طريقه فتيان من بني هلال بن عامر ، كانا يألفانه وكان حيّاهم متجاورين ، وكان في طول سفره ساهياً بكلماته فلا يفهم ، فكره في عفراء حتى يردد القول عليه مراراً ، حتى قدم على ابن عمه فلقيه وعرّفه حاله وما قدم له ،

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٩، وابن السراج مصارع العشاق ١ : ٢٦٥، داود الأنطاكي تزيين الأسواق ١ : ١٣٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فوصله وكساه ، وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله[1] .

وقال في رحلته اليمنية : ـ

خليليّ من عُليا هلال بن عامر ... بصنعاءَ عُوجا اليوم وانتظراني
ولا تزهدا في الأجر عندي وأجملا ... فإنكما بي اليوم مبتليان
ألماً على عفراء إنكما غداً ... يوشك النوى والبين مُعترفان

أما ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ، فإنه لم يتحدث عن الرحلة إلى اليمن بل قال : إن عمه بعثه إلى بلاد الشام . أمّا المتتبع لشعر عروة فلا يعدم الأدلة الدامغة على مصداقية رحلته إلى صنعاء منها ذكر الأكسية اليمانية : ـ

أغركما مني قميص لبسته ... جديداً وبرداً يمنة زهياني

فقد ذكرنا آنفاً أن ابن عمه كساه وأعطاه مائة من الإبل وما ذكره واصفاً عودته من اليمن بناقته حيث قال إنها تهوى اليمن وهو يهوى ما هو أمامه من ديار عفراء :

هواي أمامي وليس خلفي مُعَرَّجٌ ... وشوقُ قلوص في الغُدُوِّ يماني
هواي عِراقي وتثني زمامَها ... لبرق إذا لاح النجومُ يماني
يقول لي الأصحابُ إذ يعذُلُوني ... أشوقٌ عراقيٌّ وأنت يماني

وأعتقد أنهم يخاطبونه وهو في اليمن فحين ما يذكر عفراء يذكرونه بما بينهما من بعد الديار وطول الأيام .

وقد أشار في قصيدة إلى صنعاء صراحة : ـ

خليلي من عليا هلال بن عامر ... بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

رحلته إلى الشام : ـ

ظل عروة كسير النفس . مصاباً بخيبة أمل ، ويعتريه الألم والندم والحسرة ، على فراق ذكريات الصبا ، وأيام الأنس والحب مع عفراء فكأن

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٩، ٩٥٧٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عمره الذي مضى سراب لا يستطاع اللحاق به ، ويتبعه ويسير سيرورته العمر اللاحق ، وكأن عمق الجراح انبعث من كونها الصدمة الأولى التي تقرع شاباً ليس بالمجرب ، قريب عهد بالفطرة . عاش في صفاء وطهر ونقاء لذا كان وقع الغدر من عمه الذي عاهده بألاّ يحدث حدثاً حتى يعود من رحلته أشد ما يكون الغدر في نفسه فلا يلبث أن يقول : ـ

فيا عم يا ذا الغدر لا زلت مبتلى ... حليفاً لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجيةً ... فألزمت قلبي دائم الخفقان
وأورثتني همّا وكرباً وحسرة ... وأورثت عيني دائم الهملان[1]

وقد اتخذ موقفاً من عمه فقد حقد عليه وما فتىء يعلن بصراحة غضبه وبغضه له حيث حال بينه وعفراء فيقول : ـ

فيا عم لا سقيت من ذي قرابة ... بلالاً فقد زلّت بك القدمان
ومنّيتني عفراء حتى رجوتها ... وشاع الذي منّيت كل مكاني
فو الله لولا حب عفراء ما التقى ... عليّ رواقا بيتك الخلقان
رواقان خفاقان لا خير فيهما ... إذا هبت الأرواح يصطفقان

فكانت الصدمة الأولى في عهد الصبا قد حفرت جرحاً ظل صادياً حتى أهلكه ، الأمر الذي أفقده الثقة فيمن حوله ، وأخذ بعدم المبالاة بهم ، وأملى عليه واقعه أن يتصرف وكأنه بمعزل عن الناس ، والمرء إذا كان منفرداً تصدر عنه سلوكيات منحرفة عن المجتمع كما يرى علماء النفس ، فغلبت الحركات العاطفية التي اقترنت بالرغبة الشديدة ، والعشق الهيام لعفراء ، أصبح لا يبالي بغيرها فكانت سلوكياته مدعاة لتشنيع الناس عليه .

وكانت قناعته أيضاً تثبيتاً لرؤى الناس فكانت أيديولوجية هيمنت على سلوكياته الأمر الذي جعلهم يقولون عنه ، مسحور أو به جنة نتيجة سلوكه بعد أن عاد إلى دياره ، وتقلبه على قبر عفراء المزعوم بغير إرادة منه وتحت

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق ١ : ١٣٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وطأة التأثير العاطفي ، أمام مشهد الناس حتى ضعفت إرادته أمام الكبير والصغير ، وذلك فتح الباب على مصراعيه أمام تصرفاته غير المبالية لأن الصدمة الأولى لم تتح له التدبير والتفكير ، ولا حيلة له في ذاته بعدها لذا دأب على الخضوع لهوى نفسه تجاه الحب فأفرط في هذيانه وشروده ، وأصبح الهيام المهيمن عليه المؤتمر بأمره فأعرض عن الدنيا بمسؤولياتها ، ومستلزماتها وملذاتها وترك الرعاية لأسرته ، بل أصبح مرعياً لا راعياً ، وعالة لا عائل ولم يتقبل نصح الناصحين ، ولا يلتفت لتسلية المسلين، ونهج هذا النهج الشاذ ردحاً من الزمن حتى ظهرت بوادر الأمراض والضعف والهزال تتبلور بجلاء ، وقد أبان عن دواخل ذاته وما يجلجل فيها بهذه الأبيات : ـ

وإني لتعروني لذكراك لوعة ... لها بين جلدي والعظام دبيب
وما هو إلا أن أُراها فجاءةً ... فأبهت حتى ما أكاد أُجيب
وأصرف عن رأيي الذي كنت أرتئي ... وأنسى الذي أعددت حين تغيب
ويُظهِرُ قلبي عذرَها ويعينها ... عليّ فما لي في الفؤاد نصيب

ولما طال به الأمد فكر أهله بمعالجته ، والبحث عما ينقذ ابنهم من الهيام العارم والداء الدفين ، بل إنهم شككوا بإصابته بأمراض غير العشق ، فجدّوا في طلب الدواء والشفاء ، لكنه الخبير والأدرى بما يغور في أعماقه ، فأخبرهم أن شفاءه وبرءه مرهون برؤية عفراء ؛ الأمر الذي دعاه إلى الارتحال إلى الشام ، يقتفي أثر عفراء ومواطن تواجدها . ولا أستبعد أن الأسرة قد أعادت السفر إلى البلقاء فرغبت في صحبته إلى المدينة التي تستوطنها عفراء وأخذ يختلس النظر إليها المرة تلو الأخرى حتى عادت إليه صحته وقواه كما روى ابن قتيبة .

« فقال لهن يوماً : أعلمتن أني لو نظرت إلى عفراء يوماً ذهب وجعي؟ فخرجوا به حتى نزلوا البلقاء مستخفين ، فكان لا يزال يلم بعفراء ينظر إليها ، وكانت عند رجل كثير المال ، فبينما عروة يوماً بسوق البلقاء لقيه رجل يعرفه من بني عذرة فسأله متى قدمت ، فأخبره فقال : لقد عهدتك مريضاً وأراك قد صححت ثم سار إلى زوجها ، وقال : متى قدم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليكم هـذا الكلب الذي فضحكم في النـاس ؟ فقال زوج عفـراء : أي كلب؟ قال: عروة ، قال : أو قد قدم ؟ قال : نعم ، قال : أنت أولى بأن تكون كلباً منه ـ ما علمت بمقدمه . ولو كنت علمت لضممته إلى منزلي ، فلما أصبح غدا يستدل عليهم حتى جاءهم فقال لهم : قدمتم ولم تروا أن تعلموني فيكون منزلكم عندي ، ثم حلف ألا يكـون نزولهم إلا عليـه ، قالوا : نعم نتحول إليك الليلة أو غداً فلما ولّى قال عروة لأهله : قد كان من الأمر ما ترون ، فالحقن بقومكن ، فإنه لا بأس عليّ ، فقربوا ظهورهم وارتحلوا ، فنكس ، ولم يزل مدنفاً حتى نزل بوادي القرى[1] .

وأرجح أن عروة لم يكن حاضراً أثناء زيارة زوج عفراء لأمه وأخواته حين أصر على ضيافتهم في داره بدليل انه لما زاره مرة أخرى لم يعرفه . وإنما لمّا علم عروة بمروءة الرجل وأدرك أنه علم بحاله واختلاس النظر لعفـراء استحيا وظن أنهـا ستحجب عنه فـأمر أهله بـالإياب إلى ديـارهم وصحبهم .

رحلته إلى اليمامة : ـ

ولما قفل عروة عائداً من الشام مع أسرته وأمه وأخواته ، اشتد عليه الوجد والهيام ، ودبّ السقام في جسمه ، فأخـذ يطعن في صميم كبـده وأعشار قلبه ، ويتحلق حول مسامعه ، فلا يقرب إلى العقل إذا كان هناك بقية من عقل إلا ما له أسباب بعفراء ، وأخذت الأحلام والآمال ، تتحول إلى خـواطر متتـابعة ، ثم تصبـح أفكاراً ، تتـولد في مخيلتـه وتقذف مـا سواها ، فيضيق صدره بما حوله مما يرى ويسمـع ، ولا يعتني عقله بما عـداها ، فتتعـطل تنمية الفكـر ، ويجمد العقـل ، ويصاب اللسـان بلوثة وارتجاج ، وثقل عليه وطأة المرض فأصبح كالهشيم تذروه الرياح تحمله أمه رجلاً كما كانت تحمله طفلاً رغم امتداد عظامه ، وغزارة لحيته ، وكثيراً ما يصاب بالإغماء الذي يمكث ساعات أو أيّاماً فيُظن أنه مات ، كما رأينا في أخبار وفاته فإن من يمر به يذكر وفاته وهم يذكرون عفـراء أمامـه فيشهق

(١) الشعر والشعراء ٢ / ٦٢٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويغمى عليه فيظنونه قد فات ومات .

وأغلب الظن أن الطبيب الذي حضر مجلس يحيى بن خالد البرمكي وخاض مع من خاض في وصف العشق قد استقرأ حالة عروة وغيره من العشاق فخرج لنا بهذا الوصف للعاشق :

« ان العشق طمع يتولد في القلب وينمى وتجتمع إليه مواد من الحرص فإذا قوي زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادي والتفكير والأماني والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطعم وفساد العقل ويبس الدماغ ، وذلك أن التمادي في الطمع للدم محرق ، فإذا احترق استمال إلى السوداء فإذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة وتلتهب الصفراء ، وتستحيل الصفراء إلى الفساد فتلحق حينئذ بالسوداء ، وتصير مادة لها فتقوى ، ومن طبائع السوداء الفكر ، فإذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات بالفساد ومع الاختلاط تكون الغدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون ولا يتم ، فحينئذ يشتد ما به فيموت أو يقتل نفسه ، وربما شهق فتختفي روحه أربعاً وعشرين ساعة ، فيظن أنه مات ، فيقبرونه حياً ، وربما تنفس الصعداء فتختفي روحه في تامور قلبه ، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت وربما ارتاح وتشوق بالنظر ، ويرى من يحب فجأة وأنت ترى العاشق إذا سمع ذكر من يحب كيف يهرب دمه ويتحول لونه[1] .

ذلك واقع عروة وما ألم به ، فقد أجهده وأضناه المرض وهو أجهد أهله وأضناهم ، ولكن آمال الإنسان عامة في هذه الدنيا أعرض من حياته ، فأهطعت أسرته مسرعة لكل طبيب في الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ؛ فقد ارتحلوا به إلى اليمامة إلى طبيب يقال له سالم ، له تابع من الجن ، وهو أطبّ الناس فساروا إليه من أرض بني عذرة حتى جاؤوه ، فجعل يسقيه وينشر عنه فقال : يا هناه : هل عند من الحب رقية ؟ قال : لا والله ، فانصرفوا ، فمروا بحِجْر ، فعالجه وصنع به مثل ذلك ، فقال عروة إنه والله ما دوائي إلا شخص بالبلقاء ، فانصرفوا به وفي ذلك يقول : ـ

---

(١) علي بن الحسين المسعودي مروج الذهب ٣ : ٣٨٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف حجر إن هما سقياني
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا بها سقياني
فقالا : شفاك الله، والله ما لنا، بما حملت منك الضلوع يدان[1]

غير أن ابن قتيبة لم يلبث أن ناقض نفسه في صفحتين متواليتين فقد روى أن طبيب اليمامة اسمه سالم ، فلم يلبث أن قال :

« وعراف اليمامة : هو رياح أبو كلحية مولى بني الأعرج الحارث ولعراف اليمامة عقب باليمامة كثير » وقد خصه عروة يقول : ـ

فقلت لعراف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب
فما بي من سقم ولا طيف جِنةٍ ولكِنَّ عَبْدَ الأعْرَجيّ كَذُوبُ

فردوه إلى أهله فمرضوه دهراً : ـ

ولتقريب بين ما رواه ابن قتيبة نقول : إن عراف اليمامة هو رباح أبو كلحية كما رواه مروج الذهب أيضاً أما سالم الطبيب فإنه عراف حجر اليمامة التي كانت عاصمة اليمامة في العهد الإسلامي وبها ينزل الوالي ، اما الأنطاكي فإنه أورد تحريفاً لاسم كاهن اليمامة فقال ان اسمه رباح بن راشد وكنيته أبو كحلاء وقال في روايته : ـ

وكان باليمامة عراف يعني كاهناً له قرين من الجن يعرفه الأخبار وداوى بعض الأدواء ، وكان يقال له رباح بن راشد وكنيته أبو كحلاء مولى لبني يشكر ، فحملوه إليه ، فلما رآه أخذ يعالجه بأنواع العلاج والرقي والصب عليه ، وأصل ذلك إن العرب كانت إذا تخيلت لشخص سحراً جعلت على رأسه طبقاً فيه ماء ثم أذابت الرصاص وسكبته في ذلك الماء ودفنته في فضاء من الأرض فينزلون عن الشخص ما به ، وإن الكاهن فعل بعروة ذلك مراراً فلم ينجح وأخبرهم أن ما به ليس إلا من العشق[2] .

أما تحريف الأنطاكي لاسم عراف اليمامة فإنه لم يؤيده أحد من

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٣ .
(٢) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق ١ : ١٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكتّاب اللاحقين ، أما الأصبهاني صاحب الأغاني فيروي أنّ عراف اليمامة لقي عروة وهو عائد من الشام بعد أن أعطته عفراء خماراً لها فكلما أغمي عليه أُلقي عليه الخمارُ فيفيق ، فلقيه في الطريق ابن مكحول عراف اليمامة فرآه وجلس عنده وسأله عما به ، وهل هو خبل أم جنون ؟ فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال نعم ، فأنشأ عروة يقول : ـ

وما بيّ من خبل وما بي من جنة ... ولكن عمي يا أخي كذوب
أقول لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن داويت لطبيب
فوا كبدي أمست رفاتاً كأنما ... يلذعها بالموقدات لهيب
عشية لا عفراء منك قريبة ... فتسلوا ولا السلوان منك قريب
فوا الله ما أنساك ما هبت الصبا ... وما أعقبتها في الرياح جنوب
عشية لا خلفي مكر ولا الهوى ... أمامي ولا يهوى هواي غريب[1]

وقد نقل هذه الرواية بتصرف قليل الكتبي وزاد فيها ، « قال الإخباريون ومات في سفرته تلك » .

ونلاحظ في رواية الأصبهاني والكتبي الاختلاف في تسمية العراف فهما يقولان ابن مكحول وابن قتيبة يروي ابن كلحية ، وكذلك الاختلاف في مكان اللقاء فإن ابن قتيبة يروي سفر عروة إليه في اليمامة والأصبهاني والكتبي يريان أنهما تلاقيا في الطريق الشامي . وابن قتيبة يذكر أنه ظل دهراً يعالج والكتبي يرى أنه مات من حينه والواقع أني أرجح رأي ابن قتيبة لأن الداء لم يتمكن من عروة بعد ، فإنه يخاطب الكاهن ويقول الشعر فهو في مرحلة أولى والذي يدل على رحلته وانتقاله إلى اليمامة أنه طلب العلاج عن اثنين من أطبائها كما يقول : ـ

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف حجر إن هما شفياني

أما الأصبهاني فلم يذكر وفاة عروة في هذا اللقاء . وربما إن ابن مكحول غير ابن كلحية وأنه عراف آخر لقي عروة في رحلته الأخيرة للشام ، التي سنتحدث عنها إن شاء الله .

(١) أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني : ٢٨ : ٩٥٧٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصاحب الأغاني يروي عن أبي زيد في خبره عن عروة أن عراف حجر اسمه رباح بن شداد وأن أسرة عروة أحضرت عراف حجر إليه . . « ثم عاد من عفراء إلى أهله ، وقد ضنى ونحل ، وكانت له أخوات وخالة وجدة ، فجعلن يعظنه ولا ينفع ، وجئن بأبي كحيلة ، رباح بن شداد ـ مولى بني يشكر وهوعراف حجر ليداويه فلم ينفعه[1] . وقد شكل محقق الكتاب حجر بالضم الأمر الذي يدفعني بأن أميل إلى حجر الذي بالقرب من وادي القرى وليس حجر اليمامة ويدعم ذلك أن النساء من أسرة عروة أتين بهذا العراف فدلّ ذلك على أنه ليس بالبعيد عن ديارهم ومواطنهم .

رحلته إلى الحجاز :

كان عروة تقياً ورعاً ، متلبساً بالروح الإيمانية محباً للخير كارهاً للشر ، لذا فإن ولهه وعشقه وهيامه لم يشغله عن ركن من أركان الإسلام ألا وهو الحج ـ فإنه قصد مكة المكرمة حاجاً . طالباً للشفاء خلافاً لقيس بن الملوّح مجنون ليلى الذي أتي به إلى الكعبة ، ويدعو الله ألا يشفيه من داء ليلى . لما « قال له أبوه : تعلّق بأستار الكعبة ، واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى ، فتعلق بأستار الكعبة وقال : ـ

اللهم ، زدني لليلى حبّاً وبها كلفاً ، وفيها تلفاً ، ولا تنسني ذكرها أبداً » ويقول شعراً : ـ

يقر لعيني قربها ويزيدني ... بها عجباً من كان عندي يعيبها

فكم قائل قد قال : تب ، فعصيته ... وتلك لعمري توبة لا أتوبها

فيا نفس صبراً لست والله فاعلمي ... بأول نفس غاب عنها حبيبها[2]

أما عروة فإنّه دأب إلى الدعاء والإلتجاء لله طالباً المعافاة من دائه فهو يقول : ـ

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٧ .

(٢) داود الأنطاكي تزيين الأسواق في أخبار العشاق ١ : ١٠٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيا رب أنت المستعان على الذي تحملت من عفراء منذ زمان[1]

فقد قال الأصبهاني : حدثنا محمد بن خلف وكيع ، قال حدثنا عبد الله بن شبيب ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وغيره عن سليمان بن عبد العزيز بن عمران الزهري قال حدثني خارجة : أنه رأى عروة بن حزام يطاف به حول البيت ، قال فدنوت منه ، فقلت : من أنت ؟ فقال : الذي أقول : ـ

أفي كل يوم أنت رام بلادها بعينين إنساناً هما غرقان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر الروحاء[2] ثم دعاني

وأخبرني علي بن سليمان الأخفش ، قال : حدثني أبو سعيد السكري قال : حدثني محمد بن حبيب ، قال : ذكر الكلبي عن أبي صالح ، قال : كنت مع ابن عباس بعرفة ، فأتاه فتيان يحملون بينهم فتى لم يبق منه إلا خياله ، فقالوا : يابن عم رسول الله ، أدع له فقال وما به ؟ قال الفتى : ـ

بنا من جوى الأحزان في الصدر لوعة تكاد لها نفس الشفيق تذوب
ولكنما أبقى حشاشة معول على ما به عود هناك صليب

قال ثم خفت في أيديهم ، فإذا هو قد مات ، فقال ابن عباس : هذا قتيل الحب ولا قود ثم ما رأيت ابن عباس سأله الله عزَّ وجلَّ في عشية إلا العافية مما ابتلي به ذلك الفتى ، قال : وسألنا عنه فقيل : هذا عروة بن حزام[3] .

وأعتقد أن الرحلة الأولى للحجاز التي التقى فيها عروة بخارجة وحادثه كانت في مستهل عشقه وهي التي حادث فيها عروة بن الزبير كما روى إبن السراج « سمعت رجلاً من بني عذرة عند عروة بن الزبير يحدثه فقال عروة يا هذا بحق أقول لكم إنكم أرق الناس قلوباً ، فقال : نعم

(١) داود الأنطاكي تزيين الأسواق في أخبار العشاق ١ : ١٣٥ .
(٢) ويروى البلقاء ، وهو الأقرب لأن عفراء استوطنت حاضر البلقاء بعد زواجها .
(٣) أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ٢٨ : ٩٥٨١، ٩٥٨٢ وابن السراج مصارع العشاق ١ : ٢٠٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والله ، لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم السل ، وما بهم إلا داء الحب »[1] .

رحلته الأخيرة إلى الشام :

الشام ليست بالبعيدة البعد الشاسع عن ديار عروة ، بل هي المركز الحضاري لتلك القبائل العربية ، ورحلاتهم الصيفية لا انقطاع لها ، ولا محاد عنها ، فمنها يجلبون الميرة والضروريات ، وإذا طرأ أي طارىء يسارعون إلى الشام ولا سيما حاضرة البلقاء التي هي عمان ، عاصمة الأردن الآن ، فليس من المستغرب أن يكرر عروة بن حزام أسفاره إلى تلك الديار ، فكيف به وهواه أمامه لدى عفراء التي تستوطن حاضرة البلقاء ، فأخاله يكررها المرة تلو الأخرى قابضاً على أي خيط يلتمس منه عذراً الأمر الذي يدعونا أن نزعم بأن رحلات الحب عند عروة تعددت ، فالأولى مع أسرته كما روينا سابقاً والأخرى تلك التي رواها صاحب الأغاني بقوله : -

« ورحل إلى الشام ، فقدمها وسأل عن الرجل فأخبره به ، ودل عليه ، فقصده وانتسب له في عدنان ، فأكرمه وأحسن ضيافته ، فمكث أياماً حتى أنسوا به ، ثم قال لجارية لهم : هل لك في يد تولينيها ؟ قالت : نعم ، قال : تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك ، فقالت : سوءة لك ! أما تستحي لهذا القول ؟ فأمسك عنها ثم عاد إليها وقال لها : ويحك هي والله بنت عمي ، وما أحد منا إلا هو أعز على صاحبه من الناس جميعاً ، فاطرحي هذا الخاتم في صبوحها فإن أنكرت عليك فقولي لها : اصطبح ضيفك قبلك ولعله سقط منه ، فرقّت الأمة ، وفعلت ما أمرها به ، فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم ، فعرفته ، فشهقت ثم قالت : أصدقيني عن الخبر ، فصدقتها .

فلما جاء زوجها قالت له : أتدري مَنْ ضيفك هذا ؟ قال نعم فلان ابن فلان ، للنسب الذي انتسبه له عروة ، فقالت : كلا والله يا هذا ، بل هذا عروة بن حزام ، ابن عمي ، وقد كتمك نفسه حياء منك .

---

(١) ابن السراج مصارع العشاق ١ : ٤٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم بعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمان نفسه إياه ، وقال له : بالرحب والسعة نشدتك الله إن رمت هذا المكان أبداً وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان ، وأوصى خادماً له بالاستماع عليهما ، وإعادة ما تسمعه منها عليه . فلما خلو تشاكيا ما وجدا بعد الفراق ، فطالت الشكوى وهو يبكي أحر البكاء ، ثم أتته بشراب وسألته أن يشربه فقال : والله ما دخل جوفي حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللت حراماً لكنت قد استحللته منك ، فأنت حظي من الدنيا وقد ذهبت مني وذهبت بعدك فما أعيش ، وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن ، وأنا أستحي منه ، ووالله لا أقيم بعد علمه مكاني ، وإني عالم أني أرحل إلى منيتي فبكت وبكى وانصرف ، فلما جاء زوجها أخبره الخادم بما دار بينهما فقال : يا عفراء امنعي ابن عمك من الخروج فقالت : لا يمتنع هو والله أكرم وأشدّ حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما ، فدعاه وقال له : يا أخي اتق الله في نفسك ، فقد عرفت خبرك ، وإنك إن رحلت تلفت ، فوالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً ، ولئن شئت لأفارقنها ولأنزلن عنها لك ، فجزاه خيراً ، وأثنى عليه وقال : إنما كان الطمع فيها آفتي ، والآن قد يئست ، وقد حملت نفسي مع الصبر ، فإن اليأس يسلي ، ولي أمور ولا بد لي من رجوعي إليها ، فإن وجدت من نفسي قوة على ذلك وإلا رجعت إليكم وزرتكم ، حتى يقضي الله من أمري ما يشاء فزودوه وأكرموه وشيعوه ، فانصرف ، فلما رحل عنهم نكس بعد صلاحه وتماسكه ، وصاحبه غشي وخفقان ، فكان كلما أُغمي عليه ألقي على وجهه خمار لعفراء زودته إياه فيفيق . قال ولقيه في الطريق ابن مكحول ، عراف اليمامة ، فرآه وجلس عنده وسأله عما به ، وهل هو خبل أو جنون ، فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال نعم : فأنشأ يقول : ـ

وما بي من خبل وما بي جنة ولكن عمي يا أخي كذوب[1]

« فلم يزل في طريقه حتى مات ، قبل أن يصل إلى حيه بثلاث

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ٢٨ : ٩٥٧١، ٩٥٧٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليال ، وبلغ عفراء خبر وفاته ، فجزعت جزعاً شديداً وقالت ترثيه : ـ

ألا أيها الركب المخبون ويحكم بحق نعيتم عروة بن حزام

وأخذت تردد هذه الأبيات وتندبه بها حتى ماتت بعده بأيام قلائل[1] .

وأرجح أنها خرجت إلى ديارها لكي تتناسى فمرت بالقبر وماتت عنده .

ورحلات عروة بن حزام لبلاد الشام ونجد والحجاز وصنعاء ، لم تؤثر في تكوينه الذهني أو النفسي ، ولم يستفد من لقاء الشاعر أو علية القوم ، لأنه لم يحاورهم في أشعاره أو أشعارهم ، فهي رحلات علاجية فحسب في زمن تحكم العشق على غرائزه ، وسلوكياته ، وعقليته فهو لا يستوعب ، وإنما شعره كان نتيجة المكونات الأولى .

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الثالث

دراسة شعره

- توصيف الديوان
- نفسية الشاعر
- لغته الشاعرية
- التقرير والسرد
- الجملة الخبرية
- الذاتية
- الصورة الفنية
- الموسيقى الشعرية
- دراسة النونية
- أقوال النقاد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ديوان عروة بن حزام

توصيف للديوان : ـ

قد عثرت على الديوان في مكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم ٨١١/٢/ع ع ؟ ويبدو أنه قد استل من مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد التي صدرت عام ١٩٦١ م لأن العناوين لم توضع كأنماط الدواوين الأخرى وإنما أتى على شاكلة العنوان للدوريات المُحكّمة في أعلى الصفحة ووُضِعَ تحته اسما المحققين الدكتور إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب . وأيضاً لم يوضح عليه اسم المطبعة ولا تاريخ الطبع ولا الناشر ، والديوان مكون من أربعين صفحة من الحجم الصغير .

والمؤلفان صدرا للديوان بمقدمة في ثماني صفحات تحدثا عنه حديثاً موجزاً وقد انتهيا من وضع المقدمة في ٤/ رمضان / ١٣٧٩ هـ أول آذار١٩٦٠ م .

ثم جمعا بعضاً من أخباره وأودعاها المقدمة ، وذيَّلا الديوان ببعضها .

وهما لم يرتبا القصائد حسب حرف الروي ، وإنما استهلا الديوان بأهم القصائد وهي النونية .

وقد بلغت القصيدة النونية ستة وثلاثين ومائة بيت ، ولكنهما لم يرقما الأبيات وإنما وضعا أرقاماً لكل مجموعة من الأبيات بدأت برقم (١) وانتهت برقم (٨) .

ولما استهلا قصيدته البائية لم يستمر تسلسل الرقم المذكور في أولها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولكنهما أضافاه في المقطع الثاني منها ص ٣٠ . ثم أوردا قصيدته البائية وعدد أبياتها ثمانية عشر بيتاً ، وأتبعاها ببتين رويهما الضاد قالهما في احتضاره .

والمحققان يوردان التخريج وشرح الغريب في الهامش وكل ذلك تحت رقم متسلسل لجميع أبيات الديوان .

يبدو أن شعر عروة بن حزام ، قد شاع وسرى بين الشعراء المعاصرين له في مدنهم وقراهم وقبائلهم فهذا الأحوص يحدث بقصته ، ويستمع إليه مجنون ليلى . يقول ابن السراج : « لقي مجنون بني عامر الأحوص بن محمد الأنصاري ، فقال له :

حدثني حديث عروة بن حزام قال : فجعل الأحوص يحدثه وهو يسمع حتى فرغ من حديثه فأنشأ المجنون يقول :

عجبت لعروة العذري أمسى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً وها أنا أموت بكل يوم[1]

كان يفد إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ويجالس الشعراء والمهتمين بالأدب فيأخذون عنه ويستمعون إلى تاريخ بني عذرة في الحب « يروى أن سائلاً سأل عروة بن حزام العذري صاحب عفراء : أصحيح ما يروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟

فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب »[2] .

وقد جمع شعره وحكيت قصصه في المجتمعات حتى ألف عنه كتاباً فقد ذكر صاحب مصارع العشاق في معرض حديثه عن رجل من بني أسد في الكوفة فقال :

« وصنعوا له كتاباً في ذلك مثل كتاب جميل وبثينة ، وعفراء وعروة

---

(١) جعفر بن أحمد السراج ، مصارع العشاق ١ : ٧٥، ٧٦.
(٢) شوقي ضيف العصر الإسلامي والأموي ٣٥٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكُثيّر وعزة »[1] .

نفسية الشاعر :

« ينظر برجلر إلى عمل الكاتب على أنه نتاج مجموعة أعراض سادية في شخصية الكاتب ، فالأسوياء من الناس لا يحسون في نظر برجلر بحاجة قهرية للكتابة »[2] .

ونحن وان اتفقنا بضرورة التوتر ، وإثارة التجربة للكتابة ، لكننا نخالفه في سلخها عن الأسوياء ، ونسبتها إلى غير الأسوياء ، فالتأثير يتأتى من طغيان بعض غرائز الشهوات أو الرغبات ، أو هيجان النفس وإن لم تبلغ مرحلة الجنون في الفرح أو الغضب ، أو يتأتى التوتر من الخارج كالحماس لقضية دينية أو اجتماعية ، أو إنسانية ، وشاعرنا عروة يندرج في تصنيف (برجلر) فهو من غير الأسوياء ، ولا سيما بعد انحراف صحته النفسية والجسمية لما يئس من عفراء ، وليس معنى ذلك أنه فقد الإحساس ، وكان بمنأى عن التأثير الشعوري أو غير الشعوري ، بل إن جذوة الحب المستقرة هي التي انحرفت به وهي ثابتة ومستقرة في أعماقه والاهتزازات الكهربائية التي تغذي التوتر لديه إنما هي نسمات الرياح التي تزيد من الاشتعال فإذا ما سمع همساً أو حساً أو أبصر مكاناً رآها فيه ، أو ذُكِرَ اسمها أو شبيهاً به فإن الانتفاضة وربما الصرعة تنتابه . يروى عن سيرته « أنه حُمِلَ » ليلة إلى فضاء ليتنزه به ، فسمع رجلاً يقول لولده على أي ناقة حملت الشُعب ، يعني قرب الماء ، فقال على العفراء ، فأغمي عليه ثم قام مخبولاً »[3] .

وهو دائم الاحساس بشعره ، يتدفق على لسانه ، والكثير من العرب لا يجسر على إعلان حبه ، وتأثيره في نفسه ، وإن كان يغلب على أحلام يقظته . غير أن المحبين يبلغون مرحلة عدم المبالاة والإعراض عن تقاليد

---

(١) جعفر بن أحمد السراج ، مصارع العشاق ٢ : ٢٨٠ .

(٢) التفسير النفسي للأدب د. عز الدين إسماعيل ص ٧ .

(٣) تزيين الأسواق ١ : ١٣٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المجتمع وعاداته فيتجردون من قيوده كما هو شأن عروة : وقد حلل إبن حزم نفسية العاشق واستحواذها عليها وغلبة المعشوق على ما سواه . « وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب ، وتسور الجهل على الحياء ، فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً ، وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل ، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح ، والقبيح في هيئة الحسن .

وهنالك من يرى الخير شراً ، والشر خيراً ، وكم مصون الستر مُسبل القناع مسدول الغطاء ، قد كشف الحب ستره ، وأباح حريمه ، وأهمل حماه ، فصار بعد الصيانة علماً ، وبعد السكون مثلاً ، وأحب شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه ، فسهل ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً »[1] .

وكان عروة مشهوراً باستقامته وحيائه ورجحان عقله ولكنه بعد أن تمكن منه العشق نفض الحياء ، وأخذ يعلن حبه لكل من صادفه ، والتقى به ، فإذا سئل عن اسمه أو عما ابتلي به أخذ ينشد من أشعاره القديمة وبفعل التوتر الحديث فإنه يزيد البيت أو البيتين مما دعا إلى تنامي مطولته المشهورة .

ورغبة الإنسان في اجترار ملذاته واستدعائها في مخيلته ، ومعالجتها في فكرة ، ورسمه لوحات زاهية براقة من نسيج خياله ، يزيد من راحته النفسية وربما يعود باللذة والمتعة والإطمئنان ، ومن ثم يعاودها ويطيل التكرار ، فتجنح به عن عالم الواقع ، ويروض نفسه عليها ، حتى تستحوذ عليه ، وتستحل قلبه ، وتأخذ مساحة كبرى من عقليته ، فيفرغ عقله ولبه من واقع الحياة ، ومن هنا يكون الانفصام ، يشير علماء النفس إلى ذلك « وما دام إبداع الفنان يرجع في مصدره إلى الرغبة في التخفف من عبء خاص إلى محاولة تحقيق رغبات في عالم الخيال لم تشبع في عالم الواقع

---

(١) ابن حزم، طوق الحمامة ٣٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإن هذا الطريق يمكن أن يؤدي بسهولة إلى المصاب »[1] .

ونحن أمام واقع انفصالي للشاعر عروة بن حزام ، فقد فر فراراً من عالم الواقع إلى اجترار الذكريات العطرة وأيام الأنس مع عفراء . وقد رسم لها لوحات شائقة في أحلام يقظته ، فكأنها أصبحت واقع حياته ، وعطل تفكيره عن ما عداها ، ورغب عن ملذات الحياة ، وأشبع غرائزه عن طريق الأحلام فيقول في أبياته :

فيا ليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضي حبيب من حبيب لبانة ... ويرعاهما ربي فلا يريان
فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا ... إذا نحن متنا ضمنا كفنان
ويا ليت إنا الدهر في غير ريبة ... خليان نرعى القهر مؤتلفان[2]

فكانت النتيجة تعطيل جانب من عقليته ، فحدث الخلل نتيجة عدم التوازن والاعتدال ، الأمر الذي صرف الشاعر عن التفاعل مع الحياة الكونية . ويرى فرويد (أن الفنان يفصل ذاته عن جمهوره في خياله ثم يعود إلى الواقع عن طريق نرد قصته للآخرين ومشاركته لهم فيها ، وقدرة الفنان على الإعلان وقدرته في تناول المكبوت الذي يحدد الصراع هما اللذان ينقذانه من الوقوع فريسة سهلة للعصاب) . والشاعر عروة وإن لجأ إلى الفن ونفث فيه روحه وشعوره غير أنه لم يستطع التصريح بما يعتلج في شعوره وما تردد في أحلام يقظته ولم يصرح به ويكشف عما هو مكبوت في عالمه الداخلي ، الأمر الذي أدى به إلى العصاب وجعله فريسة سهلة له.

فوالله ما حدّثتُ سِرّكِ صاحباً ... أخاً لي ولا فاهت به الشفتان

ويقول :

ولا يَعلمنَّ الناسُ ما كان قِصَّتي ... ولا يَأكُلنَّ الطيرُ ما تذراني

« والإنسان مجموعة من المتناقضات أو مجموعة من الرغبات

(١) عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ٩.
(٢) داود الأنطاكي ، تزيين الأسواق ١ : ١٣٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المتضاربة التي لا يمكن تحقيقها كلها في آن واحد وقد قلنا : إن الرغبة في الإجتماع قد أخضعت النوازع الفردية لسلطانها ، وعملت على تهذيبها بالتدرج ، ولكنها لم تنتزعها من نفس الفرد ، ولم يكن من الممكن ولا من المصلحة استئصالها من منبتها لأن قتل الفرد ـ لصالح المجتمع ـ لا يمكن أن يؤدي في النهاية إلا لضياع هذا المجتمع ذاته إذ كيف يمكن أن تنشأ الحياة من مجموعة من الأموات »[1] .

وشاعرنا عروة قد عطل عقله وقتله فعطل الفرد وقواته ، فلم يشحذ ذاتيته ويصعد بها ويهيمن على سلوكياته ويسطو بها على المجتمع ، ولم يشأ الإنتفاع من هذا المجتمع الذي سلبه حبه وأمله ، وأشعل النار في جوفه ، بل جعل من ذاته قوة تحطم كيانه وكل ذلك يعود لليأس الذي اكتسى به عروة :

متى تجمعي شوقي وشوقك تطلعي ... وما لك بالعبء الثقيل يدان
تحملت من عفراء ما ليس لي به ... ولا الجبال الراسيات يدان
كأن قطاة عُلقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان

والشاعر « عندما لا يكون راضياً عن معرفته العادية بالأشياء ووجوده في الحياة ، وكذلك عن الأحداث يقرر ـ كما يحقق رغبته الخاصة في الانسجام أن يقيم من هذا على نحو حر كُلاً متكاملاً وحين يجد المتعة فيما تتركه المعاني وكذلك الألوان والأنغام من الانطباعات يأخذ في تنظيم هذه الانطباعات وفق هواه . . . هذا هو الأساس العميق لذلك العمل الإنساني الذي نسميه فناً »[2] .

والشاعر قد صدم في واقعه ، فتربيته الإسلامية التي تنشأ في أحضانها تربأ به عن الانزلاق في النفاق ، والخوض في الوسائس ، بل تتسامى به إلى القيم العليا ، ويظل هاجسها الكمال الإنساني ، ذلك ظلال الإسلام في قرنه الأول ، غير أنه اصطدم بالكذب والخداع مع عمه الذي عاهده

(١) عز الدين إسماعيل التفسير النفسي ٩.
(٢) دكتور عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي ٤٣ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على ألا يبت أمراً حتى يعود ، وأن عفراء له دون سواه ، وبعث به إلى اليمن ، وإذا بعروة يكتشف أنها خديعة أُريد بها غيابه عن الأحداث ، وعروة نفسه لم يروض تفكيره على التأثير والتأثر فإن عمه لا شك في إقباله عليه غير أنه خضع لتأثير زوجته التي يدعمها الواقع البراق أمامه حيث الثراء والشباب ينتظران ابنته فخشي أن يقف في طريق سعادتها .

والشاعر نشأ على الحب والصدق ، والود الصافي والفداء الذي لا حدود له ، وعدم البخل أو المماطلة بما يبتغي من أمه الحانية ، وخالته الرحيمة ، وأخوته الرقيقات فَتَنطّق بالحب الصادق ، وتوشح بالإخلاص والتفاني وتعلق بالوفاء بالعهد والوعد ، لكنه ارتطم ونُكِبَ بالعداء والقلا والحرمان من عمه وزوجته ، فحالا بينه وأمانيه وحبه الصادق ، الذي جمع ذكرياته الأولى وأمانيه المستقبلية ، وامتداد حياته وقد صادفت تلك الأحداث مرحلة زمنية حرجة من عمر الشاعر ، يتسم فيها الإنسان بالصدق والولاء لفكرته والفداء لها مهما اعترضه من عقبات . إنّها مرحلة الشباب الأولى التي يندفع بها بعواطفه ، ولا يحكم عقله ، تماماً كما يتجسد في الصداقة بين تربين من الشباب فإن كل منهما يؤثر صاحبه على والده وإخوته وجميع الناس ، فهما أكثر صفاء ، فإذا ما حدث حادث من ريبة أو شك فإن صداقتهما تتحطم مثل الزجاجة كسرها لا يجبر .

ذلك الإعجاب والتآلف والفداء ، والنظرة المثلى ، والتعاهد بين عروة وعفراء في مرحلة الشباب قريبة العهد بالصِبا التي تتسم بالاندفاع والقوة العاطفية المهيمنة ، وغياب العقلانية والتدبر ، أو حتى غياب التوقع والتوجس وإنما عقد العزم ، والجري وراء سراب الأماني والآمال ، فاستحوذت على لبه ، فكان انقطاعها الصدمة العنيفة التي قوّضت الواقع والمستقبل معاً ولا سيما وإن آلة التدبير والتحطيم من القرابة التي لا حول ولا طول له عليهم ، ولا قدرة له على معاداتهم أو مقاومتهم :

فيا عَمِّ يا ذا الغدر لا زلت مُبتلىً ... حليفاً لِهَمٍّ لازمٍ وهوان
غدرتَ وكان الغدر منك سجِيةً ... فألزمتَ قلبي دائمَ الخفقان
وأورثتني غمّاً وكرباً وحسرة ... وأورثت عيني دائم الهملان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويرى علماء النفس أن الشاعر يهرب ، أو يحاول أن يهرب من الواقع الحياتي حوله إلى الخيال الذي يتبلور في إبداعه ، والإضاءات التي تشع من خلال دراسة حياة عروة وبيئته ومن الاستبيان والاستقراء ، والاستبطان لشعره ، تُظهِرُ لنا هروب شاعرنا إلى أحلام اليقظة التي تستدعي الخيال كثيراً ، ولكن أحلام اليقظة لا تنحصر في نسج ما يدعو إلى الأنس والفرح ولكنها تستدعي ما يدعو إلى الفزع والخوف والقنوط وما أكثرها في مخيلة شاعرنا ، والمستقرىء لشعره يجده ممثلاً للارتداد عن الواقع وهروباً من أحلام اليقظة أيضاً ، وذلك لأن عروة لم يدب المرض في عقليته أكثر مما دبّ في نفسه وربما لأن اليأس والزهد في الحياة بملذاتها الفنية والكونية والإلتزام الذي اصطبغ به في حياته كان لها دور كبير في تأثيرها على الفترات العقلانية الواقعية التي من خلالها يطل فنه علينا .

وعلماء النفس يرون أن الشاعر لا يهرب من الحقيقة بل يلتمسها في الخيال ، ويغوص في أعماق الحقيقة من خلال مزجها بالخيال أو إطفاء حرارتها به ولا سيما عندما يبلور تلك في تجربة إبداعية ، أما عروة فإن شعلة الحماس والأنا انطفأت واقعيتها عنده تماماً ، فهو لم يشأ الظهور في باطنه الداخلي لأنه لو تحفز لذلك لوجدنا عنده اهتماماً بإبداعه ، وإتقاناً له ، وغزارة رغبة في الانتقام وتعالياً ، إذن فهو أعرض عن الواقع وأعرض عن دواعيه ومغرياته ، وزهد فيه زهداً كلياً ، وهذا واقع لأنه وقف حياته في جزء من الحياة الدرامية ، وجعل فكره وسلوكه حكراً لها ، فلما أوصدت دونه الأبواب والستور انقطع عن الحياة بخلاف الشعراء الفائقين فإن هروبهم كان نتيجة لعوامل قهرية تلاحقت عليهم بعد صراع مرير فأحسوا بالخضوع والذل أمامها فثاروا بفنهم ليعوضوا فكان شعرهم ميداناً لقوتهم الداخلية وتبريراً لقدراتهم وتفوقهم .

وعروة يستجلب الصور الفنية من الواقع الحسي المشاع له ولكن بعد أن انغمست في نفسيته الكسيرة ، وتلاحمت مع شعوره المتوثب ، فتدفقت من نبضه وخفقات قلبه فأصبحت الصور تعبيراً لفكر الشاعر ومشاعره ، فهي ليست صورة للواقع العياني ، وإنما تتخللها حالات نفسية متعالية التوتر :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقد تركتني ما أعي لمحدث حديثاً وإن ناجيته ونجاني
وقد تركت عفراء وقلبي كأنه جناح غراب دائم الخفقان

أحب عروة عفراء حباً عارماً ، ملك عليه أعشار وشغاف قلبه ، وملك عليه زمامه وقياده ، مكبلاً به تكبيلاً لا يُرجى فكاكه . ويسلمه إلى حرقة الألم والشقاء ، وغرس فيه شعور الهزيمة واليأس والتسليم .

فكيف بهذا لعاقل إذا تعانق مع المنشأة النسوية ، حيث الحنان يحفه من كل جانب فالأم والأخوات والخالة والعمة ، وتلك التربية غرست فيه الضعف ورقة العاطفة . ﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ وكنَّ يدارينه ويخشين عليه ، الأمر الذي لم يصنع منه رجلاً صلباً صلداً قوياً ، فكان الانهيار والخور والانكسار من الصدمة الأولى ، لما واجه التحدي والتكليف الشاق من العم وزوجه فطلبا مئة من النوق العتاق ولا يملك إلا ثمانية ، فاستشعر الانهزامية والخور في رحلته الأولى ، وكأنه يلتمس المثبطات للعزائم ، ويبلورها في شعره ، ويتأول الضعف أمام صاحبيه العامريين في رحلته إلى صنعاء من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ، وفي أثناء الرحلة يكيل لهما تهمة الزهد في صحبته وإجرته معاً ، ويعتقد ندمهما في إذعانهما وانصياعهما لرفقته ، بل يؤطرهما بالأسى والحزن ، وأنه بلوى ابتلي بها صاحباه ، وهم يريان غير ذلك ، لكن عين الأسى لا ترى إلا المآسيا . وغلبة الضعف على الشاعر من الاستجداء أو طلب الرحمة والفداء وتجريده من الأخ المعاضد والصديق :

خليليّ من عُليا هلال بن عامر بصنعاء عُوجَا اليومَ وانتظراني
ولا تَزْهدا في الأجر عندي وأجملا فإنكما بي اليومَ مبتليان
ألم تعلما أن ليس بالمرخِ كلِّه أخٌ وصديقٌ خالص فذراني

وبمرور الأيام وتمادي عروة في تفكيره وإرهاصاته ، وتتابع خواطره خشية ورهبة وبتباعد العهد تاه في سراب اليأس ، واستحوذ عليه في تجواله وتطوافه ، ونسي الأماني الحسان ، وتسلية النفس بها ، فيئس منها قبل زواج عفراء وعلمه بذلك فغلب على تفكيره في هذه المرحلة الطويلة أنها آيلة لغيره لا محالة ، فكان حاضراً في ديار عفراء ببصره وبصيرته بعينين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دامعتين واكفتين مبتلتين وكل ذلك وهو ينخر في جسمه وروحه فأضناه المرض حتى ألحق ذاته بالمتاع المحمول ، فهو عالة على صاحبيه :

أفي كل يوم أنت رام بلادها ... بعينين إنسانا هما غرقان
وعيناي ما وافيت نشزاً فتنظرا ... بمآقيهما إلا وهما تكفان
ألا فحملاني بارك الله فيكما ... إلى حاضر البلقاء ثم دعاني

وهذه الأبيات تصور حالة عروة الشعورية والنفسية ، وما تثيره خلفها من أنات ، وموجات مأسوية ، وتعاضد مع اليأس ، وتقوقع ذاتي ، وتنبىء عن جبن وخور وضعف مال بكفة قوته النفسية ، فكان التأثير البعيد الغور .

والشاعر لم يتماسك حين زعزعه الدهر ولم يعتدل ، وإنما مال ، وعثرت به ذاتيته ، وزلّت به قدمه ، فلم يقف موقفاً صامداً ، يتسم بالتصميم ، والتدريب على معوقات وعقبات الزمن ، وهو لم يكن قادراً على ما يصمد له أمثاله من الشباب الذين مروا بالتجربة وتماسكوا ولم ينكسوا وثبتوا في حياتهم ونحن نعود بذلك إلى التركيبة النسائية في تربيته .

ثم ليس له معاضد يتكىء عليه ، ولأنه أُتي من حيث يأمن ، بل ممن يلجأ إليه وقت الشدائد ، كل ذلك قوّض من صموده النفسي ، فكان الإحباط ، وكان السقوط والتدحرج شأن القاصرين العاجزين عن التحدي والقيام بعد التعثر . بينما نجد كثيراً من النفوس البشرية تشتعل وتضيء في مواجهة التنافس والتباري فتبدع وتبرز وهؤلاء يبلغون القمة ويعلون وفئة عروة ينزلون ويسقطون ويكونون عالة .

ورغم أن الأبيات تنتمي إلى الأدب القديم الذي يسلخونه من التكثيف اللغوي والشعوري فإنها تخفي وراءها حالة شعورية تفيض بما يعتلج في نفسية الشاعر من الضعف النفسي ، وخفض الجناح لليأس والقنوط .

وقصيدة عروة كلها تتضافر حول تكثيف القنوط واليأس والحرمان ونظرة الاحتقار للمجتمع وعدم المبالاة به فشريحة من المجتمع ترفض اقترانه بعفراء ، وشريحة أخرى تنافسه وشريحة ثالثة تسخر منه ورابعة تشي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

به وتحرمه لذة اللقاء ويأتي بصورة زاخرة بالكثافة الشعورية :

فيا واشِيَيْ عفرا دعاني ونظرةً ... تَقَرُّ بها عيناي ثم كلاني
أعِرْكما مني قميصَ لبسته ... جديدٌ وبُردًا يمنةٍ زهيائي
متى تكشفا عني القميص تبينا ... بي الضُّرُّ من عفراء يا فتيان
إذا تريا لحماً قليلاً وأعظُماً ... بُلين وقلباً دائم الرجفان
على كبدي من حب عفراء قرحة ... وعينان من وجدي بها تكفان

ترى أنه يرسم لنا صوراً حسية مشاهده ، إحداها الهزال وتصميمه للهيكل العظمى شاخصاً أمامنا وثانيتها : وجيب القلب ، ودقاته المتوالية وثالثتها : ـ تلك القرحة التي تلح على كبده فتفقده الوعي ، ورابعتها العينان الجاريتان ، وهذه الصور الأربع ذات التفكير الحسي قد نسجها الشاعر في إبداع يتألق بجماله الفني ، ويكمن في التكثيف الشعوري ، فالصورة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالشعور والحالة النفسية لأن موجبات الهزال والهلاس إطالة التفكير في أمر المحبوب ، والخفقان إنما هو نتيجة الصدمات الشعورية التي تلاحق الشاعر فهو دائم الاستشعار بحبها ، وقروح الكبد ينجم عن عمق تأثير الحب وانغراس الهيام في أحشاء الشاعر وتلك صفة تتعلق بها الشعراء حتى المعاصرون منهم . والدموع المدرارة التي تهطل في غزارة وراءها ما وراءها من السحب الكثيفة من الحزن والحسرة والألم .

تلك صور حسية غير أنها تضافرت على منح التلون النفسي والإحساسي الشعوري والكشف عن خبيئة الشاعر وإزاحة الستار عما يعتلج في أغوار نفسه وما تعاني من اضطراب دائم وعدم اتزان وتوازن .

إذن فهذه الصور ليست رسماً لهيكل إنساني فحسب ولكنها صورة للإنسان المثقل بالهموم المدنف باليأس ، ونَهْشِ التفكير والتبرم بالواقع ، والصدمات النفسانية قد أحالته من حال إلى حال وإن الصور الحسية رسمت لنا هيكلاً هزيلاً متلبساً بحالات روحية ونفسية وشعورية يجثم عليها المرض تماماً كجسمه النحيل .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن القصائد المشحونة بألوان الشاعر الحزينة الكئيبة البائسة، قصيدته البائية : ـ

وإنّي لتعروني لذكراك روعة ... لها بين جلدي والعظام دبيب
وما هو إلاّ أن أراها فجاءةً ... فأُبْهَتُ حتى ما أكاد أُجيب
وأُصرف عن رأيي الذي كنت أرتئي ... وأنسى الذي أعددت حين تغيب
ويضمر قلبي عذرها، ويعينها ... عليّ، فما لي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكان شفائها ... قريباً، وهل ما لا ينال قريب
حلفت برب الراكعين لربهم ... خشوعاً، وفوق الراكعين رقيب
لئن كان برد الماء حرَّان صاوياً ... إليّ حبيباً إنها لحبيب
وقلت لعراف اليمامة: داوني ... فإنك إن أبرأتني لطبيب
فما بي من سُقم ولا طيف جِنّة ... ولكن عمِّي الحميري كذوب
عشية لا عفراء دانٍ مزارها ... فتُرجى، ولا عفراء منك قريب
فلستُ برائي الشمس إلا ذكرتها ... ولا البدر إلا قلت سوف تئوب
عشية لا خلفي مفرٌّ، ولا الهوى ... قريب، ولا وجدي كوجد غريب
فواكبداً أمست رفاتاً كأنما ... يلذّعها بالكفِّ كفٌّ طبيب

وأنت تشاركني أن هذه القصيدة مزرعة للهموم ، أو هي نبت وحصاد للمزرعة المأسوية الداخلية للشاعر . فالإعتراء يدل على المفاجأة الاجبارية التي لا فكاك منها فتداهم الشاعر قشعريرة نفسية من آونة إلى أخرى .

وتبدو لنا الاستعارة الموحية ، إن لم تكن أقرب للحقيقة أو هي حقيقة على رأي من ينكر المجاز ، فالروعة يشخصها الشاعر ، بإحدى ذوات الأربع التي تدب دبيباً أو غيرها ولك ما تشاء من اختيار المشبه به الذي يمخر قنوات الدماء ليهزَّ كل خلية من خلايا الشاعر : ـ

وإني لتعروني لذكراك روعة ... لها بين جلدي والعظام دبيب

والصورة متلبسة ومتلونة بحالة شعورية ، يفيض بها اختيار الألفاظ ، وعلاقات التراكيب ، فلفظ تعروني ، والروعة ، والدبيب فجاءة ، وأُبهت ، والوجيب . . . الخ تحمل كماً هائلاً من الزخات الشعورية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعلاقات المشابهة غير قائمة ، فالشاعر يبهت المعنى لو أراد أن يشبه الروعة بحيوان في صورة تماثلية ، لكن المقصود هو إثارة الإحساس وتجسيم الدبيب .

الصورة في مجملها تدل على قدرات الشاعر ، وخياله المبدع ، حيث بلور لنا نفسية محجوبة ، موظفاً اللغة ودلالاتها ، وعلاقات التراكيب ، فظهرت في أنسجة الصورة والتلاحم بين خيوطها ، فقرب لنا البعيد الخفي في صورة محسوسة قريبة المتناول والإدراك ، وسبرت في علاقة الصورة أغوار الشاعر النفسانية ، واضطراباته واهتزازاته . والشاعر يريد أن تعلق الفكرة في نفوسنا ويرسخها ، فيلونها بلون آخر ، أو يضع مشهداً آخر أمامنا ، فالولهان المتيم المضني فاغر فاه وحسبنا دلالة على البوح ، وتارة صامت حيث يجب الكلام عجزاً واضطراباً ، لا تدبيراً وتأملاً : ـ

وما هو إلا أن أراها فُجَاءَةً فأُبهت حتى ما أكاد أُجيب
وأصرف عن رأيي الذي كنت أرتئي وأنسى الذي أعددت حين تغيب

فالإبهات والعجز في القول ، ونسيان ما قرب عهده ، كلاهما أمران ينبئان عن حالة شعورية، تفيض بها نفسه ، وتطفو على ما عداها ، فتحيل بينه وبين التعقل والواقعية معاً ، فتعقد لسانه فلا ينطق ، وتسمر أرجله فلا يتحرك ، وتخامر عقله فلا يعي ولا يتذكر ثم يعوّض ذلك بالإبداع الفني ، فينطق بما يكتنزه شعوره ، وأحلام يقظته ، ودواخله أو عالمه الداخلي ، من صراع غير متكافىء ، ومعارك قلبية ، فتدب عليه الجيوش المؤازرة لعفراء وتهاجم المبررات التي تدعوه إلى قلاها وهجرها ، فتكون الغلبة لصالح عفراء أو أوهام عفراء ، فيكون استقرارها وثباتها في مخيلته ويعذرها ، ويجترر ذكرها حتى تكون عادة لا فكاك منها وهذا مرض بذاته .

والشاعر يتبع هذه الصور بصور أخرى مساعدة ومساندة وداعمة لبلورة النفسية الحزينة التي لونت سلوكيات عروة ، بنبضها الداخلي ، وتفاعلت تلك القبسات المظلمة مع الوعاء الجسدي ، وأثرت فيه ، وظهرت صفرتها من خلاله ، وتجلى مرضها وسقمها على الجسم الصحيح السليم الذي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

داهمه الهلاس والسلال من المجاورة والتلبس بالنفس السقيمة .

والصورة التي اقتبسها تطفح بالخشية والخشوع والرهبة والخنوع ولم يكتف بها وإنما زاد عليه مشاهدة الرقيب الذي يعلم السر وأخفى :

حلفت برب الراكعين لربهم خشوعاً وفوق الراكعين رقيب

واستجلابه لهذه الصورة للمشاكلة الداخلية النفسية الخاضعة الخائرة الخائفة فهو يصور حالته بالعابد الخاشع وإن كنا نفرق بين الخشية من الله العلي القدير وبين إحباط الشاعر في حياته ، فالأولى تحمل القوة الداخلية والعملية في الحياة الدنيا وتنحصر الخشية من الله سبحانه وتعالى أما الثاني فإنه عطل وظيفته في الدنيا وتأثر بمؤثر جانبي .

ويأتي لنا بصورة دارجة مستهلكة في الأدب العربي غير أنه تناولها بأسلوب يختلف عما تناولها به الأقدمون ، فلم يشبه تشبيهاً مباشراً ، ولم يقدمها في هيكل استعارة وإنما في هيكل رؤية والرؤية تدعو لتوارد الأفكار والخواطر فيتبادر للشاعر شبيه الشمس والبدر وإذا هي عفراء : ـ

فلست برائي الشمس إلا ذكرتها ولا البدر إلا قلت سوف تئوب

ويختم قصيدته بتمكن الداء وفتكه وبنائه العش المستقر داخل الجسم حيث الكبد الحرى المقروحة المتألمة : ـ

فواكبداً أمست رفاتاً كأنما يلذّعها بالكف كف طبيب

والقصيدة تظهر بمظهر التكثيف الذي يتمثل في حشد العديد من التلوين النفسي الداخلي التي تتحد في وحدة الشعور المأسوي وإن اختلفت وتنوعت أحداثها .

وقد اهتم الأدباء بشعر عروة بن حزام ولا سيما في أولياته في الشعر العذري حيث كانت معانيه أصول تفرعت عنها فروع وأغصان أخذها الشعراء من بعده ، كما يُعتبر شعره من الشواهد العربية ومن الأدباء الذين كتبوا عن هذه القصيدة صاحب خزانة الأدب عبد القادر بن عمر البغدادي[1] .

---

(١) أنظر ١٥٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لغة الشاعر

بنية الحروف : ـ

يرى علماء اللغة أن الإنسان يتعلم كيفية نطق حروف لغته من طفولته فيدرك بالممارسة مخارج الحروف وكيفية نطق الحرف ومدى حركاته داخل التجويف الصدري ومروراً بالحلق واللسان حتى الشفتين ، وعن طريق التقليد للمحيطين به يكوّن ماهية النطق وكيفيته فإذا تنشأ في بيئة فصيحة فإنه ينطق فصيحاً ، وإذا نشأ في جو عامي تتكيف لغته وفق ذلك . وهو عن طريق الممارسة اللغوية يتمرس على كيفية نطق الحرف ومقدار مقطعه أقصير أم متوسط أم طويل ثم يثنيه إلى مدى ملائمته مع ما يجاوره من الحروف فربما تقتضي المجاورة تقصيراً في المقطع أو توسطاً أو تطويلاً وهكذا .

وشاعرنا عروة بن حزام تمرس لغته في بيئة عربية فصيحة وتأثر في تكوينه اللغوي بنشئته الفردية ، بين جمع من الإناث. والإنسان في مراحل حياته الأولى تكون لغته سهلة وكل شاعر في مستقبل حياته يكون شعره سهلاً ليناً ، بعيداً عن الغرابة والخيال المبدع، وتتمثل فيه الطفولة في ألفاظه وتراكيبه وخيالاته ومضامينه ، ثم يتطور مع تلاقح التجارب .

وشاعرنا له خاصية فهو يمتلك الموهبة ، والممارسة التي تمثل مرحلة التكوين الأولى فحسب . ونتيجة لتلك فإن لغة الشاعر متأثره بلغة المحيطين به من أسرته ويتبلور في بنية اللغة التي تتكون من :

١ ـ الحروف : فطبيعة الشريحة الشعبية ، تتكلم لغة سهلة تقوم على اختيار الحروف السهلة المخارج ، وسهولة المخارج في الحروف تتأثر بالمتكلم ذاته فمخارج الحروف من الحلق ، واللسان والشفتين ولكل منها مواطن للحروف . والقبائل العربية الفصحى في العهد الإسلامي المتزامن مع عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين يتكلمون بسلامة لغوية بعيدة عن التعقيد لأنهم تمرسوا على كيفية النطق السليم ، وقد حدد العلماء الأوائل قدرة الإنسان على السهولة اللفظية وأنها ليست بجمع الحروف صاحبة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المخرج الواحد أو المتباعدة . ونحن إذا نظرنا إلى شعر عروة نرى فيه تلك السمة الشعبية .

ولننظر إلى بيته الأول الذي يستهل به نونيته : ـ

خليلي من عليا هلال بن عامر بصنعاء عوجاً اليوم وانتظراني

فمثلاً كلمة (خليلي)

فالخاء من حروف الحلق الأخيرة التي تلي اللسان ويبتعد من طرف قعر اللسان إلى طرفه فيأتي باللام ثم يعود إلى وسطه فيأتي بالياء ويتبعها باللام مرة أخرى والتناسب لا يقف عند حد اللفظة الواحدة بل تكون فيما يجاورها فبعد الياء الذي هو من وسط اللسان ينتقل إلى حرف من حرف الشفة وهو الميم في (من) ثم يعود إلى مخارج اللسان وإن قرب رجع إلى أدنى اللسان وهو حرف النون وبعد هذه التقلبات بين اللسان والشفتين يغير المجرى إلى الحلق فيأتي (بالعين) من عليا ثم ينتقل إلى اللام البعيدة بعض الشيء لأنها قريبة من طرف اللسان ثم الباء في وسطه ثم يقوص ، بحرف الحلق (الألف) ثم يأتي بحرف يشترك مع الألف في المخرج وهو الهاء في الكلمة الثانية وتوالي حرفين في مثل هذه الندرة لا يؤدي إلى ثقل وهكذا فإن البيت يتنوع في مخارج الحروف فسهل نطقه ويسر حفظه ، ولان عوده وقارب حياة الفطرة للشاعر ونأى عن الصنعة التي تتأتى للشعراء الذين يرتادون المحافل ، ويقوم شعره على ألا يشاهد ، أو يتقدم بهم العمر فيتطور فهمهم . ولولا خوف الإطالة لأكثرت من هذا فتغلب السهولة على جل مباشرة وهو يوظف الحروف لتبين عن حالته فإذا كان الأمر فيه شكوى وأنين فإنه يأتي بأحرف اللين لأنها طويلة المقاطع فتناسب الامتداد النفسي للشكوى فكرر المدات في شكواه أكثر من خمس عشرة مرة عدا التشكيل والتضعيف في قوله : ـ

ألا فاحملاني، بارك الله فيكما إلى حاضر الروحاء ثم دعاني

وقريب منه : ـ

وأوردتني غماً وكرباً وحسرة وأورثت عيني دائم الحملاني

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله : ـ

ألا يا غرابي دمنة الدار ، بينا أبالمِهَجْر من عفراء تنتحبان

وهو يوظف الحرف أيضاً لدلالة الحروف على مشاكلة النطق لماهية المضمون فسرعة التبادل بين أحرف الغين والقاف فيه تموج صوتي كتماوج الموقع في العين في قوله : (بعينين إنساناهما غرقان) .

ومنه استخدام الهمزة الاستفهامية ، ولم التي تفيد القلب ، وأن المؤكدة ، وباء الإلصاق ، وواو العطف في قوله : ـ

ألم تعلما أن ليس بالمرخ كله أخ وصديق صالح فذراني[1]

فالهمزة الاستفهامية تترك على النداء القريب فصحابيه أقرب الناس إليه لأنه قريبك من قربت مودته منك وهو استفهام تقريري ، ولم تقلب المضارع لمعنى الماضي فكأنهما عَلِمَا من قبل وهذا الأصل أنهما يعلمان ذلك من قبل لكن تعبيره بالمضارع فيه استنكار لهما وأدخل لم ليجعل الأمر قريباً من الماضي وموحياً بالمضارع معاً فهو في حاجة مستقبلية لهما .

و (أن) مؤكدة للمضمون المنفي في قوله (ألم تعلما) .

والباء تفيد الإلصاق بالمكان فكأنه ينفي أي أخ أو صديق . وما أجمل توظيفه حرف العطف (الواو) بين أخ وصديق ليدل على أنهما متساويان متماثلان وليرفع قدرهما وليفصح عن مكانتهما في نفسه بأنهما بمثابة الأخ فهما صديقاه .

حروف المعاني : ـ

وهو يوظف حروف المعاني توظيفاً يتناسب مع المضمون والتوتر الشعوري فهو يكثف حروف المعاني فمثلاً في قوله : ـ

وإني لتعروني لذكراك روعة لها بين جلدي والعظام دبيب[2]

---

(١) المرجع السابق ٣: ٣٧٦.

(٢) البغدادي ، خزانة الأدب ، ٣: ٢١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهو يستهل بواو العطف ، فكأنه يشير إلى أمور أخرى يتأثر بها نتيجة حبه لعفراء أكثر مما ذكر هنا من الروعة والفزع لذكرها ثم يتبعها بأن المؤكدة ولام التوكيد ليثبت تلك التأثيرات التي تموج به عند ذكرها وهو بهذا يرد رداً واقعياً لأن المجتمع من حوله ينكر عليه تلك الحال من الهيام والعشق فيقول لا حيلة ولا قدرة لصد عملية التأثير تلك فالأمر يستدعي التوكيد المؤكد (وإني لتعروني لذكراك روعة) .

وهو يأتي (بلام الجر) التي تدل على الملكية في قوله (لذكراك ، لها) فكأنه ملك لذكرى الأيام الخوالي مع عفراء فقد امتلكت الذكرى عليه كل شيء فكيف بالواقع لعفراء لو رآها .

وهو يشرك حروف المعاني ويجعلها متواصلة الوظيفة لكل منها موقعه المناسب .

وما هو ألا إن أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب[1]

فهو شرع بالنفي وهذا يهيء النفس لعدم الوقوع ثم يتبعها بألا الاستثنائية فتثير الشك مما يستدعي التوكيد إن فيعقبه بالمضمون الذي طال انتظاره بين تجاذب النفي والتنبيه بالنداء ، ثم التوكيد وهو (أن أراها فجاءة) فيكون أكثر وقعاً في النفس .

و (ما) النافية قبل فعل المقاربة أكاد لها دورها الفاعل ، فكاد تؤدي إلى الشك في وقوع الفعل لأنه يكاد أن يقع ولم يقع ، فالفعل لم يقع من أصله ولا قارب أن يكون فكيف إذا سبق بالنفي (بما) فكأنه ينفي قدرته على الإجابة أو إنها تكون في ضعف حتى لا تبين .

وهو يكتفي بالحروف ذات المعاني في قوله : ـ

فما بي من سقم، ولا طيف جنة ولكن عمي الحميري كذوب[2]

الفاء للربط تشير إلى سببية عدم الشفاء في قوله السابق (فإنك إن

---

(١) المرجع السابق ٣: ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ٣: ٢١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبريتني لطبيب) فكأنها إجابة لسؤال طرأ من الطبيب لماذا لا أبريك ؟ فالفاء ربطت بين مضمون البيت الأول والثاني .

و (ما) نافية ويغلب عليها تناسب النفس أكثر من ليس فهو يؤثرها على مرادفتها لوجود المد التي يرتاح معها عروة ، ولخفة تركيبها فالما والألف فحسب والباء في (بي) للإلصاق لينفي التصاقه بالمرض .

وحرف الجر (من) للتبعيض فتدل على أن عروة لا يشعر بجزء من المرض فكيف يدّعون أنه مريض مرضاً شاملاً . ولما يأتي لما يعرفه العرافون وهو مس الجن فإنه يأتي بواو العطف للمشاركة لأن الطبيب لم يتأكد هل سقم فيه أم جن ولحساسية مرض الجن فإنه يأتي (بلا) النافية ذات المد ليطول صوته بالنفي عن الجن .

الألفاظ : ـ

ولأن شعر عروة بن حزام صادر من تجربة شعورية ذاتية فقد هيمنت ماثلة تلك التجربة على ألفاظه فالألفاظ لها دلالتها الواضحة التي تشع بالتيارات الداخلية التي تجتاح نفسيّته وأشدّ اضطراباً ما يقربه من عفراء أو يشخصها ماثلة كقوله : ـ

وإنني لتعروني لذكراك رعدة لها بين جسمي والعظام دبيب

فلفظة دبيب يتلاحم فيها المعنى مع الشكل فالدال من طرف اللسان مصحوباً بإخراج الهواء ثم يأتي حرف الباء من الشفة مصحوباً بأطباق الشفتين ثم اندفاع الهواء ثم يتبعه بالياء التي تمثل العمق لتجربة الدبيب ثم الباء لتواصل الوقف مع الإطباق وتكرار النفث للهواء فكأن ذلك يمثل تلك الحركة الرتيبة ذات النمنمة داخل الجسم .

وتبدو دلالة اللفظ الشكلي على المضمون كثيراً ؛ فشكل الوكر قريب من كتابة الكاف في النسخ لذا عبر عنها بالكاف الأصلية وزيادة كاف الضمير : فعبر بوكريكما وكلاني .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإن كان حقاً ما تقولان فاذهبا بلحمي إلى وكريكما فكلاني[1]

وأيضاً مما يتناسب مع هلهلة أجزاء بيت الشَعر وتشققه لفظة هلها لأن فهي لفظة متشابهة الحروف يقرب شكلها من شقوق الرواق حتى كتابة الهاء بين اللامين تماثل التشقق : ـ

خليقان هلها لأن لا خير فيهما قبيحان يجري فيهما اليرقان

والألف توحي بطول التشقق ، وحركات الفتح ، وسهولة نطق الكلمة توحيان بالضعف العام للرواق .

وتحريك الرياح لأجزاء بيت الشَعر وستائره الأمامية والخلفية والجانبية يعبر عنه بألفاظ تتناسب معه وتوحي به مثل (خفاقان ، الأرواح ، يصطفقان)

روقان خفقان لا خير فيهما إذا هبت الأرواح يصطفقان[2]

وانظر إلى كلمة (يصطفقان) فالصاد فيها صغير ، والطاء والقاف توحيان بقوة الضغط فكأن الكلمة تنقل الحركة بصوتها تماماً .

ولفظة (نهاضه) توحي بضخامة ناقته وقوتها في قوله : ـ

ولم أتبع الأظعان في رونق الضحى ورحلي على نهاضه الخديان[3]

ومثله (سلسان) تدل على الليونة والرخاوة وشكلها يماثل تهدل العنانين والوشاحين :

كأن وشاحيها إذا ما ارتدتهما وقامت عنانا مهره سلسان[4]

---

(١) البغدادي الخزانة، ٣: ٣٧٩.

(٢) المرجع السابق ٣: ٣٨٠.

(٣) البغدادي، الخريدة، ٣: ٣٨٠.

(٤) المرجع السابق: ٣: ٣٨٠.

(٥) المرجع السابق : ٣: ٣٨٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولفظه غرقان في قوله : (بعينين إنساناهما غرقان)[1] فليس بخاف مناسبة اللفظة لامتلاء العين بالماء حيث تماوج الصوت ينطق الغين ثم القاف لقرب مخرجهما فكأنه تماوج الدمع في العين .

ومنه قوله :

ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر الروحاء ثم دعاني[2]

فإن زيادة ألف الاثنين مع مدلوله ونون الوقاية والباء ولكن أغلب الحروف من المقاطع الطويلة توحي بمعاناة الحمل وتكراره .

ولفظه (فيا واشي) . بالتاء التي تحوي على مقطعين طويلين ثم المد بالواو والألف والياء المكررة تنبيء عن معاناة بالوشاة ، ونداء عميق من أعماق النفس وإنهما يبتعدان عن حبه ووده لرقابتهما المكثفة حول عفراء كما يتضح من البيت :

فياواشي عفرا ، دعاني ونظرة تقر بها عيناي ثم كلاني[3]

ومنه قوله : ـ

خليليّ من عُليا هلال بن عامر بصنعاء عُوجا اليوم وانتظراني

ففي (خليليّ) نجد التناسب بين المعنى واللفظ فالخاء منفردة تمثل عروة ثم يخاطب صاحبين فأورد اللام مكررة وأورد الباء مكررة أيضاً فكأنه ناسب في التثنية بين شكل الكلمة والمعنى .

التكرار : ـ

والتكرار يكون نتيجة تفاعل داخلي للشاعر ؛ فإحساسه باسم عفراء الدائم الحضور يجعله يكرره ويزهد في الضمير العائد فيكرره موضع الضمير لأنه يحب ترداده على لسانه .

---

(١) عروة بن حزام ، الديوان ٣٠ .

(٢) (٣) (٤) البغدادي الخزانة، ٣ : ٣٧٦/٣٧٧ .

www.aiukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهو يكرر عفراء : ـ

عشيـة لا عفـراء وإنّ مـزارهـا فترجى ولا عفراء منك قريب[1]

ولحبه لعفراء واستلذاذه بتكرار اسمها فإنه أخذ يكررها في كثير من الأبيات المتوالية أو بينها فواصل ولم يأخذ بمبدأ النقاد الذين يعيبون التكرار في أقل من سبعة أبيات كقوله :

ألمـاً على عفـراء إنكمـا غـداً لشحط النـوى والبين معتـرفـان
فيـاواشي عفرا دعـاني ونـظرة تقـر بهـا عينـاي ثـم كـلاني

ويفصل بيتين فقط يخلوان من ذكرها ثم يتبعها بيتين في كل منهما ذكرها :

على كبدي من حب عفراء قرحة وعينـاي من وجـد بهـا تكفـان

يكررها في البيت الواحد أيضاً :

فعفـراء أرجى الناس عنـدي مودة وعفراء عني المعرض المتداني[2]

ومن توظيفه للإشتقاق في قوله : ـ

(وكلاني أكلاً لم ير الناس مثله)

فكلاني وأكلاً من حروف متماثلة ومعان متقاربـة واختلف اللغويـون أيهما الأصل الفعل أم المصدر .

ومنه :

غـدرت وكأن الغـدر منـك سجيـة فـألـزمت قلبي دائم الخفقـان[3]

ومنه تكرار الصفة الذاتية للشاعر التي يرغب أن يعلم بهـا القاصي والداني فمثلاً لا يمل من تكرار كلمة (الهوى)

---

(١) (٢) عروة بن حزام ، الديوان ٢٩ : ٣٠.
(٢) البغدادي، الخزانة ، ٣ : ٣٧٧.
(٣) المرجع السابق ٣ : ٣٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عشية لا خلفي مكر ولا الهوى أمامي ولا يهوى هواي غريب[1]

ومنه تكرار لفظه حبيب وهي قمة مفردات العشق فلا غرابة في التلذذ بها

فيقضي حبيب من حبيب لبانة ويرعاهما ربي فلا يريان[2]

ومنه تكرار لفظة الهوى :

هوى ناقتي خلفي ، وقدامي الهوى وإني وإياها لمختلفان[4]

لكنه عرّف هواه بأل العهدية ليشير إلى معرفته وشهرته

ومنه لشوقي وشوقك : ـ

متى تجمعي شوقي وشوقك تطلعي وما لك بالعبء الثقيل يدان[4]

الزيادة في بنية الألفاظ : ـ

والألفاظ يتدفق منها الإيحاء نتيجة زيادة المبنى فيزيد المعنى كلفظة (يُلذعها)

فواكبداً أمست رفاتاً كأنما يلذعها بالمواقدات طبيب[5]

فيُلذعها فيها زيادة الياء للمضارعة ولها مدلولها المستقبلي إضافة على الماضي والتكرار ، وأيضاً تضعيف الذال يوحي بتكرار الكي ولفظة اللذع ذاتها توحي بالحركة فالمكوي ينأى والطبيب يتأبع فلا يكاد يلمس الجلد حتي يتحرك المريض من شدة الألم .

الجملة : ـ

والشاعر يوظف الجملة توظيفاً ينبيء عن سليقة عربية فصيحة ، فهو صانع اللغة متواصلاً مع مقتضيات الحال فتكون الجملة في وشائج متعادلة

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب، ٣: ٣٧٧.

(٢) البغدادي، خزانة الأدب، ٣: ٣٧٧.

(٣) (٤) المرجع السابق، ٣: ٣٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بين التراكيب ومدلولاتها فاللفظة لها تلاحمها مع الاستهلال بها ومع ما يجاورها فيما بعدها وإن كانت وسطاً فإنها تتبادل وشائج الاتصال مع سابقتها ولاحقتها وتلمح توظيفه للجملة الطلبية في مستهل نونيته : ـ

خليليّ من عليا هلا بن عامر بصنعاء عُوجاً اليوم وانتظراني
ولا تزهدا في الأجر عندي وأجملا فإنكما بي اليوم مبتليان
ألم تعلما أن ليس بالمرخ كله أخ وصديق صالح ، فذراني

فاستهل بالنداء وهو طلب بالفعل على تقدير أدعو وهي عملية إستيقاف وتأمل فالشاعر يقف مع نفسه بتجربة موقفاً مشابهاً للمحسوس .

والجملة تتأثر بدلالتها مع الجملة التي تجاورها فالنسق الجاهلي عند الشعراء تكون فيه عملية طلب الوقوف للتذكر والتأمل لكن الجملة المتأخرة أضفت على الجملة المتقدمة مدلولاً جديداً توحي بأنهما قد عزما على فراقه وتركه فطلب الانثناء إليه والانتظار ، وإحساسه الداخلي لموحشة الفراق وضعف حاله جعله يأتي بجمل تدل على الطلب المباشر فهما فعلا أمر ويؤديا معنى متقارباً قاصداً بذلك التوكيد فعُوجا أمر يفيد العودة وانتظراني أمر أيضاً يفيد الثبات والوقوف حتى يبلغهما ومن هنا فإن الجمل تبادلت الدلالات بينها لتكثيف المعنى وإغراق المتلقى به .

وفي البيت الثاني يطلب بلا الناهية (لا تزهدا) وبفعل الأمر (أجملا) والأفعال لها وشائجها المثبتة مع جمل الطلب في البيت السابق فالتأخر وطلب الرجوع والانتظار يستدعي تعليلاً للموقف الذي يفرضه لماذا تركاه ؟ فيشير إلى عودة الأمر إلى ضعف الأجر فيطلب منهما عدم الزهد فيه فإن زهداً فيه فالأحرى بهما أن يعتدلا ، وأن لا يتركا صاحبهما ثم تأتي الجملة الاسمية المؤكدة لتختم الخلاف بالثبات لأن فيها عملية الإبتلاء الذي يقتضي احتساب الأجر من الله ثم خوفاً من أحاديث الناس بتركهما صاحبهما والجملة هي (فإنكما بي اليوم مبتليان) ثم يأتي التعليم في الجملة التي استهل بها البيت الثالث (ألم تعلما) ففيها استفهام تقريري كأنه حجة ثابتة ببرهان وبداخلها أيضاً الاستعطاف والرحمة لأن الجملة الاسمية المؤكدة التي تتداخل ضمن الجملة التقريرية فهي مفعول به توحي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لصاحبيه بأنكما الأقربان وأنكما الصديقان فكيف يُترَك؟ لذا يأتي بجملة طلبية (فذراني) وأرجح الرواية الأخرى تذراني أي فكيف والحال هذه تذراني أو يكون معنى (فذراني) تحدٍ لهما أن يتركاه لأن من عادة العرب عدم ترك الرفيق في الدرب مهما عظمت المصيبة ففيها عار عظيم .

والجملة الطلبية كثيرة في شعره القليل ، وهي توحي بضعفه واعتماده على غيره واتكاليته . ولضعفه فإنه لا قدرة له على الأشياء وربما إن تلك الأمور تنشأ عليها من أسرته النسوية بين أمه وأخواته فهو يأمر ويُستجاب له فظن أن الأمر دائم .

وهو يوظف الزمن الماضي ليشير إلى استقراره وتأثيره في حياته وكونه سبباً في الحالة السيئة التي آلت إليها حالته : تحملت ، وأطفتها ، واسيت ، وزلت ، ورجوتها ، وشاع في أبيات متوالية :-

تحملت زفرات الضحى فاطفتها ... ومالي بزفرات العشي يدان
فيا عم لا أسقيت من ذي قرابة ... بلالاً فقد زلت بك القدمان
ومنيتي عفراء حتى رجوتها ... وشاع الذي مثبت بكل مكان[1]

وفيه لمحات لاستمرارية الحدث الماضي حيث جاء به على شاكلة المضارع (تحملت) وأتى به للبناء للمجهول (أسقيت) وفيه أيضاً تأييد للماضي بحرف التحقيق قد (قد زلت بك القدمان) ليثبت خطأ عمه بزواجه لعفراء وأيضاً يظهر معنى المضارع (حتى رجوتها) لأن حتى غاية فكأنه لم يبلغها فإذا بلغها يأتي الرجاء . يكثر من المضارع ليوحي بتكرار الحدث واستمراريته ، وليشير إلى تمكن تلك الأحداث وأنه متلبس بها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً كقوله : -

فقالا : نعم : نشفي من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدران[2]

فاكتفى بالفعل المضارع (نشفي) فكأنه يحكي حكاية . ولكن يتضح إثارة الدلالة في (يبتدران) حيث توحي بممارسة العمل والجهد وتواصله

(١) البغدادي، الخزانة، ٣: ٣٨٠.
(٢) البغدادي، الخزانة، ٣: ٣٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالفعل المضارع فيه زيادة حرف المضارع وزيادة التاء وألف الاثنين الذي يدل على التصاقهما والنون المجرورة التي تشير إلى الجهد .

ومثله الفعل (تكنفني) الذي يوحي بالاحتواء الكامل والدائم .

(تكنفني الواشون من كل جانب)

ويورده مرتبطاً بالنهي والتوكيد زيادة في التمكن من حفظ السر وعدم انتشاره .

ولا يعلمن الناس ما كان مني ولا يأكلن الطير ما تذراني[1]

ويورد الفعل المضارع للتناسب مع واقعه فحسب ، فرفع القميص المستقبلي يقتضي الرؤية فحسب ويؤدي إلى الاعتراف بالواقع لهيكله النحيل : ـ

متى ترفعا عني القميص تبينا بي الضر من عفراء يا فتيان
وتعترفا لحماً قليلاً وأعظماً دقاقاً وقلباً دائم الخفقان[2]

والجملة الإسمية تشير إلى رؤيته الثابتة للأشياء فهو دائم النظر إلى بلادها يتطلع إليها ، محدقاً فيها ، مستشرناً لها الأعالي ، وهو أيضاً دائم البكاء أو ما هو قريب منه كأن يغشى عينيه حجاب من الدموع فتتخثر أحياناً فلا يسح الدمع ، ويستبان ذلك من جملتي (أنت رام بلادها) و (إنساناهما غرقان) في قوله : ـ

أفي كل يوم أنت رام بلادها بعينين إنساناهما غرقان[3]

وقدم الجار والمجرور على الجملة لأنه يحوي الزمن المقصود والأهم في البيت فيشير إلى ديمومة النظر وتتابعه في الأيام . واستهلال الجملة بضمير المخاطب أبلغ من الغائب والظاهر معاً لأنه يوحي بالمخاطبة

---

(١) المرجع السابق، ٣/٣٧٩.
(٢) المرجع السابق ٣: ٣٧٧.
(٣) المرجع السابق ٣: ٣٧٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المباشرة لذا جرد من نفسه من يخاطبه أو أنه يحكي خطاب الصديقين له والأخير أولى لأن فيه تفعالاً وتسجيلاً لحوار واقعي .

وهو يكثر من حروف التوكيد لأن حالته منكرة مستغربة فالمجتمع لا يقره ولا يعتقد أن الهيام يفعل به هذه الأفاعيل ويرميه بالاستسلام والضعف والخور أو هو يريد ذلك . مما جعله يعتقد أن المعارضة واقعة له في كل قول يقوله فاستخدم المؤكدات كثيراً حتى في مواضع لا تستدعي ذلك فالنوى وتأثيره أمر كل يعترف به بعد الأسفار لكنه يؤكده : ـ

ألما على عفراء إنكما غداً لشحط النوى والبين معترفان[1]

وقوله : ـ

هوى ناقتي خلفي، وقدامي الهوى وإني وإياها لمختلفان[2]

لكنه يوظفه أحياناً توظيفاً مناسباً فالجميع يستغرب حبه للحشر لما فيه من الهول مما يستدعي توكيده .

وإني لأهوى الحشر إذ قيل: إنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان[3]

ومنه التوكيد لمن يشك في إفشائه السر : ـ

سوى أنني قد قلت يوماً لصاحبي ضحى وقلوصانا بنا تخدان[4]

والعاشق يمني نفسه ، ويسليها بأحلام اليقظة التي تحكي أمانيه وآماله وتظهر أحياناً في شعره ومنه : ـ

فيا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان[5]

ويستمرىء الأماني تلك ، فيتنقل بنفسية في تفاصيلها ليطيل المكث في حلاوة مذاقها .

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب ٣: ٣٧٧.

(٢) المرجع السابق ٣: ٣٧٨.

(٣) المرجع السابق، ٣: ٣٧٩.

(٤) المرجع السابق: ٣: ٣٧٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيقضي حبيب من حبيبه لبانةً ويرعاهما ربي فلا يريان[1]

وقوله : ـ

فيا ليت محيانا جميعاً، وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان
ويا ليت أن الدهر في غير ريبة خليان نرعى القفر مؤتلفان[2]

ومثله الترجّي :

وليس يمان للعراق بصاحب عسى في صروف الدهر يلتقيان[3]

وهو يكثر القسم ليبرأ من الاتهام : ـ

فوالله ما حدثت بسرّك صاحباً أخاً لي ولا فاهت به الشفتان[4]

ثم يريد القطيعة والهجران لعمه لكن حب عفراء يجعله يتحامل على مصاحبة عمه : ـ

فوالله لولا حب عفراء ما التقى عليّ رواقا بيتك الخلقان[5]

التقريرية والسردية : ـ

تختلف بواعث الانفعال بين الشعراء ـ بله عند الشاعر الفرد ، من تجربة إلى تجربة ، ومن قصيدة إلى أخرى نتيجة للتأثر من الغرائز البشرية ، والشعراء يتفاوتون بشدة التأثر ، فمنهم من يتفجر عنده التوتر والانفعال بفعل العوامل الداخلية ذات الهيمنة والاستحواذ على غيرهما ، مثل الحب والوجد والفروسية ، ومنهم من ينظر نظرة سوداوية فيغلب على هؤلاء الذاتية ، ومنهم فريق آخر ينظر باعتدال ذاتي ، وتأمل اجتماعي .

وشاعرنا عروة من أولئك الذين ألهب الوجد نفوسهم ، واستأثر بها

---

(١) المرجع السابق: ٣: ٣٧٧.
(٢) المرجع السابق: ٣: ٣٧٩.
(٣) المرجع السابق: ٣: ٣٧٨.
(٤) المرجع السابق: ١: ٣٧٩.
(٥) المرجع السابق: ١: ٣٨٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على ما سواه ، فكان مصدر الانفعال والتوتر ، فشعره استجابة للهوى الفردي المتأصل في نفسه ، من طبيعة التكوين والتراكم الحادث بفعل التربية والتنشئة مجارة للبيئة العاطفية ، فأخرج كل ذلك في أقصى حدوده الحسية والنفسية والذهنية .

والمتدبر في شعر عروة يلمح التقرير الذي يهيمن على أسلوبه الشعري ، لتقاربه مع الواقعية الشعورية والعقلانية في مضامينه الذهنية . والجملة التقريرية ينفر منها المنظرون في عصرنا هذا ، وذلك لتطور الإبداع وإلحاحه على لجج وقيم جمالية لم يبلغها من قبل ، ووسيلته إلى ذلك التراكم الخيالي والإبداعي ، واللغوي وعملية التطور والتغيير ، وأصبح الإبداع يستدعي إجالة النظر والغوص في محيطات الفكر كيما يستخرج لوناً جديداً يكون أكثر تعبيراً عن العالم الإنساني المجهول ، الذي لا تحده حدود ، ولا تؤطره أطر ، غير أن الإبداع العربي الذي ينسجم مع الذوق ويتقارب كثيراً مع المستويات الفكرية واللغوية المعاصرة له ، نقل إلينا ، وبقدرات فائقة ما يعتمل في النفس البشرية من تجارب وخيالات رغم شيوع وتبلور التقريرية .

وأقرب مصداقاً له شعر عروة بن حزام رغم قلته ، وخصوصيته ، فإنه حشد لنا صوراً كثيرة من انفعالاته ومؤثراته الوجدانية ، حتى أصبحت مصدراً للعاشقين من بعده ، فغالبية الشعراء العذريين التمس في شعره نبضات شعورية وتعبيرية ، حتى لا تستثني منهم أحداً فالكل قد اقتبس شهباً من إبداع عروة . ومنهم قيس بن الملوح وجميل بن معمر ، وكثير عزة وغيرهم الكثير وانظر إلى قوله الذي سرى بين الشعراء : -

فيا واشيي عفراء ويحكما بمن ... وما وإلى من جئتما تشيان

يقول قيس بن الملوح : -

ألا أيها الواشي بليلى ألا ترى ... إلى من تشيها أو لمن أنت واشيا[1]

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق ١ : ١٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول عروة : ـ

إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه تواشوا بنا حتى أمل مكاني

ويقول ابن الملوح : ـ

إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه تواشوا بنا حتى أمل مكانيا[1]

يقول عروة :

فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان
ويا ليت أنا الدهر في غير ريبة خليان نرعى القفر مؤتلفان
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله وقالوا بعيرا عرة جربان

وقد استقى جميل بن معمر منه قوله :

ألا ليتنا نحيا جميعاً، فإن نمت يواف لدى الموت ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب إذا قيل قد سوى عليها صفيحها[2]

وقد أخذ كثير عزة :

ألا ليتنا يا عز كنا لذي غنى بعيرين نرعى في الخلاء ونعزب
كلا نابه عرٌّ فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدي وأجرب
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله علينا فما ننفك نرمي ونضرب
نكون بعيري ذي غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
ليطردنا الرعيان عن كل تلعة ويمنع منا أن نرى فيه نشرب
وددت وبيت الله إنك بكرة هجان وأني مصعب ثم نهرب[3]

والذي يقلل من غلواء السردية في شعره ، كونه لم يتقص الأحداث ، ويفصل القول فيها ، وأنما يمر عليها مروراً عابراً ، كأنه يدعوها لتنقل فيض شعوره ، وليلتمس القارىء ما وراءها من تجارب نفسية وشعورية وما ترسمه

---

(١) المرجع السابق ١ : ١٢٥ .

(٢) جميل معمر ـ الديوان ٥١ ، تحقيق حسين نصار .

(٣) كثير عزة ، الديوان ١٦١ ، تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة بيروت .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتوحي به من آثار عميقة التأثير على الشاعر ، فهو يتعرض لسفره ورحلته لصنعاء في أبيات معدودات ، ولم يسرده لنا ويثقل علينا بوصف مهامه وفيافيه وشعابه وتلاله ، وإنما اقتطف ما يؤازر الإيقاع المتلاحم من حالته ومأساته يقول : ـ

خليلي من عُليا هلال بن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني
ولا تزهدا في الأجر عندي وأجملا فإنكما بي اليوم مبتليان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر الروحاء ثم دعاني
على جسرة الأصلاب ناجية السرى تقطع عرض البيد بالوخدان

وعلى هذه الشاكلة يحيي تجاربه ومن هنا نستطيع تقييم قصيدته إلى أفكار جزئية تنبيء عن جوانب مأساته ونتعاور ونتعاون مع تركيبة القصيدة لتجسيد الحالة العامة النفسية للشاعر . وكل جزئية لا تتجاوز خمسة أبيات مع أنها كفيلة ببناء قصائد مطولة عند الشعراء المحترفين ، أما عروة فاحتضن الواقع احتضاناً نفسياً ، ونسج إبداعه لغوباً في تخوم الرؤيا والحلم مثلما الصدى النائي العميق مظهر المكتوم في خبايا الذات العاشقة .

وواقعية عروة في شعره ليست الواقعية المجردة، ولكنها تلك المعقدة التي تلونت بها نفسه حيث الحرمان والصد والمكر والخديعة ، ويصطدم بالحب الصادق ، المندفع ، فيحدث التوتر الدائم ، وينسج الخيالات والأحلام ، والأوهام والآلام ، وتتبلور في سلوكياته التي تتمخض عنها ردود فعل كثيرة من المجتمع من نظرة رحمة وشفقة أو عتاب ، أو لوم وتقريع كل ذلك يتلاحم ويتلاقح ويتولد عنه الفيض المأساوي : ـ

بي اليأس أو داء الهيام شربته فإياك عني لا يكن بك ما بيا

وسرديته التقريرية لم تحجب الأطياف الهاربة ، والظلال المموهة ، ولم يقتلها أو يبهتها بالمنطقية والتقصي .

الجملة الخبرية : ـ

يعتمد الشاعر على الجملة الخبرية سارداً ومقرراً الأحداث التي تآلفت وتعاورت عليه ، وأثرت فيه الأثر البالغ الذي تشابك بما يعتمل في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جوانبه أو دواخله والعنصر الخارجي من المجتمع :

ومنيتني عفـراء حتى رجـوتهـا وشـاع الذي منيتني بكـل مكـاني
بنيـة عمي حيـل بيني وبـينهـا وصـاح لوشـك الفـرقـة الصـردان

ولكن اختياره الألفاظ ذات الإيماء النفسي يفيض بالدلالة الشعورية ، منيتني فالتمني حالة شعورية ، والرجاء أيضاً ، ولفظة حيل ، « وصاح لوشك الفرق الصردان » حيث أشرك الطبيعة المتحركة معه وجعلها تتأثر وترثي لحاله ، وهذا منحى جديد في عصره .

ويكثر من الجمل الخبرية كثرة تتضافر على تشخيص الحواجز والعوامل التي تآزرت لتحيل بينه وعفراء ، فكأنه يريد إقناع السامع بمعاناته ، ويلتزم الشاعر بصيغة خبرية يميل إلى الثبات فيجعلها الأغلب ويأتي بها في صيغة مختلفة فمنها الجملة الإسمية التي تدل على الاستمرارية والثبات كما هو الشأن في البيتين السابقين ، ومنها الجملة الماضوية التي تشير للواقع ورسوخه ، وجملة الماضي ربما يؤثر بها شكلانية المضارع ليتوهم التكرار فيها كقوله : ـ

تكنفني الواشون من كل جانب ولـو كـان واش واحـد لكفـاني
تحملت زفـرات الضحى فأطلقتهـا ومـا لي بـزفـرات العشي يـدان

أما الجملة المضارعية فهي قليلة في ثنايا شعره وتأتي في عرض الأخبار المجردة أو الطلب :

فـإن كان حقـاً ما تقـولان فاذهبـا بلحمي إلى وكـريكمـا فكـلاني

وقوله :

ولا يعلمن النـاس ما كـان قصتي ولا يـأكلن الـطيـر مـا تـذران

ويلجأ إلى المضارع عند المعاناة المستمرة المتكررة :

فيـا حبـذا من دونـه يعـذلـونني ومن حليـت عينـي بـه ولـسـاني
ومن لـو أراه في الـعـدو أتيتـه ومن لـو يـراني في العـدو أتـاني

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجملة الإنشائية :

ويخرج من رتابة الإخبار والسرد والتقرير بالجمل الانشائية لتنفح في القصيدة الحركة والحياة ، وتبث فيها وهج الزفرات ، والتوتر والانفعال كقوله :

ألا لعن الله الوشاة وقولهم فلانة أضحت خلة لفلان

وقوله :

وياليت إنّا الدهر في غير ريبةٍ خليان نرعى البهم مؤتلفان

وقوله :

ألا حبذا عن حب عفراء ملتقى نعام وبرك حيث يلتقيان

التنبيه :

يوظف الشاعر أدوات التنبيه والنداء والاستفتاح في أبياته الشعرية كي يبلور حالة شعورية ، أو يلفت انتباه السامع إلى معرفة حالته يستدر عطفه ويثير شجونه ، فيستهل قصيدته النونية بالنداء المحذوف الذي يشير إلى البعد المجهول عن الوطن ، و عن حاله وحالهما ، أو ربما حذفه ليفسح أمام القارىء فيتأول البعد أو القرب ، فالبعد لغيابه وانشغاله بذاته والقرب من صاحبيه :

خليلي من عليا هلال بن عامر بصنعاء عرجا اليوم وانتظراني

ويكثر النداء في القصيدة ليدل على أن الشاعر في حالة استغاثة واستصراخ فهو يلجأ إلى الغير لما يستشعره من ضعف وخور ، ويوحي بعدم تمكنه من الخلاص مما يعتريه فهو يطلب النجدة ويتوسل للغير لعله يجد عوناً ونصيراً على ما يعانيه من الترنح والذهول واللهفة .

ويوظف لا الناهية والاستفهام التقريري في استمال العطف والشفقة :

ولا تزهدا في الأجر عندي وأجملا فإنكما بي اليوم مبتليان

ألم تعلما أن ليس بالمرخ كله أخ وصديق صالح فذراني

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفي كل يوم أنت رام بلادهما بعينين إنساناهما غرقان

ويكثر من القسم :

يكلفني عمي ثمانين ناقة وما لي والرحمن غير ثمان

وقوله :

فوالله لولا حب عفراء ما التقى عليّ رواقا بيتكِ الخلقان

الذاتية :

شعر عروة بن حزام عريق في الذاتية ، خالص لها، بله محض ذاتية ووليدها ، فهو وليد المعاناة الفعلية الصادقة ، تفصح عن واقعية شعورية وتجربة فردية ، تزخر بالتوتر والانفعال الشخصي ، فهو شاعر رومانسي لانسلاخه من المجتمع والمناسبات ووصف الطبيعة ، حتى ليقال : إن شعره تقوقع لذاتيته المحضة ، وما يرتبط به من أحداث ، وتجربته الشعرية زاخرة بصراحة الانفعال والمؤثرات والارتداد نتيجة لوقع الحدث :

فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان

ويا ليت أنا الدهر في غير ريبة خليان نرعى البهم مؤتلفان

إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله وقالوا بعيراً عرة جربان

وهو حتى لو قيض الله له الحياة التي يئس منها فإنه يزفر بالوحدة والانعزالية يتمنى في أحلام يقظته أن يكونا طفلين صغيرين يرعيا البهم فلا يعيرهما الناس اهتماماً ، ولا يرقبونهما ، ويتجاوز واقعه الإنساني فيتمنى أنه وإياها بعيران أجربان يطردان من المعاطن والمياه فيهيما على وجهيهما في البراري والقفار . والذاتية تتبلور في التلاحم والتناسق بينه والأحداث ، فيبرز عنصر الذاتية بواسطة تكثيف ضمير المتكلم أو الإضافة والنسبة إليه ، أو يظهر التحدث بفعل الشاعر ذاته .

وأزعم أن قصيدة عروة لا مثيل لها في الأدب العربي القديم من حيث كثافة الذاتية فالعربي غالباً ما يقف موقفاً حيادياً موضوعياً ويصف وصفاً مجرد من الذاتية بينما عروة ينطلق من ذاته ويغرف من بحر حزنه ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفيض دمعه ، فترى نفسه الحزينة الكسيرة تتلون في إشكاليات مختلفة :

أعفراء كم من زفرة أذقتني وحزن ألج العين للهملان

وقوله :

فويلي على عفراء ويلاً كأنه على الكبد والأحشاء حد سنان

الصورة الفنية

مصادر الصورة : ـ

مصادر الصورة من البيئة المحيطة به كالإبل وبيت الشعر والمؤثرات الخارجية على نفسية الشاعر . وهو يستمد من سيرة حياته اليومية في سفره ومرضه ورحلاته للعرافين ، وصورة عفراء في طفولتها المتأخرة ، وبيت عمته والوشاة والرقباء .

والمتدبر في مصادر شعره يدرك أن شعره يقوم على الفطرة ، وليس هناك تجارب حياتية يرتكز عليها . وصوره تنبيء عن شاعر فتي أثقلته سهام العشق وحجبته لذا فإن صوره تتأطر بذاته ومؤثراتها من قبل عفراء .

وقل أن نلمح أثر الصور القرآنية في شعره ومنها قوله : ـ

وما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى ما كاد أُجيب[1]

فإنها تستدعي قوله تعالى ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ﴾[2] .

وقوله تعالى ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾[3] .

ومنه قوله :ـ

تحملت من عفراء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان[4]

---

(١) عروة بن حزام ، الديوان ٢٨ .

(٢) الأنبياء ، ٤٠ .

(٣) البقرة ٢٥٨ .

(٤) البغدادي ، الخزانة ٣ : ٣٧٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لعله أخذها من قوله تعالى ﴿ والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[1] .

وربما يعترض معترض فيقول : إنها من توارد الخواطر ، والألفاظ والصور من التشبيهات الشائعة ولا ضير في ذلك .

انماط الصورة : ـ

والصورة لها وسائلها المتعددة التي تجعل لها أنماطاً متعددة كالمباشرة والتشبيه والاستعارة .

١ ـ المتأمل في بنية الصورة عند عروة بن حزام يدرك أن جل صوره تعتمد على المباشرة فيعمد إلى رسم لوحة باللغة الشاعرة ذات التصوير الواقعي وذات دلالة شعورية ومضمون واقعي ، ولا ضير في ذلك فإن القدرة الشاعرية تتبلور في توظيف اللغة حيث تجمع بين المضمون وجمال الشكل وفيض الشعور ولا مطلب فوق ذلك وليس معنى ذلك أن تلك بلغت الكمال وفاقت سواها وإنما يحس المتلقي بحضور أركان الشعر تلك في تفاوت نسبي لصوره ومقارنة بصور غيره فيرسم العين (إنساناً هما غرقان) فالإنسان جزء من العين وامتلاء العين بالدموع واقع أيضاً .

أفي كل يوم أنت رام بلادهما بعينين إنساناهما غرقان[2]

ويصور شعوره الداخلي : ـ

بنا من جوى الأحزان في الصدر لوعة تكاد لها نفس الشفيق تذوب[3]

ويصور تعاقب الريح ليشير بها إلى تعاقب الحموم والأحزان عليه : ـ

فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبا وما عقبتها في الرياح جنوب[4]

---

(١) النازعات ٣٢.

(٢) البغدادي، الخزانة ٣: ٣٧٧.

(٣) عروة بن الورد ، الديوان ٣١.

(٤) المرجع السابق ٣٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو يصور تصويراً مباشراً بأسلوب سطحي يدركه العامة والخاصة :

لو أن أشد الناس وجدا ومثله ... من الجن بعد الأنس يلتقيان
فيشتكيان الوجد ثمت أشتكي ... لأضعف وجدي فوق ما يجدان[1]

٢ ـ التشبيه : ـ

والعرب توظف التشبيه للتصوير في وظائف متعددة يغلب عليها تركيب الصور لتوحي بدلالات متشعبة فالصورة الأصلية لها كيانها والصورة المقارن بها لها كيانها ، والصورة الثالثة الناتجة عن المقارنة لها دلائلها الجديدة والتي تستمدها من الصورتين المقارنتين . والتشبيه في الأدب العربي دأب كثير من النقاد على توظيفه من أجل التوضيح والكشف لكن تلك وظيفة لا نستبعدها وإنما نضيف عليها تلك العناصر التي أسلفت ومدلولاتها .

وعروة وظف التشبيه كغيره من الشعراء فهو يشير إلى صورة داخلية في خفقان جوفه عامة ويستدعي صورة الطائر المعلق بأحد جناحيه ويضرب بآخر محاولاً الانفكاك فهو يشتد في الضرب فيرتفع صوته ، والصورة الجامعة هي تلك الاضطرابات الفزعة الخائفة التي تنبىء عن عملية صراع داخلي .

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان[2]

وعقد مقارنة التشبيه التصويري بين المهرة الصغيرة المتراخية العناتين وبين عفراء المتراخية الوشاحين : ـ

كان وشاحيها إذا ما ارتدتهما ... وقامت عنانا مهرة سلسان
يعض بأبدان لهما ملتقاهما ... ومثناهما رخوان يضطربان[3]

فهذه الصورة تجمع التكامل في الفرد العربي فأفضل ما يكون عنده امرأة يأنس بها ومهره تحميه عند الشدائد فإذا جمع بينهما كأنه حاز الدنيا

---

(١) البغدادي ، الخزانة ٣ : ٣٨١ .
(٢) البغدادي ، الخزانة ٣ : ٣٧٨ .
(٣) المرجع السابق ٣ : ٣٨٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما فيها والصورة توحي بأن كلاهما في مستقبل العمر ، ولم يحوهما الشاعر فهما أمنيتان .

ومنه تشخيصه الويل ووقعه بالسنان وطعنه في قوله : ـ

فـويلي على عفـراء ويـلاً كـأنـه على الكبد والأحشاء حد سنان[1]

ومنه التشبيه البليغ في قوله : ـ

لئن كان برد الماء عطشان صادياً إليّ حبيباً إنهـا لـحبـيب[2]

فَمَنْ مِن البشر لم يكن برد الماء صادي حبيباً عنده ذلكم الحب العام البشرى يجعله صورة لحبه لعفراء .

وأسلوبه التشبيهي غير المباشر أسلوب يندر فهي لا يصرح أنها تشبه الشمس ولكن يترك فرصة للتأمل لماذا يـذكرهـا إذا رأى الشمس فيجيب المتلقي للمشابهة بينهما :

فلست برائي الشمس إلا ذكرتها وآل إلـى من هـواك نـصـيب[3]

وأقف وقفة متأنية عند التشبيه في قوله : ـ

فـواكبـداً أمست رفـاتـاً كـأنمـا يُلذّعهـا بـالمـوقـدات طبيب[4]

فماذا يريد منه ؟ .

فلو قلنا : إنه يشبه تشبيهاً مباشراً فما وجه الشبـه لأن كأنّ تقتضي التشبيه بين شيئين وطرفاه هنا واحد الكبد الرفاة والكبد التي تُلذّع بالنار .

وندرك من هنا أن الصورة التشبيهية هنا لا يراد بها مباشـرة التشبيه بالدلالة المباشرة للألفاظ وإنما توحي بصورة هي المراد فهو عبر هنا بالكبد لأن ألم الكبد من حرقة نفسية فكأنها تكوي الكبد التي تستجيب لها سائر

---

(١) البغدادي ، الخزانة ٣: ٣٨١.

(٢) المرجع السابق ٣: ٣٨١.

(٣) عروة بن الورد ، الديوان ٣٠.

(٤) المرجع السابق ٣٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أعضاء الجسم فيتأثر بها لأنها موطن التوازن في الجسم البشري فمتى فقدت عملها فقد التوازن والوعي . فذكرى عفراء تشبه آلة الكي الحارة والكبد تشبه الجسم المكوي ويبدو جمال الصورة من كليتها ممتزجة بتأثيرها النفسي .

ويؤخذ على التعبير تقرير الشاعر بأن الكبد أمست رفاتاً والرفات لا إحساس له فهو قد فارق الحياة فلا يتأثر بالكي .

٣ ـ من الوسائل الاستعارة : ـ

فهو يستنطق الغراب فيشخصه بالحيوان الناطق الذي يحاور ويناجي ويشبههما بالحيوان المفترس أو حيوان الأسطورة الذي يلتهم الإنسان كاملاً كأنه حوت يونس عليه السلام .

فإن كان حقاً ما تقولان فاذهبا بلحمي إلى وكريكما فكلاني
كلاني أكلاً لم ير الناس مثله ولا تهضما جنبي وازدرداني

فهو شبه القول بالإيحاء وحذف المشبه وكأن هذا الإيحاء أضحى قولاً حقيقياً فهو استعارة مكنية .

وهو يصور نفسيته وآمانيه وآماله فمبتغاه الخلوة مع عفراء في مكان آمن فيستدعي لهما صورة بعيرين مؤتلفين قد انفردا في صحراء قاحلة بقرينة الرعي الذي هو من خصائص الحيوان : ـ

ويا ليت أنّا الدهر في غير ريبة خليان نرعى القفر مؤتلفان

فشبه عيش الكفاف وندرته برعي القفر وحذف المشبه ليثبت صورة المشبه به لأنها أكثر التصاقاً في نفسية الشاعر وكأنه يغترب عن واقع الإنسان بقيوده إلى حرية الحيوان .

ورعي القفر فيه دلالة على الفقر وقلة الزاد لأن القفر الصحراء التي

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب ٣: ٣٧٩.
(٢) البغدادي ، خزانة الأدب ٣: ٣٧٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تخلو من الماء والكلأ وفيه إشارة إلى جو الخلوة لأنه يقل من يرتاد تلك الصحراء .

ووردت القفر في المعجم بمعنى الطعام الجاف بلا أدم لكن يُرجح الأول بقرينة قرى التي هي من خصائص الحيوان .

ومنه تشخيصه للضحى حيث يشخصه بإنسان يتألم ويئن ، ويسترجع صوتاً قوياً مشدوداً ومثله العشي :

تحملت زفرات الضحى فاطفتها ومالي بزفرات العشي يدان[1]

والصورة توحي بتواصل الأنين والحسرة عند الشاعر فتنتابه نهاراً وليلاً وعبر بالضحى والعشي لأنهما الساعتان اللتان يكثر انشغال الناس فيهما ويتكاثف فيهما اللقاء مما يدعوه للسلوة ، ومع ذلك فإن عفراء مستحوذة عليه فيهما فكيف ببقية ساعات الخلوة .

* وهو يصور انحراف عمه عنه بإخلاف الوعد وإقباله على الرجل الغريب وتلك حالة معنوية يصورها بمن زلت به قدماه .

فيا عم لا أُسقيت من ذي قرابة بلالاً، فقد زلت بك القدمان[2]

فشبه الانحراف المعنوي في الفكرة بانزلاق القدمين والانحراف الفكري أودى بحياة عروة وعفراء ، وانزلاق القدمين يسقط الهيكل الجسمي لعمه . وجعلها تصريحية ليثبت الصورة المحسوسة في الذهن ووظيفة الصورة التوضيح الحسي وتكثيف الفكرة التي تتمثل في سقوط عروة في غياهب العشق .

* وهو يصور كثافة السواد من القطران بالنسيج من الأكسية السوداء إلى جانب التهابها وشدة حرقها وتأثيرها .

وما لكما من حادبين كسيتما سرابيل مغلاة من القطران

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب ٣: ٣٨٠.

(٢) المرجع السابق ٣: ٣٨٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والصورة تشير إلى عادة متبعة إلى اليوم فمن يترك مريضاً أو صاحباً في الطريق أو غريقاً أو ما شابه ذلك فإنهم يقولون له (سوّد الله وجهك) وبعض القبائل ترفع راية سوداء له . إذن فالصورة توحي بمذمته لصاحبيه مذمة شديدة والصورة أيضاً توحي بتذمر صاحبيه منه .

٤ ـ ومن أنماط التصوير المجاز : ـ

فالشاعر يصور العراق أو اليمان كأنهما اتجاهين متقابلين نابا عن الشمال والجنوب ، فهو عبر بالعراق لأنه جزء من الشمال ، وعبر باليمن ، لأنه جزء من الجنوب ، فعبر بالجزء وأراد الكل .

هواي عراقي وتثني زمامها لبرق إذا لاح النجوم يمان[1]

ونظرة الشاعر للإقليمين أو الجهتين نظرة كلية لا تفصيلية لكل جزئية .

وهو يصور الكل بالجزء كاليدين التي يوظفهما الشاعر في قصيدته أكثر من ثلاث مرات فاليد تمثل القوة عند الإنسان مما جعله يعبر باليدين عن قوة الناقة :

متى تجمعي شوقي وشوقك تضلعي ومالك بالعبء الثقيل يدان

وقوله :

تحملت من عفراء ما ليس لي به ولا الجبال الراسيات يدان

وقوله :

فقالا شفاك الله، والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان[2]

ومن التصوير المجاز تصويره الغراب وهو ينعب في الديار ليثبت الفرقة في نفسية الشاعر ، وعبر عن الديار ، وكامل الربع بالدمنة التي هي جزء من الديار والربع فاكتفى بالجزء عن الكل : ـ

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب ١ : ٣٧٨.

(٢) المرجع السابق ١ : ٣٧٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(ألا يا غرابي ، دمنة الدار)[1] .

ولأن الدمنة تمثل الآثار ، ولأنها الشيء المتهالك ، المتماثل مع شخصية الشاعر فكأنه شبح أو طلل لا معلم للقوة فيه .

والتعبير بالزفرات عن الأسى والحزن الشامل الذي يعتريه أو تصويره الحزن بالدمع كلاهما تعبيران جزئيان عن مفهوم كلي .

أعفراء كم من زفرة قد أذقتني وحُزن ألجّ العين في الهملان[2]

التعبير بالمكان وإرادة الحدث سمة في شعره لأن المكان هو الحيز الثابت فحبه لملتقى نعام وبرك لما يحتويانه من لقاءات غرامية سالفة :

ألا حبذا من حب عفراء متلقى نعام وبرك حيث يلتقيان[3]

ويوظف التعبير الجزئي عن الكلي حيث يعبر بإنسان العين عن العين كاملة لأن الدموع لا تملؤه فقط وإنما تترقرق في العين كاملة :

أفي كل يوم أنت رام بلادها بعينين إنساناهما غرقان[4]

لكنه خص إنسان العين لأنه موطن الرؤية

ومن جميل تصويره وصفه للطبيب في حالة الكي ، وعبّر بالموقدات واحدة موقدة أي نار موقدة عبر بها عن الحديدة آلة الكي : ـ

فواكبداً أمست رفاتاً كأنما يلذعها بالموقدات طبيب[5]

وقد ساهم في التصوير هنا التواجد الذي يكشف الحضور الشعوري في الصورة وكذلك يلذعها حيث تكرار الكوي وبتكراره يشتد الألم ، وأيضاً بجمعه (الموقدات) ليدل على قوة اشتعال النار .

---

(١) المرجع السابق ١ : ٣٧٩ .
(٢) المرجع السابق ١ : ٣٨٠ .
(٣) المرجع السابق ١ : ٣٨١ .
(٤) عروة بن حزام، الديوان ١٠ .
(٥) المرجع السابق ٣٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصورة : دلالاتها ووظائفها :

الحياة الواقعية للعاشق التي تفيض بتجارب ذاتية ، متأثرة بالعوامل الخارجية المحدقة به ، والمؤطرة لحياته ، أو فلنقل بالسلوكيات البشرية من حوله (وهو يرسم شرحاً مشهوداً تترآى فيه الحركة ، وتتجاوب فيه أصداء الصوت وتحس فيه بنبرة الحس) .

فمن الواقعية محادثته لصحبه وكأنّهما لما رأيا تهالكه وخوار عزيمته والاضطراب النفسي الذي يعتريه خشيا غربتهما ، واستطالا رحلتهما فعزما على مواصلة رحلة العودة ومكان المسرح صنعاء التي وصلوا إليها بعد سفر طويل :

خليلي من عليا هلال بن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

وأنت معي في رسم كيفية المناداة ذات الصوت الشجي الحزين الذي يستحث رفيقيه لمّا خشي فراقهما فهما قد ذهبا عنه وأدرك انفراده وعدم قدرته فالصورة تدل على حالة من الاختلاف مع صحبه ومعاناته النفسية الشديدة والشعور بالغربة بذكر صنعاء . ووظيفة الصور تبيان الحالة الشعورية الذاتية ، وحسية المناداة بالصوت ، وتباعد المسافة بينهما ، فهو يرفع عقيرته بصوته الشجي ليسمعهما .

* ومن التصوير المستمر من واقع اللحظة التجريبية الزمنية قوله :

أفي كل يوم أنت رام بلادها بعينين إنساناهما غرقان

فالصورة تتكون من عاشق يستشرف من شاهق إلى جيبته ، أو هو يستشرف إليها من ظهر ناقته .

* ونفس محروقة بنار الشوق تنزف تلهفاً وتشوقاً حتى تولدت الصورة الداخلية بصورة حسية أيضاً فهي المتمثلة في العينين الذي علا سطحهما الدموع محجباً جانباً من الرؤية أو كأن الدموع كوّنا ضباباً كثيفاً حجب الرؤية ، ويشاكل تلك الحالة الشعورية الداخلية والعقلية التي تضاءلت خلف الهوى ، والعاطفة تلك التي أوحت بها جملة (العينان إنساناهما غرقان) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويرسم رسماً مباشراً لوحة لناقته الضخمة التي تسير بالوخدان وهو نوع من السير وهي أشبه ما تكون باللوحات التصويرية التي ترسم فيها الإبل وهي تخب في صحراء واسعة مترامية الأطراف وكأن الناقة وصاحبها وركائب صاحبه التي تنبض بالحياة من هذا المشهد .

على جسرة الأصلاب ناحية السرى تقطع عرض البيد بالوخدان

وهو يصور لنا حالة كثيرة التكرر في عالم البشر فكم من سقيم قد أخناه المرض ، أو أنهكه التعب ، فيُكسى حللاً جميلة لكن تلك لا تخفي الشحوب والندوب والصفرة التي تكسو الوجه .

غركما مني قميص لبسته جديد وبردا يمنة زهياني

وكأنه يريد أن يخبر العالم من حوله بحالته تلك حتى أولئك الذين لا يدققون النظر وتغرهم المظاهر البراقة فيجعل من المتلقي كأنه طبيب ينظر إليه بنظرة خارجية ، وأخرى بعد تعريته من تلك الملابس الزاهية فيراه وقد نحل وقلّ لحمه ، ودق عظمه وتُرى نبضات القلب من خلف الأضلاع بل ويسمع حسيسها .

متى ترفعا عني القميص تبينا بي الضّر من عفراء يا فتيان
وتعترفا لحماً قليلاً وأعظُماً دقاقاً وقلباً دائم الخفقان

وهنا دلالة توحى بها لفظة (الخفقان) فالقلب يكون هادىء فيشتد ويضطرب في حالة الإثارة من الخارج أمّا قلبه فـ (دائم الخفقان) مما يدل على حضور عفراء لأن قلبه يحتويها دائماً مما يجعله مشدوداً مضطرباً .

وهو يرسم لنا لوحة مكونة من هيكل عظمي يكسوه لحماً قليلاً يدعو إلى التأسي والشفقة والرحمة وكأننا أمام عرض تلفازي لأحد الذين أصيبوا بالمجاعة كالتي تعرضه سنابل الخير تلك الجمعية التي تعنى بأمر المسلمين وتعين المنكوبين ومن يبتلون بالمجاعات .

وهو لا يكتفي بالعرض الخارجي لذاته وإنما يسبر لنا أغوارها الداخلية فالحرقة في الكبد نتألم منها ولا نراها وما أجمل ربط التأثير الداخلي متبلوراً بمظهر خارجي وهو انسكاب الدمع .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على كبدي من حبّ عفراء قرحة وعيناي من وجد بهما تكفان

فالصورة رغم مباشرتها تكثف لنا المضمون بالدلالة فتدفعنا إلى مشاركة الشاعر والتأثر بحالته مع تباعد الزمن واختلاف الفلسفة الفكرية بيننا وبين أولئك العاشقين .

ونتيجة لهذه الشفقة يعطينا النتيجة في صورة ذهنية فالذين تأثروا بمنظره يدعون له وهو أيضاً لا يريد أن يُبتلى ببلواه أحد من بعده ، والدعوة تكون له بالإلتقاء والمحادثة ففيهما الهناء والراحة بعد تلك المعاناة :

فيا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة ويرعاهما ربي فلا يُريان

وهو يذهب لابن عمه في صنعاء ويؤوب بمائة من الإبل ، ولكنها تختفي في قصيدته كما اختفى العالم أجمع من ذاكرته ولا يعي إلا بما يدور حول ذاته أو يكون سبيلاً إلى بلوغه عفراء . فلما يكرُّ راجعاً من صنعاء يرسم لنا صورة شعورية داخلية له ولناقته والحديث عن أحاسيس الفرس أو الناقة أمر غير معهود في الشعر الجمالية . فهو يمتطي ناقة يمنية تحن إلى موطنها وأترابها فتلوي عنقها إلى الخلف بينما هو يجد في سيره ويحث مطيته إلى ما يهوى وهو لها عاذر فهدف ناقته غير هدفه وهذه رقة شعورية تنبىء عن إحساس مرهف للشاعر فلما تتباطىء الناقة ويضعف سيرها لا يوقع اللوم عليها إدراكاً لأحاسيسها .

هوى ناقتي خلفي ، وقدامي الهوى وإني وإياهما لمختلفاني
هواي أمامي وليس خلفي معرج وشوق قلوصي في الغدو يماني
هواي عراقي وتثني زمامها لبرق إذا لاح بالنجوم يماني

ويستوقفني هذا البيت الذي قد يرسم الصراع مع ناقته فهي تلح على الانحراف إلى الخلف حيث اليمن وهو يشد زمامها لتتجه إلى الأمام ويرسم لوحة في الأفق تتجاوب الناقة معها فالبرق يثيرها ويذكرها لما يلمع من ناحية اليمن فلا تكاد تمتلك ذاتها حتى تنثني إليه .

ولنستكمل الصورة التي أشرت إليها : ـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

متى تجمعي شوقي وشوقك تضلعي ومالك بالعبء الثقيل يدان
يقول لي الأصحاب، إذ يعذلوني أشوق عراقي، وأنت يمان
وليس يمان للعراق بصاحب عسى في صروف الدهر يلتقيان

وهل يريد بالعراق الجهة الشمالية المخالفة للاتجاه اليمني وليس إقليم العراق المخصوص أو يريد تعميمه على الجهة مشاكلة لتصبح اليماني على الجهة اليمانية أو هو يريد مكان يسمى العراق معروفاً بهذا الإسم حتى الآن قريباً من موطن عفراء في ضواحي تبوك .

والشاعر يكثر من ذكر خفقان القلب ليدلك على ديمومة المعاناة وحضورها الدائم ، واستحوذها عليها دونما سواها ويصور خفقان قلبه باهتزاز جناحي الطائر ينقبض وينبسط فهو يشبهه بالقطاة تارة وبالغراب تارة أخرى في بيتين متباعدين في ترتيب القصيدة فأولهما :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

وثانيهما :

وقد تركت عفراء قلبي كأنه جناح غراب دائم الخفقان

والصورة في البيت الأول توحي بمعاناة الطائر الذي حُجز أحد جناحيه فهو دائم الضرب بجناحه الآخر لعله يفك أسره ، وهي صورة محسوسة توضح وتبين لنا كيفية خفقان القلب الذي حجب عنّاء في القفص الصدري وهي صورة رائعة مستمدة من الواقع المشاهد أمامه وربما استمدها من عبثه الطفولي مع الطيور حيث يقبض الطفل عليه ويتمتع بخفقانه وهو ممسك أحد جناحيه .

ما ذكرته هو مضمون الصورة كما نتوقع غير أن ألفاظ الصورة تخالف ما نريد ويريد الشاعر وذلك لأنه ذكر (الكبد) التي لا تخفق ولا تضطرب فهل يريد بها القلب أو يريد التجويف الصدري الذي يحوي الكبد والقلب وعبّر بجزء منه ؟

أم يريد أن يصور تأثر الكبد بضرب الجناح عليها فهي أكثر حساسية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وربما نستغرب التصوير في بيته الثاني حيث يشبه قلبه بجناح الغراب لكن تنجلي الدهشة حين يتجلى المدلول فالغراب معلم من معالم البين والفراق عند العرب فهو يرمز إلى فراقه الدائم لعفراء ، ولون الغراب الأسود يماثل حياة الشاعر المظلمة .

* ويظهر التصوير الرائع الواقعي لمعتل يتغشاه الإغماء ويركب ناقته الضعيفة في :

معي صاحبا صدق إذا ملت ميلة وكانا يدفي نضوتي عدلاني

فصاحباه يسيران بجانبه فكلما أدركه الإغماء تبادرا إلى حمايته من السقوط كل منهما من جانب فكأنهما يتعدلان على جانبي الناقة ، فالمشهد حركي شعوري يعتريه الفزع من صاحبيه خشية عليه من السقوط وخشية من فواته بالموت .

والصورة تدل على أن ناقته تشاكله في الهزال والضعف وذلك يوحي بكثرة أسفاره بحثاً عن العلاج حتى أنهك مطيته ، ويوحى بفقر الشاعر أيضاً فلا قدرة له إلا على ذلك البعير الهزيل وربما يرفد هذا الإيحاء أن صاحبيه من أسرته فقراء أيضاً . أو أن سيرهما بجانبه خشية عليه أو أنها توحي بتلك الدلائل جميعاً .

* وهو يصور بيت الشعر برواقيه الأمامي والخلفي أو من جانبيه وقد تقادم بهما العهد وتهلهلا بتساقط أجزاء منهما ، وقد فتكت بهما حشرات الأرض من طول المكث وفقدان الرعاية والترفيع وإن الرياح تخفقن بهما فلا تثبيت لهما :

فوالله لولا حب عفراء ما التقى علي رواقا بيتك الخلقان
خليقان هلهلا لأن لا خير فيهما قبيحان يجري فيهما اليرقان
رواقا خفقان لا خير فيهما إذا هبت الأرواح يصطفقان

والصور فيها دلالة على هجاء زوجة عمه فالمرأة عند العرب معنية بإصلاح بيته ونسج أجزاءه وتجديدها بالتعهد الدائم وكونهما خلقان يدل على إهمالها وعدم إصلاحها وأيضاً فالمرأة في البادية معنية بمتابعة أركان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بيتها وترقيعه وتنظيمه وتثبيته وقت الرياح ، فإذا افتقد البيت مثل هذا التعهد من صاحبته فمصيره الاندثار والتمزق فتلام صاحبته .

* وهو يرسم صورة عفراء قبل أن تشتد بنيتها ويكتمل عودها في المرحلة التي نسميها بالمراهقة حيث تبدأ الفتاة بالتأنق على جسم نحيل نحيف فيظهر الوشاح وقد تدلت جوانبه وبانت عدم لياقته على الجسم فهو رخو يضطرب :

لعفراء إذ في الدهر والناس غرة ... وإذ خُلقُانا بالصِّبا يسران
لأدنو من بيضاء خفاقة الحشا ... بُنية ذي قاذورة شنآن
كأن وشحيها إذا ما ارتدتهما ... وقامت عنانا مهره سلسان
يعضّ بأبدانٍ لهما ملتقاهما ... ومتناهما رخوان يضطربان

والصورة تدل على أنهما يلتقيان قبل البلوغ في بيت واحد لأن أباها تعهد عروة بالتربية ، ثم حُجبت عنه بعد البلوغ فالصورة العالقة بذهنه تمثل المرحلة الأولى للفتاة قبل الاحتجاب .

والصورة تمثل العتمة عند الفتاة أي لم تجلوها في صورة جميلة وهذا شأنه في جميع صوره فهو يصور نفسه بالذبول وينفض عنه الزينة الزائفة كما أسلفت من قبل وهو يصور دابته بالنضو أي الضعف ، ويرسم لوحة سيئة لبيت الشعر لعمه وهذا يشير إلى الظلمة العميقة في نفسية عروة فمن ظلالها يرى المساوىء وتصور أيضاً نظرته للحياة التي يئس منها فلا يرى لها حسنات .

وهو لا يقتصر على التصوير المحسوس بل يلج في أعماق ذاته فيبلورها لنا فالرعدة الجسمية نتيجة الهزات الشعورية وليس هذا فحسب بل يصور أمر تلك الصدمة الشعورية في جسمه كأنها دبيب النمل فهي ما نسمي بالنمنمة الجسمية التي تعتري الإنسان :

وإني لتعروني لذكراك رعدة ... لها بين جسمي والعظام دبيب[1]

(١) عروة بن حزام ، الديوان ٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأيضاً فإن المفاجأة في الأمور العظيمة يؤدي إلى الفزعة التي تكون في الأقدام وفي المعدة أحياناً وفي القلب أحياناً أخرى والأخيرة تؤدي إلى التلعثم وعدم القدرة على الكلام فرؤية عفراء أمر عظيم يبهت الشاعر ولا يكاد يجيب : ـ

وما هو إلا أن أراها فجأة فأبهت حتى ما أكاد أجيب[1]

والفزعة أثرها لا يكون ظاهرياً في النطق فحسب وإنما يتواصل مع التكوين العقلي له فينسى واقعه وما كان يعمله أو يفكر فيه من أمر

وأصرف عن رأيي الذي كنت أرتأي وأنس الذي حدثت ثم تغيب[2]

موسيقى الشعر : ـ

شعر شاعرنا يدور في فلك الغزل ، ما دام أنه في الوجدانيات نتوقع أن تتداعى إليه الأوزان المطربة القصيرة أو المجزوءة ، أو المشطورة ، غير أننا نصطدم بالواقع الذي يخالف ما درج عليه الشعراء وما يتناسب مع الذوق الفني العام للغزل ، فهو اختار البحر الطويل لجل شعره ، وإن دار شعره في الغزل فلأنه لم يقصد التطريب والاستمالة والتأثير على نفس العاشق وإنما بلورة أحزانه والكشف عنها وبثها وإظهار الغائر الكامن في أعماقه ، وذلك يستدعي منه ، أدوات لغوية كثيفة وكثيرة كيما يجلوها للملأ ، فاستنجد الشاعر بأوزان البحر الطويل لكثرة تفاعيله وعدد حروفه واستيعابه لألفاظ كثيرة وتراكيب متعددة .

أما القافية لمطولته الوجدانية ، فقد انبعثت من فيضانات الحزن والأسى ولم تكن اختياراً عقلياً ، من الشاعر ولا تأملياً أيضاً وإنما هي وليدة الجروح والكلوم النفسية ، لذا استعان بالردف وهو التزام الألف قبل حرف الروي ، ثم اختياره حرف النون التي تناسب الران على القلب شكلاً وأداء ومضموناً ، وليس هذا فحسب فدعمها بالإشباع للكسرة وكثيراً ما يعوض

---

(١) المرجع السابق ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عنها الياء أو نقول : إنها نائبة عن الياء ويجدر أن ننوّه بالفتح التي تسبق ألف الاثنين فلها في ميزان المد مكانة والامتداد النفسي لهذه القافية يتناسب مع الأثنين ومد النفس المصاحب له ويتلوّن كثيراً بالشكوى وإظهار الجزع والتبرم بالواقع الأليم .

والشاعر يلوّن ألفاظه وتراكيبه بما يتناسب مع الأنين ، فنجد أن الألف والهمزة والفتح وعلامة التثنية تتخلل ألفاظه وتراكيبه داخل البيت ولم يجعل ذلك حصراً على القافية يقول :

ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر البلقاء ثم دعاني

ويقول :

بمن لـو أراه عانياً لفـديتـه ومن لـو رآني عانيـاً لفداني

وقصيدته البائية تنتهج نهج نونيته في الوزن فهي على بحر الطويل كي يتاح له أن ينفث ما في روعه واختار لها قافية تتكون من الالتزام قبل الروي بالمد الياء أو الواو واختار لرويه الباء الذي يستدعي امتلاء الفم من الأعماق وينفثه بقوة مما يسهم في تجسيد الأنين والتألم والتبرم فكأنه يتأوه :

وأني لتعروني لذكراك روعة لها بين جلدي والعظام دبيب
فما هو إلا أن رآهـا فجاءة فأبهت حتى ما أكـادُ أجيب

(١) ويجدر أن ننوه بالفتح التي تسبق ألف الاثنين فلها في ميزان المد مكانة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدراسة الفنية للنونية

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النونية

١ ـ خليليَّ من عُلْيا هلالِ بنِ عامرٍ
بصَنْعاءَ عُوجاً اليَوْمَ وانتظِراني[١]

٢ ـ ألَمْ تَحْلِفا باللَّهِ إني أخوكما
فلم تَفْعَلا ما يَفْعَلُ الأخَوانِ[٢]

٣ ـ وَلَمْ تَحْلِفا باللَّهِ أنْ قد عَرَفْتُما
بذي الشِّيحِ[٣] رَبْعاً، ثُمَّ لا تَقِفانِ[٤]

٤ ـ ولا تَزْهدا في الذُّخْرِ[٥] عِنْدي واجْمِلا
فإنكما بي اليَوْمَ مُبْتَلِيانِ

٥ ـ ألَمْ تَعْلَما أنْ ليس بالمَرْخِ كُلِّهِ

---

(١) كذا في الأصل ، وفي النوادر لأبي علي القالي ص ١٥٨ (الطبعة الثانية دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٦ م) ، وفي الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧١ (طبعة دار الفكر ببيروت ١٩٥٦ م) ، وفي تزيين الأسواق للأنطاكي (طبعة بولاق) ج ١ ص ٧٦ ، اما في فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي ج ٢ ص ٧٣ (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد سنة ١٩٥١ بمصر) : (بعفراء عوجا) ويروى : أغذا السير لا تذراني (المخطوطة) . وهلال : قبيلة .

(٢) لم يرد هذا البيت في النوادر والأغاني وفوات الوفيات وتزيين الأوسواق .

(٣) ويروى : بذي السفح (المخطوطة) .

(٤) لم يرد البيت في النوادر.

(٥) كذا في الأصل ، وفي الأغاني ، أما في فوات الوفيات والنوادر: ولا تزهدا في الأجر .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أخٌ وصديقٌ صالحٌ فَذَراني[1]

٦ - أفي كُلِّ يَوْمٍ أنْتَ رامٍ بلادَها

بعينينِ إنساناهُما غَرِقانِ[2]

٧ - ألا فَاحْمِلاني بارَكَ اللَّهُ فيكما

إلى حاضِرِ الرَّوْحاء[3] ثم ذَراني[4]

٨ - على جَسْرَةِ الأصْلابِ ناجيةِ السُّرى

تُقَطِّعُ عَرْضَ البيدِ[5] بالوَخَدانِ

٩ - إذا جُبْنَ مَوْماةً عَرَضْنَ لِمِثْلِها

جَنادِبُها صَرْعى مِنَ الوَخَدانِ[6]

١٠ - ولا تَعْذلاني في الغَواني فإنني

---

(١) كذا في الأصل وفي النوادر ، أما في الأغاني وفوات الوفيات فلم يرد البيت .

(٢) كذا في الأصل والنوادر، والأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٧ ، ومصارع العشاق لأحمد بن الحسين السراج ج ١ ص ٢٨٠ . وقد نسب هذا البيت إلى ابن الدمينة (أنظر ديوان ابن الدمينة تحقيق أحمد راتب النفاخ) ص ٣١ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) كذا في الأصل والنوادر ومصارع العشاق ، أما في تزيين الأسواق لأبي داود الأنطاكي ج ١ ص ٧٦ : إلى حاضر البلقاء وذكر السراج في مكان آخر من مصارع العشاق هذه الرواية : انظر ج ١ ص ٤٦٦ .

(٤) كذا في الأصل ومصارع العشاق ، أما في الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٨ والنوادر : ثم دعاني . وقد جاء هذا البيت في ديوان ابن الدمينة ص ٢٨ كما يأتي :

ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر القرعاء ثم دعاني

الروحاء: قرية على ليلتين من المدينة بينهما واحد وأربعون ميلاً (هامش ديوان ابن الدمينة ص ٢٨).

(٥) كذا في النوادر ، أما في الأصل : تقطع عرض الأرض .

ويروى : على أجد الأصلاب لاحقة الكلى تقطع منها البيد بالوخدان ويروى : على نحل الأعضاد لاحقة الكلى . ناقة جسرة : طويلة ضخمة ، والوخدان : ضرب من السير .

(٦) لم يرد هذا البيت في النوادر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أرَى في الغواني غَيْرَ ما تَرَيانِ[1]

١١ - ألمّا على عَفْراءَ إنَّكُما غَدَاً

بِشَحْطِ النَّوى[2] والبَيْنِ مُغْتَرِفانِ

١٢ - فيا واشِيَيْ عَفْرا دَعاني ونَظْرَةً

تَقَرُّ بها عيناي ثُمَّ دَعاني[3]

١٣ - أغَرَّكُما لا بارَكَ اللَّهُ فيكما[4]

قَميصٌ وبُرْدا يَمْنَةٍ زَهَوانِ[5]

١٤ - متى تَكْشِفا[6] عني القَميصَ تَبَيَّنا

بيَ الضُّرَّ[7] مِنْ عَفْراء يا فَتَيانِ

١٥ - وتَعْتَرِفا لَحْماً قليلاً وأعْظُماً

دِقاقاً[8] وقَلْباً دائِمَ الخَفَقانِ[9]

١٦ - على كَبِدي من حُبِّ عَفْراءَ قَرْحَةٌ

وعَيْناي من وَجْدٍ[10] بها تَكِفانِ

---

(١) لم يرد هذا البيت في النوادر والأغاني وفوات الوفيات .

(٢) كذا في الأصل والنوادر، اما في الأغاني وفوات الوفيات : بوشك النوى .

(٣) كذا في الأصل ، اما في النوادر : ثم كلاني. وفي الأغاني وفوات الوفيات :

فيا واشيي عفراء ويحكما بمن ومن وإلى من جئتما تشيان

(٤) ويروى:

أغركما مني قميص لبسته جديد وثوباً يمنة زهوان

(المخطوطة) . ويروى : يمنة خلقان .

(٥) كذا في الأصل ، أما في النوادر:

أغركما مني قميص لبسته جديد وبردا يمنة زهيان

(٦) كذا في الأصل ، وفي الأغاني ، أما في النوادر: متى ترفعا.

(٧) كذا في الأصل وفي الأغاني وفي النوادر ، اما في فوات الوفيات : بي السقم.

(٨) كذا في الأصل ، اما في النوادر : رقاقاً.

(٩) يروى : رقاقاً وقلباً دائب الرجفان (المخطوطة) .

(١٠) كذا في الأصل والنوادر ، أما في تزيين الأسواق من وجدي .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٧ ـ فَعَفْـراءُ أرْجـا[١] النـاسِ عنـدي مَـوَدَّةً
وَعَـفْـراءُ عـني[٢] المُـعْـرِضُ المُـتـواني[٣]

١٨ ـ فيـا لَيْـتَ كُـلَّ اثنينِ بينهمـا هَـوىً
مـن النـاسِ والأنـعـامِ يَـلْـتَـقـيـانِ

١٩ ـ فيقضي مُحِبٌّ[٤] من حبيبٍ لُبانـةً
ويَـرْعـاهـمـا[٥] ربـي فـلا يُـريـانِ

٢٠ ـ هَـوَى نـاقتي خَـلْفي وقُـدّامي الهَـوَى
وأنـي وإيـاهـا لـمُـخْـتَـلِـفـانِ[٦]

٢١ ـ هَـوايَ عِـراقـيٌّ وتـثـنـي زِمـامَـهـا
لـبـرقٍ إذا لاحَ الـنـجـومُ يـمـانِ

٢٢ ـ هـوايَ أمـامـي لـيس خَـلْفي مُـعَـرَّجٌ

---

(١) كذا في الأصل والنوادر وتزيين الأسواق ، أما في الأغاني ٢٠/٣٧٥ : فعفراء أحظى .

(٢) كذا في الأصل والنوادر ، أما في تزيين الأسواق : مني .

(٣) قال أبو بكر : قال بعض البصريين : ذكر المعرض ؛ لأنه أراد : وعفراء عني مثل المعرض . وقال الكوفيون : ذكره بناء على التشبيه ، أراد : وعفراء عني مثل المعرض ، كما تقول العرب : عبد الله الشمس منيرة ، يريدون : مثل الشمس في حالة إنارتها (النوادر ص ١٥٨) .

(٤) كذا في الأصل ، أما في النوادر وتزيين الأسواق : حبيب من حبيب .

(٥) كذا في الأصل والنوادر، ويروى: ويخفيهما. (المخطوطة) .

(٦) ذكر المبرد في كتابه (الكامل في اللغة والأدب) ج ١ ص ٣١ (طبعة الدكتور زكي مبارك الأولى ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م) ، هذا البيت ضمن أبيات نسبها لأعرابي من بني كلاب . قال المبرد : (ومما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب :

فمن يك لم يعرض فإني وناقتي ... بحجر إلى أهل الحمى غرضان
هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى ... وإني وإياها لمختلفان
تحن فتبدي ما بها من صبابة ... وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني
فيا كبدينا اجملا قد وجدتما ... بأهل الحمى ما لم يجد كبدان
إذا كبدانا خافتا وشك نية ... وعاجل بين ظلتا تجبان

وقد وضع الناشر البيت (هوى ناقتي . . .) بين قوسين .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وشَوْقٌ قَلوصي في الغُدُوِّ يَمانِ

٢٣ - متى تَجمعي[١] شوقي وشوقكِ تُفدحي[٢]

ومالَكِ بالعِبءِ الثَّقيلِ يَدانِ

٢٤ - فيا كَبدينا مِنْ مخافَةِ لَوْعَةِ الـ

ـفِراقِ، ومن صَرْفِ النَّوى تَجِفَانِ

٢٥ - وإذْ نحنُ منْ أنْ تشحطَ الدارُ غُرْبَةً

وإنْ شُقَّ للبينِ العَصا وَجِلانِ

٢٦ - يَقولُ ليَ الأصْحابُ إذْ يعذُلُونَني

أشَوْقٌ عِراقِيٌّ وأنْتَ يَمانِ

٢٧ - وَلَيْسَ يَمانٍ للعراقيْ[٣] بصاحِبٍ

عسى في صُرُوفِ الدَّهْرِ يَلْتَقيانِ

٢٨ - تَحَمَّلْتُ[٤] من عَفْراءَ ما ليسَ لي بِهِ

ولا للجبالِ الرَّاسِياتِ يَدَانِ

٢٩ - فيا ربِّ أنْتَ المُستعانُ على الذي

تَحَمَّلْتُ من عَفْراءَ مُنْذُ زَمانِ[٥]

٣٠ - كأنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بجناحِها

على كَبِدي من شِدَّةِ الخَفَقانِ

٣١ - جَعَلْتُ لعَرّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ

وعرّافِ حَجْرٍ[٦] إنْ هما شَفَياني

---

(١) كذا في الأصل ، ويروى : فإن تحملي (المخطوطة) .

(٢) كذا في الأصل ، أما في النوادر وتزيين الأسواق : تظلعي .

(٣) كذا في الأصل ، أما في النوادر : للعراق . ويروى: للعراقي صاحباً (المخطوطة) .

(٤) كذا في الأصل ، وفي تزيين الأسواق . ويروى : أكلف من عفراء (المخطوطة) .

(٥) هذا البيت لم يذكر في المخطوطة ولا في النوادر وقد ذكر في الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٢ ، وفي تزيين الأسواق ج ١ ص ٧٦ وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٤ .

(٦) كذا في الأصل وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٩٦ (ط ليدن ١٩٠٢ م) ، وخزانة =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣٢ ـ فقالا: نَعَمْ تَشْفي من الدَّاءِ كُلِّهِ
وقاما مع العُوَّاد يَبْتَدِرانِ[١]

٣٣ ـ نَعَمْ، وبلى، قالا: متى كنت هكذا
ليستخبراني. قُلْتُ: مُنْذُ زَمانِ[٢]

٣٤ ـ فما تَركا من رُقْيَةٍ[٣] يَعْلَمانها
ولا شربةٍ[٤]، إلاّ وَقَدْ سَقَياني[٥]

٣٥ ـ فما شَفَيا[٦] الدَّاءَ الذي بي كُلَّهُ
وما ذَخرا نُصْحاً، ولا ألْوَاني[٧]

٣٦ ـ فقالا[٨]: شَفاكَ اللّهُ، والله مالَنا

= الأدب للبغدادي ج ١ ص ٥٣٥ ، أما في النوادر ص ١٥٧ وتزيين الأسواق ٧٦/١ وفوات الوفيات ٧٣/٢: وعراف نجد .

(١) كذا في الأصل وفي النوادر ، أما في الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٢ وفوات الوفيات ج ٢ ص ٧٣.
ورشا على وجهي من الماء ساعة وقاما مع العواد يبتدراني
ويروى:
فقالا: نعم نشفيك من كل ما نرى وجاءا مع الإشراق يبتدران

(٢) لم يرد هذا البيت في المخطوطة ولا في النوادر ، وقد ورد في تزيين الأسواق .

(٣) كذا في الأصل وفي الشعر والشعراء ٣٩٦ . وفي النوادر ، أما في فوات الوفيات وخزانة الأدب . من حيلة يعملانها .

(٤) كذا في فوات الوفيات والأغاني ، أما في الأصل والشعر والشعراء والنوادر وتزيين الأسواق : وخزانة الأدب : ولا سلوة . ولعل (شربة) أليق هنا لورود (سقياني) بعدها .

(٥) كذا في الأصل والنوادر وفي الشعر والشعراء ، ألا بها سقياني ، ويروى : الا بها رقياني (المخطوطة) .

(٦) كذا في الأصل ، أما في النوادر : وما شفيا.

(٧) ولا ألواني : وما قصرا في أمري .

(٨) كذا في الأصل وفي الشعر والشعراء وفي النوادر وفوات الوفيات ، أما في الأغاني : وقالا .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بـمـا ضَـمّـنَـتْ[1] مِـنْـكَ الـضُّـلـوعُ يَـدانِ

٣٧ ـ فَـرُحْـتُ من الـعَـرّافِ[2] تَسْقُطَ عـمَّـتي
عـن الـرَّأسِ مـا أَلْـتـاثُـهـا بـبـنَـانِ[3]

٣٨ ـ مَـعي صـاحِـبـا صِـدْقٍ إذا مِـلْـتُ مَـيْـلَةً
وكـان بـدَفـيّ نِـضْـوَتـي[4] عَـدلانـي

٣٩ ـ فـيـا عمِّ يـاذا الـغَـدْرِ لا زِلْـت مُـبْـتَـلىً
خَـلـيـفـاً لِـهَـمٍّ لازمٍ وهـوانِ

٤٠ ـ غَـدَرْتَ وكـان الـغَـدْرُ مـنـكَ سَـجِـيـةً
فـألْـزَمْـتَ قـلـبـي دائـمَ الـخَـفَـقـانِ

٤١ ـ وأورثْـتَـنـي غَـمـاً وكَـرْبـاً وحَـسْـرَةً
وأوْرَثْـتَ عَـيـنـي دائِـمَ الـهَـمَـلانِ

٤٢ ـ فـلا زِلْـتَ ذا شَـوْقٍ إلى من هَـويـتَـهُ
وقـلـبُـكَ مَـقْـسـومٌ بِـكُـلِّ مـكـانِ

٤٣ ـ وإنـي لأَهْـوَى الـحَـشْـرَ إذ قـيـلَ إنـنـي
وعـفـراءَ يَـوْمَ الـحَـشْـرِ مُـلْـتَـقـيـانِ

٤٤ ـ وإنّـا عـلى مـا يَـزْعُـمُ الـنّـاسُ بَـيْـنَـنـا
مـن الـحُـبِّ يـا عَـفْـرا لَـمُـهْـتَـجِـران[5]

٤٥ ـ ألا يـا غُـرابَـيْ دِمْـنَـةِ الـدّارِ بَـيِّـنـا

---

(١) كذا في الأصل وفي الأغاني أما في الشعر والشعراء : بما حملت ، ولكن القالي ذكر هذه الكلمة بشكلين ، فمرة يرويها (بما حملت) ، ص ١٥٧ ، ومرة يرويها (بما ضمنت) النوادر ص ١٥٩ .

(٢) كذا في النوادر والأغاني ، أما في الأصل : مع العراف . ويروى : على العراف (المخطوطة) .

(٣) لاث الشيء لوثاً : أداره مرتين كما تدار العمامة والإزار ، ولاث العمامة على رأسه يلوثها لوثاً أي عصباً . (اللسان) .

(٤) نضوتي : ناقتي . جاء في اللسان : والدابة تنضو الدواب إذا خرجت من بينها .

(٥) لم يرد هذا البيت في النوادر .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبا لصرْمٍ[1] من عَفْراءَ تَنْتَجِبانِ[2]

٤٦ ـ تَحَدَّثَ أصْحابي حَديثاً سَمِعْتُهُ
ضُحَيًّا وأعْناقُ المَطيِّ ثَوانِ[3]

٤٧ ـ فَقُلْتُ لهم: كَلَّا، وقالوا جماعَةً
بَلى، والذي يُدْعى بِكُلِّ مكانِ[4]

٤٨ ـ ألا أيُّها العَرَّافُ هل أنْتَ بائعي
مكانَكَ يَوْماً واحِداً بمكاني[5]

٤٩ ـ ألَسْتَ تَراني، لا رَأَيْتَ، وامْسَكَتْ
بِسَمْعِكَ رَوْعاتٌ من الحَدَثانِ[6]

٥٠ ـ فإنْ كان حَقًّا ما تَقولانِ فاذْهَبا
بلحمي إلى وكْرَيْكُما فكُلاني[7]

٥١ ـ إذَنْ تَحْمِلا لَحْماً قليلاً وأعظماً
دقاقاً وقَلْباً دائِمَ الخَفَقانِ[8]

---

(١) كذا في الأصل ، أما في النوادر : أبا الهجر .

(٢) كذا في النوادر ، أما في الأصل : تنتجيان . وجاء في المخطوطة (ويروى : تنتحبان) وفي الشعر والشعراء (٣٩٦) :

أيا با غرابي دمنة الدار خبرا أبا لبين من عفراء تنتحبان

(٣) لم يرد هذا البيت في النوادر .

(٤) لم يرد هذا البيت في النوادر .

(٥) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٦) لم يرد في النوادر.

(٧) كذا في الأصل ، أما في الشعر والشعراء لابن قتيبة :

فإن كان حقاً ما تقولان فانهضا بلحمي إلى وكريكما فكلاني

ينبغي أن يكون هذا البيت بعد البيت :

ألا يا غرابي دمنة الدار بينا أبا لصرم من عفراء تنتحبان

(٨) كذا في الأصل ، أما في النوادر:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥٢ ـ كُـلانِي أكْـلاً لـم يَـرَ الـنـاسُ مِثْـلَهُ
ولا تَـهْـضِـمـا جـنـبـيَّ، وازْدَرِدَانـي

٥٣ ـ ولا يَـعْلَمَنَّ الـنـاسُ مـا كـانَ ميتَتي
ولا يَـطْـمَـعَـنَّ الـطَّيْـرُ مـا تَـذَرَانِ[1]

٥٤ ـ أنـاسِـيَـةٌ عَـفْـرَاءُ ذِكْـرِي بَـعْـدَ مـا
تَـرَكْـتُ لـهـا ذِكْـراً بِـكُـلِّ مَـكـانِ

٥٥ ـ ألا لَـعَـنَ الـلّهُ الـوُشـاةَ وقَـوْلَـهُـمْ
فُـلانَـةُ أمْـسَـتْ خُـلَّةً[2] لِـفُـلانِ

٥٦ ـ فـوَيـحكـمـا يـا واشِـيَـيْ (أمِّ هـيـثـم)
فَـفِـيـمَ إلـى مَـنْ جِـئْـتُـمـا تَـشِـيـانِ[3]؟

٥٧ ـ ألا أيُّـهـا الـواشـي بِـعَـفْـراءَ عِـنْـدَنـا
عَـدِمْـتُـكَ مـن واشٍ، ألَـسْـتَ تَـرانـي[4]

٥٨ ـ ألَـسْـتَ تَـرى لـلـحُـبِّ كـيـفَ تَـخـلَّلَتْ
عـنـاجـيـجـه[5] جـسـمـي، وكـيـف[6] بـرانـي[7]

وتعـتـرفـا لحـمـاً قـلـيـلاً وأعـظـمـاً رقـاقـاً وقـلـبـاً دائـم الـخـفـقـان

(١) كذا في الأصل، أما في النوادر:
ولا يعلمن الـنـاس مـا كـان قصتي ولا يـأكـلـن الـطـيـر مـا تـذران

(٢) كذا في الأصل، أما في النوادر ص ١٦٠: أضحت. وقد كتب الناسخ هذه الكلمة على جانب البيت أيضاً.

(٣) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٤) لم يرد في النوادر.

(٥) جاء في اللسان: (عنج الشيء يعنجه: جذبه، وكل شيء تجذبه إليك فقد عنجته... والعناج: خيط أو سير يشد في أسفل الدلو ثم يشد في عروتها... والعنجوج: الرائع من الخيل وقيل الجواد، والجمع عناجيج... وأعنج الرجل: إذا اشتكى عناجه، والعناج وجع الصلب والمفاصل).

(٦) في الأصل: فكيف.

(٧) لم يرد هذا البيت في النوادر.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥٩ - إذا ما جَلَسْنا مَجْلِسا نَسْتَلِذُّهُ
تواشَوا بنا حتى أَمَلَّ مكاني
٦٠ - تَكَنَّفني الواشُونَ مِنْ كُلِّ جانبٍ
ولو كانَ واشٍ واحِد لكفاني[1]
٦١ - ولو كانَ واشٍ باليمامَة دارُهُ
وداري بأعلى (حَضْرَموت) أتاني[2]
٦٢ - فيا حَبَّذا مَنْ دُونَه تعذلونني[3]
ومَنَ حَلِيَتْ عَيني به ولِساني
٦٣ - ومن لو أراه في العدو أتيته
ومن لو رآني[4] في العدو أتاني
٦٤ - ومَنْ لو أراه صادياً لسقيتُه
ومَنْ لو يَراني صَاديا لَسَقاني
٦٥ - ومَنْ لو أراهُ عانياً لكفيتُهُ
ومَنْ لو يَراني عانياً لكفاني[5]
٦٦ - ومَنْ هابني في كُلِّ أمْرٍ وَهِبْتُهُ

---

(١) جاء في المخطوطة : (قال أبو رياش يروى هذا البيت لقيس بن ذريح ولمجنون بني عامر) . ولكن لم يرد هذا البيت في ديوان المجنون ط جلال الدين الحلي ولا في أخباره وأخبار قيس بن ذريح في كتاب الأغاني .

(٢) كذا في الأصل ، أما في النوادر:
ولو كان واشٍ باليمامة أرضه أحاذره من شؤمه لأتاني
وقد جاء في (المخطوطة) أيضاً : (وفي الأصل) :
ولو كان واشٍ باليمامة داره أحاذره من شؤمه لأتاني

(٣) كذا في الأصل ، أما في النوادر: يعذلوني .

(٤) كذا في الأصل ، أما في النوادر: يراني .

(٥) لم يرد هذا البيت والبيت الذي قبله في النوادر ، ويظهر عليهما التكلف والصنعة لمجيئهما على تركيب البيت الذي قبلهما وهو : (ومن لو أراه في العدو . . .) ، والبيت في الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧١ :
بمن لو أراه عانياً لفديته ومن لو رآني عانياً لفداني

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولـو كُـنْـتُ أمْـضـيْ مـن شَـبـاة سـنـانِ

٦٧ - يُـكَـلِّفـني عَـمـيَ ثـمـانـيـنَ بـكْـرَةً
ومـالـي يـا (عَـفْـراءُ) غَـيْـرَ ثَـمـانِ[١]

٦٨ - ثَـمـانٍ يُـقَـطِّعْـنَ الأَزِمَّـةَ بـالـبُـرى[٢]
ويَـقْـطَعْـنَ عَـرْضَ الـبـيـدِ بـالـوَخَـدانِ[٣]

٦٩ - فـيـا لـيـتَ عَـمِّـي يَـوْمَ فَـرَّقَ بـيـنـنـا
سُـقـى الـسَّـمَّ مَـمْـزوجَـاً بِـشَـبٍّ يَـمـان[٤]

٧٠ - بُـنَـيَّـةُ عَـمـي حـيـل بَـيـنـي وبَـيْـنَـهـا
وضـجٌّ[٥] لِـوَشْـكِ الـفُـرْقَـةِ الـصُّـردانِ[٦]

٧١ - فـيـا لـيـتَ مَـحْـيـانـا جَـمـيـعـاً ولـيـتـنـا
إذا نـحـنِ مُـتْـنـا ضَـمَّـنـا كـفَـنـانِ[٧]

٧٢ - ويـا لـيـتَ أنَّـا الـدَّهْـرَ في غَـيْـرِ ريـبـةٍ
بـعـيـرانِ[٨] نَـرْعَـى الـقَـفْـرَ مُـؤْتَـلِـفـانِ

٧٣ - يُـطَـرِّدُنـا الـرَّعـيـانُ عَـنْ كُـلِّ مَـنْـهَـلٍ
يَـقـولـون بـكْـرا عُـرَّةٍ جَـرِبـانِ[٩]

---

(١) كذا في الأصل ، أما في النوادر:
يكلفني عمي ثمانين ناقة وما لي والرحمن غير ثمان
والبكرة : الناقة الفتية.

(٢) البرة : الحلقة في أنف البعير ، والجمع : برى . (اللسان) .

(٣) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٤) لم يرد في النوادر.

(٥) كذا في الأصل ، أما في النوادر : وصاح.

(٦) الصرد : بضم الصاد وفتح الراء : طائر فوق العصفور (اللسان) .

(٧) كذا في الأصل والنوادر ، وفي رواية ثعلب : فياليتنا نحيا (المخطوطة) .

(٨) كذا في الأصل ، أما في النوادر وتزيين الأسواق ١/٧٦: خليان .

(٩) كذا في الأصل ، اما في النوادر:
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله وقالوا بعيراً عرة جربان =

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٧٤ - إذا نَحْنُ جِئْنا أنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنا
رَدى الدَّهْرِ دانَى بَيْنَنا قَرنانِ[1]

٧٥ - فواللهِ[2] ما حَدَّثْتُ سِرَّكِ صاحِباً
أخاً لي ولا فَاهَتْ به الشَّفَتانِ

٧٦ - سوى أنَّني قد قُلْتُ يَوْماً لصاحبي
ضُحىً، وقَلوصانا بنا تَجِدانِ

٧٧ - ضُحَيّاً وَمَتْنا جَنُوبٌ ضَعيفَةٌ
نَسيمٌ لرِيّاها، بنا خَفَقانِ

٧٨ - تَحَمَّلْتُ زَفْراتِ الضُّحَى فأطَقْتُها
ومالي بِزَفْراتِ العَشِيِّ يَدانِ

٧٩ - فيا عَمِّ لا أسقيتَ من ذي قَرابةٍ
بِلالاً فَقَدْ زَلَّتْ بِكَ القَدَمانِ

٨٠ - فأنْتَ ولَمْ يَنْفَعْكَ، فَرَّقْتَ بَيْنَنا
ونَحْنُ جَميعٌ شَعْبُنا مُتَدانِ[3]

٨١ - وَمَنَّيْتَني عَفْراء حتى رَجَوتُها[4]
وشاعَ الذي مَنَّيْتَ كُلَّ مكانِ

٨٢ - مُنَعَّمَةٌ لَمْ يَأْتِ بَيْنَ شبابِها
ولا عَهْدِها بالثَّدْيِ غيرُ ثمانِ[5]

٨٣ - نرى بُرَتَى[6] ست وستين وافِياً

= العرة: الجرب . والبكر : الفتي من الإبل .

(١) لم يرد هذا البيت في النوادر .

(٢) كذا في الأصل ، ويروى : فأقسم (المخطوطة) .

(٣) لم يرد هذا في البيت في النوادر .

(٤) كذا في الأصل وفي النوادر ، ويروى : أمنيتني عفراء ثم تركتني (المخطوطة) .

(٥) لم يرد هذا في البيت في النوادر .

(٦) البرت : بضم الباء وكسرها : الحاذق (اللسان) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تهابان ساقيها فتنفصمان[1]

٨٤ - فوالله لولا حُبُّ عَفْراءَ ما الشَقى
عليّ رواقا بيْتِكَ الخَلِقانِ

٨٥ - خُلَيْقانَ هَلْهالانِ لا خيرَ فيهما
إذا هبَّت الأرْواحُ يَصْطَفِقانِ[2]

٨٦ - رِواقانِ تَهْوِي الرِّيحُ فوق ذراهما
وبالليل يَسْري فيهما اليَرَقانِ[3]

٨٧ - وَلَمْ أتْبَعِ الأضْعانِ في رَوْنَقِ الضُحَى
ورَحْلِيْ على نَهَاضةِ الخَدَيانِ

٨٨ - ولا خَطَرَتْ عَنْسٌ بأغْبَرَ نازِحٍ
ولا ما نَحتْ عيناي في الهَمَلانِ[4]

٨٩ - كأنهما هَزْمانِ[5] مِنْ مُسْتَشِنَّةٍ[6]
يُسَدّانِ أحْياناً ويَنْفَجرانِ[7]

٩٠ - أرىٰ طائِرَيَّ الأوْلَيَيْنِ تَبدّلا
إليّ فما لي مِنْهُما بَدَلانِ[8]

---

(١) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٢) كذا في الأصل ، اما في النوادر:
رواقان هفافان لا خير فيهما قبيحان يجري فيهما اليرقان

(٣) كذا في الأصل ؛ اما في النوادر:
رواقان هفافان لا خير فيهما إذا هبت الأرواح يصطفقان
اليرقان : دود يكون في الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً .

(٤) لم يرد هذا البيت في النوادر . العنس : الناقة القوية ج عناس وعنوس . ما نحت العين : اتصلت دموعها ولم تنقطع.

(٥) الهزم : السحاب الرقيق ج هزوم.

(٦) استشنت القربة : خلقت .

(٧) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٨) لم يرد في النوادر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٩١ ـ أحصَّان من نحو الأسافل جُرِّدا
ألفَانِ من أعلاهما هَديانِ[١]

٩٢ ـ لِعَفْراءَ إذْ في الدَّهْرِ والناسِ غرةٌ
وإذ خُلُقانا بالصِبا يَسَرانِ

٩٣ ـ لأَدْنوَ[٢] من بَيْضاءَ خفَّاقَةِ الحَشَا
بُنَيةٍ ذي قاذورةٍ شَنآنِ

٩٤ ـ كأنَ وِشاحَيْها إذا ما أَرْتَدَتْهُما[٣]
وقامَتْ، عِنانا مُهْرَةٍ سَلِسانِ

٩٥ ـ يَعَضُّ[٤] بأبدانٍ لها مُلْتَقاهُما
وَمْتناهُما رِخْوانِ يَضْطَرِبانِ

٩٦ ـ وَتَحْتَهما حِقْفانِ قد ضربتهما
قِطارٌ من الجَوْزاء مُلْتَبِدانِ[٥]

٩٧ ـ أعفْراءُ كَمْ مِنْ زَفْرَةٍ قد أذَقْتِنِي
وحُزْنٍ أَلجَّ العَيْنِ بالهَمَلانِ[٦]

٩٨ ـ وَعْيناي ما أوْفَيتُ نَشْزاً فَتَنْظُرا
بماقَيْهِما الاّ هُما تكفانِ[٧]

---

(١) لم يرد في النوادر.

(٢) كذا في النوادر، أما في الأصل : لتدنو.

(٣) ويروى: إذا امتد خصرها (المخطوطة).

(٤) كذا في النوادر ، اما في الأصل يغص.

(٥) ويروى : ممتلئان . يعني من نوء الجوزاء . (المخطوطة) . والحقف : ما اعوج من الرمل واستطال.

(٦) كذا في النوادر ، أما في الأصل : في الهملان . ويروى : كم من عبرة أنت هجتها وهم ، ويروى : من مينة قد أمتني .

(٧) كذا في الأصل وفي الشعر والشعراء ٣٩٨ وفي النوادر، أما في الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٤:

وعينان ما أرقب بعفرا فتنظرا ماقيهما إلا هما تكفان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٩٩ ـ فلو أنَّ عَيْنَي ذِي هَوىً فاضتا دَماً
لفاضَتْ دَماً عيناي تَبْتَدِرانِ

١٠٠ ـ فَهَلْ حاديا (عَفْراء) إنْ خِفْتُ فَوْتَها
عليّ إذا نادَيْتُ مُرْعَويانِ

١٠١ ـ ضَروبانِ للتالي القَطوف إذا ونى
مُشيحان مِنْ بَغْضائِنا حَذِرَانِ

١٠٢ ـ فمالَكُما من حادِيَيْن رُميتما
بحمّى وطاعونٍ، ألا تَقِفانِ

١٠٣ ـ فما لكما من حاديين كُسيتما
سرابيلَ مُغْلاة من القَطِرانِ

١٠٤ ـ فَوَيْلي على عَفْراءَ وَيْلٌ كأنَّه
على النَّحْرِ[1] والأَحْشاءِ حَدُّ سِنانِ

١٠٥ ـ أُحِبُّ ابْنَةَ العُذْرِيَ حُباً وإنْ نأتْ
ودانيتُ فيها غَيْر ما مُتَدانِ[2]

١٠٦ ـ إذا رامَ قلبي هَجْرَها حالَ دُونَهُ
شَفيعانِ من قلبي لها جَدِلانِ[3]

١٠٧ ـ إذا قُلْتُ قالا لي: بلى، ثم اصبحا
جميعاً على الرأي الذي يَريانِ[4]

١٠٨ ـ ألا حَبَّذا من حُبِّ عَفْراءَ مُلْتَقى

---

(١) كذا في الأصل، أما في النوادر: الكبد، وفي الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٢، وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٣: الصدر.

(٢) لم يرد هذا البيت في الأصل ولا في النوادر. وهو من الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٢ وتزيين الأسواق ج ١ ص ٧٦، وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٣: حيثما تريان.

(٣) و(٤): لم يرد هذان البيتان في الأصل، وهما من كتاب تزيين الأسواق. ج ١ ص ٧٦ وفوات الوفيات ج ٢ ص ٧٣. وقد ورد البيت رقم (٩٩) بعد ذلك في رواية أخرى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نَعَمْ، وألا لا حَيْثُ يَلْتَقيانِ[1]

١٠٩ ـ أحَقّاً عبادَ اللّهِ أنْ لَسْتُ زائِراً
(عُفَيْراءَ) ألاّ والوليدُ يَراني[2]

١١٠ ـ كأنّي وإيّاه على ظَهْرِ مَوْعِدٍ
فَقَدْ كِدْتُ أقْلي شَأْنَهُ وقَلاني[3]

١١١ ـ لَوَ أنَّ أشَدَّ النّاسِ وَجْداً ومِثْلَهُ
من الجنِ بعدَ الانسِ يلتقيانِ[4]

١١٢ ـ فَيَشْتكيان الوَجْد ثُمَّتَ أشْتكِي
لأضْعف وجْدي فَوْقَ ما يَجدانِ[5]

١١٣ ـ وما تَركتْ (عَفْراءُ) مِنْ دَنَفٍ دوىً
بِدَوْمَةَ مَطْوى لَهُ كَفَنانِ[6]

١١٤ ـ فَقَدْ تركتني ما أعي لِمُحَدِّثٍ

---

(١) روى أبو بكر : أخبرني أبي عن الطوسي قال أراد بقوله : ملتقى نعم وألا شفتيها ؛ لأن الكلمتين في الشفتين تلتقيان ، وسئل أبو رياش عن هذا البيت وأجاب بهذا الجواب (المخطوطة) .
ويروى (المخطوطة) :
ألا حبذا من حب عفراء ملتقى نعام وبرك حيث يلتقيان
وفي الأغاني ٢٠/٣٧٤:
ألا حبذا من حب عفراء وادياً بغام وبزل حيث يلتقيان

(٢) لم يرد هذا البيت في النوادر ، ولابن الدمينة في بائيته ما يشبه هذا وهو قوله :
أحقاً عباد الله أن لست صادراً ولا وارداً إلا علي رقيب
(أنظر ديوان ابن الدمينة ص ١٠٣ ، تحقيق أحمد راتب النفاخ ط مصر ١٩٥٩) والبيت في ديوان مجنون ليلى ص ١٧ :
أحقاً عباد الله أن لست وارداً ولا صادراً إلا علي رقيب

(٣) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٤) كذا في الأصل والنوادر.

(٥) كذا في الأصل والنوادر . ويروى : لأفضل وجدي (المخطوطة) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حَـديـثـاً وإنْ نـاجَـيْـتُـهُ ونَـجـانـي[1]

١١٥ ـ وَقَـدْ تَـرَكَـتْ (عَـفْـراءُ) قلبي كـأنَّـه
جَـنـاحُ غُـرابٍ دائِـمِ الـخَـفَـقـانِ[2]

هذا آخرها في هذه الرواية ومن رواية أخرى :

١١٦ ـ أنـاسِـيَـةٌ عَـفْـراءُ ذِكْـرى بَـعْـدَمـا
تَـرَكْـتُ لـهـا ذِكْـراً بـكُـلِّ مـكـانِ

* * *

ومما يدخل في هذه القصيدة من روايات عدة :

١١٧ ـ عَـجِـبْـتُ من الـقَـيْـسي زَيْـدٍ وتـرْبِـه
عَـشِـيَّـةَ جَـوُّ الـمـاءِ يَـخْـتَـبـرانـي[3]

١١٨ ـ هُـمـا سَـألاني مـا بَـعـيـرانِ قـيـدا
وشـخـصـانِ بـالـبَـرْقـاءِ مُـرْتَـبِـعـانِ[4]

١١٩ ـ هُـمـا بكـرْتـان عـائِـطان اشْـتـراهـمـا
مـن الـسّـوقِ عَـبْـدا نِـسْـوَةٍ غَـزِلانِ[5]

١٢٠ ـ هُـمـا طَـرفـا الخَـوْدَيـنِ تَحْتَ دُجُـنَّـةٍ
مـن الـلـيـلِ والـكـلـبـانِ مُـنْـطَـويـانِ[6]

١٢١ ـ فَـبـاتـا ضَـجـيـعَـي نِـعْـمَـةٍ وسَـلامَـةٍ

---

(١) لم يرد هذا البيت في النوادر.
(٢) كذا في الأصل والنوادر والأغاني ، وينبغي أن يكون الفعل (وناجاني) ولكنه عدل إلى (نجاني) لإقامة الوزن . ويروى : ولو نادى به ونجاني (المخطوطة) .
(٣) كذا في الأصل والنوادر.
(٤) لم يرد هذا البيت في النوادر.
(٥) لم يرد في النوادر.
(٦) لم يرد في النوادر.
(٧) لم يرد في النوادر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وِسَاداهُما من مِعْصَمٍ ومِتانِ[1]

١٢٢ - وأصْبَحتا تَحْتَ الحِجالِ وأَصْبَحا

بِدَوِّيةٍ يَحْدوهما حَدِيانِ[2]

١٢٣ - فما جَابةُ المِدْرَى[3] تروحُ وتَغْتدي

ذُرى الطامِساتِ الفَرْدِ من وَرَقانِ[4]

١٢٤ - بِأَنْفَعَ لي منها وإني لَذاكِرٌ

هَوى لِيَ أَبْلى جِدَّتي وبَراني[5]

١٢٥ - رَأَتْني حَفافَيْ طُخْفَتينِ[6] فَظَلَّتا

تُرنّان مما بي وتَصْطَفِقانِ[7]

١٢٦ - بِبَطْنِ مُنيمٍ مِنْ وَراءِ عَراعِرٍ

يَقُومانِ أرضاً من ورَاءِ عُمانِ[8]

١٢٧ - تَمَنَّيْتُ من وَجْدي بعفراءَ أنني

إزارٌ لها تَحْتَ القَميصِ يَمانِ[9]

١٢٨ - تَمَنَّيْتُ من وَجْدي بِعَفْراءَ أنّنا

---

(١) لم يرد في النوادر.

(٢) لم يرد في النوادر.

(٣) يقال للظبية حين يطلع قرنها : جأبة المدرى . وأبو عبيدة لا يهمزه . قال بشر :

تعرض جأبة المدرى خذول بصاحة في أسرتها السلام

وإنما قيل جأبة المدرى لأن القرن أول ما يطلع يكون غليظاً ثم يدق فنبه بذلك على صغر سنها . (اللسان) .

(٤) لم يرد في النوادر.

(٥) لم يرد في النوادر.

(٦) جاء في لسان العرب مادة (طخف) : « الطخف السحاب المرتفع الرقيق ، والطخف شيء من الهم يغشى القلب . ووجد على قلبه طخفاً وطخفاً أي : غماً » .

(٧) لم يرد هذا البيت في النوادر.

(٨) لم يرد في النوادر.

(٩) لم يرد في النوادر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بَـعْـيـرانِ نَـرْعَـى الـقَـفْـرَ مُـؤْتَـلِـفـانِ(١)

١٢٩ ـ ألا خَـبِـرانـي أيُّـهـا الـرَجُـلانِ
عـنِ الـنـومِ أن الـشَّـوْقَ عنهُ عَـدانـي(٢)

١٣٠ ـ وكيف يَلَذُّ النَّـوْمُ امْ كيفَ طَـعْـمُـهُ
صِـفـا الـنَّـوْمَ لـي إنْ كُـنْـتُـمـا تَـصِـفـانِ(٣)

١٣١ ـ أُصَلِّي فـأبكي في الصَّـلاةِ لِـذِكْـرِهـا
لـي الـوَيْـلُ مـمـا يَـكْـتُـبُ الـمَـلَـكـانِ(٤)

١٣٢ ـ خَـليليَّ عُـوجـا الـيَـوْمَ وانتـظرا غَـداً
عَـلَـيْـنَـا قـلـيـلاً انَّـنـا غَـرِضـانِ(٥)

١٣٣ ـ وإنَّ غَـداً بـالـيـومِ رَهْـنٌ وإنَّـمـا
مُـسـيْـرُ غَـدٍ كـالـيَـوْمِ أوْ تَـريـانِ(٦)

١٣٤ ـ فَـلَهْـفـي عـلى عَـفْـراءَ لَـهْـفـاً كـأنَّـه
عـلى الـقَـلْـبِ والأحـشـاء حَـدُّ سِـنـانِ(٧)

١٣٥ ـ إذا رُمْـتُ هِـجـرانـاً لـهـا حَـالَ دُونـه
حِـجـابـانِ فـي الأحْـشـاء مُـؤْتَـلِـفـانِ(٨)

---

(١) لم يرد في النوادر.

(٢) لم يرد في النوادر.

(٣) لم يرد في النوادر. وقد جاء في المخطوطة بأن هذا البيت والذي قبله ينسبان إلى العباس بن الأحنف . ولم نعثر عليهما في ديوان العباس بن الأحنف ، شرح وتحقيق الأستاذ عبد المجيد الملا . طبعة نعمان الأعظمي ببغداد ١٩٤٧ م . وهما موجودان في ديوانه طبعة الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي .

(٤) لم يرد في النوادر. وقد جاء في المخطوطة بأن أبا رياش روى هذا البيت لابن الدمينة . ولم نعثر عليه في ديوان ابن الدمينة المطبوع .

(٥) لم يرد هذا البيت في النوادر . غرض إليه : اشتاق فهو غرض .

(٦) لم يرد في النوادر.

(٧) مر ذكره هكذا :

فـويلي على عفـراء ويـل كـأنـه على النحـر والأحشاء حـد سنان

(٨) لم يرد في النوادر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٣٦ ـ إذا قُلتُ لا، قـالا، بَلى. ثـم أجْمَعـا
جَـمـيـعـاً عـلى الـرأي الـذي يَـريـانِ[1]

* * *

بناء القصيدة النونية : ـ

استهلها بمقدمة حوارية تفصح عن محادثته مع صاحبيه ، ولا أخالها إلا حقيقة وليست تجريداً ، فقد حدد شخصيتيهما خلافاً لمن يستوقف فحسب ، فهما من هلال بن عامر المجاورين لبني عذرة ، والقبيلتان إستوطنتا شمال غرب الجزيرة ما بين تبوك وتيماء ووادي القرى . إذن فأبيات المقدمة تدور حول واقعية الصحبة المتواصلة الوشائج مع التجربة النفسانية لعروة ، حيث معاناة صاحبيه من هلوسته وهلاسه ، فتارة يتخلف عنهما ولا يجاريهما في السفر الطويل ، وأخرى يستوقفهما عند الربع الذي يظنان كل الظن أنه لا يستدعي الوقوف .

والحديث الواقعي أصدق عاطفة لكنه يتبارى من حيث الشكل مع مقدمة المطولات العربية حيث التجريد والتبصر أثناء الإرتحال في ما يعترضه من الأطلال فمعرفته من نبع النموذج الجاهلي وهي ليست بالطويلة إذ بلغت تسعة أبيات إذا ما قورنت بطول القصيدة وهي : ـ

خليلي من عُليا هلال بن عامر ... بصنعاء عُوجا اليوم وانتظراني
ألم تحلفا بالله أني أخوكما ... فلم تفعلا ما يفعل الأخوان
ولم تحلفا بالله أن قد عرفتما ... بذي الشيح ربعاً، ثم لا تقفان
ولا تزهدا في الذخر عندي وأجملا ... فإنكما بي اليوم مبتليان
ألم تعلما أن ليس بالمرخ كله ... أخ وصديق صالح فذراني
أفي كل يوم أنت رام بلادها ... بعينين إنساناهما غرقان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما ... إلى حاضر الروحاء ثم ذراني
على جسرة الأصلاب ناجية السرى ... تقطع عرض البيد بالوخدان

(١) لم يرد هذا البيت في النوادر ، أما في تزيين الأسواق وفوات الوفيات فقد ورد هكذا :
إذا قلت قالا لي : بلى ثم أصبحا ... جميعاً على الرأي الذي يريان
وقد تقدم ذكره.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا جبن موماة عرضن لمثلها جنادبُها صرعى من الوخدان[1]

ونلحظ على المقدمة أنها تحكي خلاف فتيان في مقتبل العمر فمنه القسم ومنه عقد الصداقة التي يندفع الفتيان إليه وهم أقل تفلتاً في عهد المراهقة حتى إذا شبوا عن الطوق أعرضوا عما يخالف العقل . والشاعر لم يستنطق صاحبيه ويحكي بلسانهما غير أنه أورد بيتاً داخل هذا الحوار يظنه المتلقي تداخلاً من الرواية أو نشازاً في موضعه لكن المتفحص يدرك أنه حكاية وردٌّ على الشاعر من صاحبيه فكأنهما يقولا نحن لا نفارقك لولا أنك تشغل نفسك وتعيق سفرنا بأمور جانبية كالوقوف عند الربع ، ورميك بلادها بعينين إنساناهما غرقان والرعي هذا يقتضى الوقوف على المشارف من أعالي الجبال وغيره مما يوقف المسير .

ويظهر فيها حسن التخلص من المقدمة المتمثل في حواره مع رفيقيه ، فهما يعذلانه دائماً ويعظانه وتلك نبضة من الإيحاء بجوار الجانب الآخر ومن النصح أن يعرض عن الغواني : ـ

ولا تعذلاني في الغواني فإنني أرى في الغواني غير ما تريان

ويبتهل ذكر الغواني وأول ما يتوارد إلى ذهنه عفراء وحبه لها وحكاية الوشاة : ـ

ألما على عفراء إنكما غدا بشحط النوى والبين معترفان
فيا واشيي عفراء دعاني ونظرة تقرُّ بها عيناي ثم دعاني

وتستمر القصيدة في التنقل بين التأوه الذاتي وإظهار المعاناة ، وبين الحديث عن عفراء ، وإعراضها ، وأوصافها ، فالقصيدة تتوزع إلى حكاية مسيرة ذاتية يتواصل نسيجها في لحمة واحدة تدور في فلك العشق والهيام وكل مضمون جزئي في القصيدة أو فكرة وما أكثرها ـ فإنها ذات وشائج بنفسية الشاعر فالوحدة الموضوعية شاخصة أمام العيان ويماثلها الوحدة الشعورية التي تمثل إكسير الحياة في القصيدة حيث يتدفق بها كل بيت منها

(١) عروة بن حزام ، الديوان ، ٩ ، ١٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولنضرب للمتلقي مثلاً ببعض أبياته : ـ

متى تكشفا عني القميص تبينا ... بي الضر من عفراء يا فتيان
وتعترفا لحماً قليلاً وأعظُما ... دِقاقاً وقلباً دائم الخفقان
على كبدي من حب عفراء قرحة ... وعيناي من وجد بها تكفان
فعفراء أرجا الناس عندي مودة ... وعفراء عني المعرض المتواني
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضي محب من حبيب لبانة ... ويرعاهما ربي فلا يريان

فهو يمازج بين حالته المعنوية المتمثلة في النفس المنهكة بالوله والحرمان التي أضفت ظلالها وتواصل مرضها على الهيكل الجسمي فكأنه يقول : إن الضر وقلة اللحم ودقة العظام نتيجة القرحة والحرقة في الكبد الحرّى بل إمتد ذلك إلى قطرات الدمع الدائم الإنسكاب .

ويظهر عمق التأثير في بيتيه الأخيرين من حيث يتمنى لكل محبوبين من الإنس والجن والأنعام أن يلتقيا ، ويدعو لهما بالسفر ، ويقضيا لبانة تشفي صدريهما وتلك رغبة حيوانية غلبت عليه في لحظة من اللحظات لكنه لم يعمل بها حين أتيح له الفرصة مع عفراء في بلاد الشام .

ومن مظاهر القصيدة الطول : ـ

وقد أشار المؤلفون الأوائل إلى طول القصيدة[1] ولحق بهم المتأخرون فأشار الدكتور عمر فروخ إلى أن طولها يبلغ (٢٣٨)[2] وهي في الديوان (١٣٦)[3] ويعود ذلك لأمور هي : ـ

١ ـ أن القصيدة تمثل رحلة متباعدة المسافة من شمال غرب الجزيرة بالقرب من تبوك إلى قلب جنوبها صنعاء ، وهو لم يحصرها في هذا بل جعلها رحلة حياته كاملة حيث معاناة الارتحال لجلب الإبل ، إلى غدر عمه

---

(١) أبو علي القالي : الأمالي والنوادر ، البغدادي ، الخزانة ٣ : ٣٧٦ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ، ١ : ٢٩٨ .
(٣) عروة بن حزام ، الديوان ، ٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وخيانته ، ثم ضعفه وهزاله ، ورحلاته العلاجية لليمامة وحجر ووادي القرى ثم احتوائها على تصوير النبضات الداخلية ورحلة الهيام والعشق .

وما دام أنها تمثل تلك الرحلة وكل ما فيها ذُكِر في صراحة فإن الإحتمال يكون بتجزئة القصيدة إلى مقطعات أو قصائد قصيرة ينتظمها وزن واحد وقافية واحدة لأنها كلها تدور حول الشكوى والذاتية المتطرفة فتظهر متماثلة القوالب الموسيقية .

فالبحر الطويل وحرف التأسيس وحرف الروي المجرور واللون الموسيقي الشامل لها ؛ فضمها الرواة إلى بعضها مما جعلها تكوّن تلك القصيدة .

٢ ـ عملية تنامي القصيدة ، فكأن الشاعر أحب وزن البحر الطويل وحرف التأسيس وحرف الروي المجرور متمثلة في الموسيقى متكاملة لهذه القصيدة الخارجية والداخلية فتمرّس عليها ، مما جعله يؤثرها على غيرها ، فكل تجربة فردية تمر به يستحضر هذه الموسيقى فيبني عليها ذوب نفسه ، واهتزاز شعوره ، فتضاف التجربة الفردية إلى القصيدة الأولى ، سيما أن الشاعر أخذ يفقد توازنه وتفكيره في الأشياء الجديدة ، والمحيطة به ومن ضمنها التنويع في الوزن والقافية فاكتفى بالثبات على وزن واحد . وهو أيضاً اتخذ طريقاً في شعره لم نعهده عند غيره فكل حادثة تثيره يستدعي لها بيتاً سالفاً ثم يزيد عليه البيت أو البيتين وهكذا تتزايد في هذه الرحلة الزمنية المتمثلة في حياة عروة بن حزام وليس أدل على ذلك من اختلاف الروايات للحادثة الواحدة ثم إن المقابلات له مثلاً مع النعمان بن بشير رضي الله عنه ، ومع عروة بن الزبير تتكرر فيها الأبيات ولكن بزيادات مختلفة ومثله رحلاته ، ولا نستطيع أن نستفيد من الأبيات لكثرة التكرار بها .

٣ ـ رواية القصيدة : ـ

فقد تأخر جمع شعر بني عذرة لأنهم من الأطراف الذين خرجوا عن دائرة أهداف اللغويين لجمع الشعر في مراحله الأولى فغايتهم جمع اللغة السليمة البعيدة عن التأثر بالأمم الأخرى أو الموالي والمهاجرين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وأيضاً بعدها عن عاصمتي الجمع البصرة والكوفة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأيضاً تأخر الجمع للهدف التاريخي .

والتأخر هذا جعل القصيدة تنتقل في رحلة طويلة عبر المشافهة مما أكثر من اختلاف الروايات فيها فلما دوِّنت كثر الاختلاف في أبياتها ، فظن الرواة أن الأبيات مختلفة كقوله : ـ

فـويلي على عفراء ويـلاً كأنـه على النحر والأحشاء حدّ سنان

متماثلة باختلاف في الرواية : ـ

فلهفي على عفـراء لهفاً كـأنـه على القلب والأحشاء حد سنان

والتأخر في روايتها جعلها تتشابك مع شعراء متأخرين مثـل مجنون ليلى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وما دام أن الراوي يحفظ لهؤلاء جميعاً فلا ريب من امتزاج رواية أشعارهم كقوله : ـ

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الـويل ممـا يكتب الملكان

ظاهرة التكرار : ـ

كون القصيدة تدور في فلك واحد فهي تمثل نزيف النفس العاشقة فالموجات الخارجية التي تجي الحذوة المتقدة تنبع من نبع واحد فتخرج متشابهة متماثلة ومن هنا يحدث التكرار في المضامين التي تستدعي التكرار للألفاظ والمترادفات .

ثم إن المعجم اللغوي الذي يمتلكه شاعر فتي في مقتبل العمر لا ريب في قلته ونضوبه . نزداد قناعةً إذا علمنا أن الشاعر لا يقبل التجديد ولا روافد له لعملية الرفض لكل مظاهر الحياة بما فيها اللغة ، ومن هنا يجتر ما علق بتكوينه الذهني واللغوي لمرحلته الأولى ويكررها .

ومن أسباب التكرار اختلاف الروايات واختلاطها وتداخلها فمن تكرار المعنى البيت السادس من القصيدة قوله : ـ

أفي كـل يوم أنت رام بـلادها بعينين إنسـانـاهمـا غـرقـان

فتكرر المضمون في البيت الثامن والتسعين : ـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعيناي ما أوفيت نشزاً فتنظرا بما فيهما إلا هما تكفان

ومنه :

هواي عراقي وتثني زمامها لبرق إذا لاح النجوم يمان

ويكرره في البيت الذي يليه :

هواي أمامي وليس خلفي معرج وشوقي قلوصي في الغدو يمان

ويكرره بعد قليل من الأبيات :

يقول لي الأصحاب إذا يعذلونني أشوق عراقي وأنت يمان

ومن تكرار اللفظ تبعاً للمعنى في البيت رقم ١٠٧ :

إذا قلت قالا لي: بلى ثم أصبحا جميعاً على الرأي الذي يريان

التكرار اللفظي في الأبيات : ـ

ومنه التكرار الكامل للبيت رقم (٥٤)

أناسية عفراء ذكري بعدما تركت لها ذكراً بكل مكان

تكرر في رقم (١١٦)

وكون الشاعر يفتخر بشيوع عفراء في شعره فهذا أمر يدعو للشك عن الكثير ، لكن تاريخ القبيلة وافتخارهم بالهيام ينفي هذا الشك .

ومن التكرار الذي تتغير فيه ألفاظ قليلة كالبيت (١٥)

وتعترفا لحماً قليلاً وأعظُماً دقاقاً وقلباً دائم الخفقان

كرره في البيت رقم (٥١)

إذن تحملا لحماً قليلاً وأعظُماً دقاقاً وقلباً دائم الخفقان

ولفظه دائم الخفقان يكررها مرة ثالثة في البيت (١١٥)

وقد تركت (عفراء) قلبي كأنه جناح غراب دائم الخفقان

ويكرر الخفقان لشدته لا لدوامه في البيت (٣٠) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كـأن قـطاة علقت بجنـاحهـا على كبـدي من شدة الخفقـان

ومن التكرار لأقل من الشطر في البيتين (١٠٢) و(١٠٣)

فمـا لكما من حـادبين رميتمـا بحمى وطـاعـون ألا تقـفـان
فمـا لكما من حـادبين كـبتمـا سـرابيـل مغـلاة من القـطران

وهناك ألواناً من تكرار الألفاظ : ـ

١ ـ تكرار اسم (عفراء فقد كررها أكثر من أربعة وعشرين مرة) ولا غرابة في ذلك لأنه محبب إلى نفسه فهو يجتره دائماً والنقـاد المحدثـون جعلوا ذلك من المحاسن .

٢ ـ تكرار الألم النابع الذي يعتصره فيخفق في لغته مثـل كبدي ، خفقان ، وهذا اللون من التكرار يتماثل مع الحالة النفسيـة ويتكرر أيضـاً للشاعر المدفف فهو يمثل ظاهرة وهي استمرارية الوجد وحرقته فقد تكررت الكبد أربع مرات وتكرر الخفقان خمس مرات .

٣ ـ تكرر لفظ المكان ست مرات وهذا نتيجة لحب المكان والذكرى المرتبطة به وأيضاً لضرورة القافية التي يجف عنها فيض معجمه .

٤ ـ كـرر يريـان أربـع مـرات ومثلهـا و(يـدان) و(يمـان) و(الهملان) ، و(يكفاني) أيضاً في القافية لغرض الوزن والروي .

وظاهرة تكرار الألفاظ تشبع في قصيدته . وبعضها يكرره مرتين وثلاث وأربع لقلة المعجم اللفظي المترادف ولطول القصيدة ، ولتكرار المعاني ، ولاختلاف الرواية .

أسلوب التثنية : ـ

من المداخل اللغوية الرئيسية في نونية عروة قضية التثنية فهي تقوم على علامة الألف والنون أو الياء والنون ، والشاعر أكثر من الألف لمناسبتها للنفس المشحون الذي يخرج من أعماق الصدر ، فيصعد إلى أعلى فصدره منهك دائماً فيحتاج إلى استراحـة صوتيـة يمتد فيهـا نفسه داخـل الألفاظ والتراكيب والبيت وتكثر في الشكوى .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا تعذلاني في الغواني فإنني أرى في الغواني تغير ما تريان
فيا واشيي عفرا دعاني ونظرة تقرّ بها عيناي ثم دعاني

وأسلوب التثنية له علاقة بنفسية عروة فالعاشق ذاتي النظرة ولا حياة له إلا بذكرى محبوبته أو يتمنى اللقاء والوصال ، فهو لا يرى في الدنيا غيرهما معاً فغلبا على ما عداهما ، ونظر العاشق عروة نتيجة لما يعتلج في قرارة ذاته بمنظر الاثنين ويرجح ذلك أن الاثنين أي اثنين في قصيدته يتصلان بعلاقة (ما) مع حالته وعفراء فحسب كالمشابهة مثلاً : ـ

فيا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضي محب من حبيب لبانةً ويرعاهما ربي فلا يريان

وهو يجعل صاحبيه اثنين

خليلي من عليا هلال بن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

فهو يكرر مخاطبة المثنى ثلاث مرات في البيت ، والناقد يحيل ذلك إلى أسلوب نموذجي سالف في عمود الشعر العربي ، لكني أضيف أن ألف الاثنين يمنح النفس من الداخل مما يتلائم مع حالة عروة مما حبب صيغة التثنية إلى عروة فتعلق بها .

ويحصر الأطباء في طبيين هما عرّافا اليمامة وحجر : ـ

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف حجر إن هما شفياني

وهو يجعل اثنين من الوشاة يقترنان به : ـ

فيا واشيي عفرا دعاني ونظرة تقرّ بها عيناي ثم دعاني

وحصره للوشاة في اثنين أمر يدعو إلى التأمل ، فهل ننظر نظرة سطحية ونعود بها إلى ضرورة القافية ؟.أقول : إن ذلك بعضاً من الدلالة ونضيف إليها جوانب أخرى ومنها أن الإنسان مقترن بقرينين يراقبانه ويكتبان أعماله وأن عروة قد اقتبس ذلك من الأسلوب القرآني .

وقد صرح به ـ مع اختلاف الرواية ـ في آخر القصيدة : ـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل مما يكتب الملكان

* ومثله تثنية البعيرين في القفر ، ونحن ندرك أن الحيوان والإبل بخاصة لا تحتاج إلى خلوة تتناجى أو تتلاقح ولكنه يجللها بحالته الإنسانية وجعلاهما بعيرين ليشاكلاه وعفراء .

ويا ليت إنا الدهر من غير ريبة بعيران نرعى القفر مؤتلفان

والبيت الشعر له رواق واحد يمتد من أقصاه إلى أقصاه غير أنه يجعله رواقين اثنين :

فوالله لولا حب عفراء ما التقى علي رواقا بيتك الخلقان

* والوشاح والعنان يطلق كل منهما مفرداً للإنسان والمطية لكنه ثناهما ونظر إلى وجود الوشاح من الأمام والخلف ، وكون العنان يتدلى من جانبي العنق للمطية

كان وشاحيها إذا ارتدتهما وقامت عنانا مهره سلسان

* وهو يقارن بين شوقه وشوق ناقته وكأنه يستحضر عفراء في صورة ناقته ويكوّن منهما مثنى لهدف الإجتماع في إحساس واحد فهو يخاطب ناقته ويتحدث عن حرقتها وحرقة كبده

متى تجمعي شوقي وشوقك تقدحي ومالك بالعبء الثقيل يدان
فيا كبدينا من فخامة لوعة الـ فراق ومن صرف النوى تجفان

* وتظهر التثنية ليس في الإسلوب فحسب وإنما في المضمون كأخ وصديق

ألم تعلما أن ليس بالمرخ كله أخ وصديق صالح فذراني

* ثم هو يجلب الألفاظ التي تشبه المثنى في الشكل واللفظ ـ الوخدان ، الخفقان ، يدان ، يمان ، مكان ، زمان ، الهملان .

وأورد هذه الألفاظ لسببين اثنين أحدهما : مشاكلة المدة الطويلة لحالته النفسية وراحته بنطقها وثانيهما : من أجل القافية لأن جلها جاء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيها ، وليس معنى ذلك غرابة تلك الألفاظ عن المعنى وإنما ما قلناه دلالة تضاف إلى المعنى .

أقوال النقاد

كثيرة هي المراجع التي ألمت بمقطوعات من شعر عروة بن حزام ، وأوردت قصة هيامه بعفراء ، وعرجوا معه إلى الأطباء والكهان ، وصحبوه في رحلته إلى صنعاء ، وعفراء ، غير أنهم لم يشيروا إلى منزلته الشعرية ، ولم يُقيموا الجمال الفني في شعره ، ربما لقلة شعره ، وبعده عن مواطن الجمع أيام التدوين الأولى وإعراض جامعي الأدب واللغة عن شعر المحاذين للشام والحدود الدولية خوفاً من العجمة ، ولعدم توافر شعره ، ولم يتمكن النقاد من إصدار الأحكام النقدية ، فأعرضوا عنها في كتبهم ولكننا مع ذلك لا نعدم بعض الإضاءات واللمحات التي تشير إلى فنه .

١ ـ يقول أبو الفرج الأصبهاني :

« شاعر إسلامي ، أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى ، ولا يعرف له شعر إلا في عفراء بنت عمه عقال بن مهاصر ، وتشبيبه بها »[١] .

فأثبت أنه شاعر من الشعراء الذين لم يبلغوا القمة والفحولة ، ولم ينحدر به إلى الضعف والرداءة .

وأبان أنه صاحب غرض واحد لم يتجاوزه إلى غيره ، فقد اختص شعره بعفراء صاحبته ، وبذاته ولا سيما ما يتعلق ويمتد بتواصله مع عفراء . فشعره يدور في فلك الحب ولا سيما الحب العذري .

٢ ـ يقول ابن قتيبة :

« وهو من عذرة ، وهو أحد العشاق الذين قتلهم العشق ، وصاحبته عفراء بنت مالك العذرية »[٢] .

ونحن هنا نلتمس مكانته الشعرية من اختيار ابن قتيبة له ضمن

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني ٢٨ : ٩٥٦٦ .

(٢) ابن قتيبة ٢ : ٦٢٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعراء ونعرف أنه حضر جمعه وترجمته للشعراء المشهورين فحسب ، ومن هنا ندرك أن عروة بن حزام من الشعراء المشهورين .

٣ ـ أبو علي القالي يقول :

« وقصيدة عروة هذه النونية يختلف فيها الناس في بعض الأبيات ويتفقون على بعضها ، فالأول الأبيات المجتمع عليها وما يتلوها مما يختلف فيه »[١] .

٤ ـ صاحب مصارع العشاق الشيخ جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارىء :

فقد أورده كثيراً في كتابه وفي مواضع متفرقة لكن حديثه نقلاً وحكاية لقصصه ولم يتعرض لفنه وشعره .

٥ ـ محمد بن شاكر الكتبي :

المتوفى ٧٦٤ هـ ترجم له وقال عنه :

« عروة بن حزام العذري أحد متيمي العرب ، ومن قتله الغرام ، ومات عشقاً في حدود الثلاثين للهجرة في خلافة عثمان رضي الله عنه »[٢] .

٦ ـ عبد القادر بن عمر البغدادي :

١٠٣٠ ـ ١٠٩٣ هـ شرح بعض شعره وترجم له وقال عنه :

« وعروة بن حزام هو من عذرة ، أحد عشاق العرب المشهورين بذلك إسلامي . كان في مدة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه »[٣] .

٧ ـ داود الأنطاكي صاحب تزيين الأسواق في أخبار العشاق :

« وعروة بن حزام بن مالك بن حزام بن ضنة بن عذرة شاعر لبيب حاذق متمكن في العشق ، قيل أنه أول عاشق مات بالهجر من المخضرمين

---

(١) أبو علي القالي ، ذيل الأمالي والنوادر ١ : ١٥٨ .

(٢) محمد شاكر الكتبي فوات الوفيات ٢ : ٤٤٧ .

(٣) عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ٣ : ٢١٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن العذريين لشدة مقاساته في العشق . ضرب به المثل بين العرب والمولدين »[1] .

٨ ـ وقد ترجم له صاحب كتاب « الحب العذري » نشأته وتطوره : أحمد عبد الستار الجواري :

وأشار إلى أنه أقدم أصحاب الحب العذري « أقدم هؤلاء ـ فيما أعلم ـ عروة بن حزام . . . »[2] .

٩ ـ وترجم له شاكر هادي شاكر محقق « أنوار الربيع في أنواع البديع » :

فقال : « عروة بن حزام بن مهاجر العذري ، شاعر إسلامي فحل ـ أحد متيمي العرب الذين قتلهم الوجد »[3] .

١٠ ـ يقول عنه الدكتور عمر فروخ :

« عروة بن حزام شاعر مقل جداً ، ولكنه شُهِرَ بقصيدته التي قالها في عفراء وهي قصيدة فصيحة الألفاظ سهلة التراكيب مع متانة في السبك ، وعذوبة في التعبير ، وعاطفة جياشة .

ولكن الذي يبدو لي أن هذه القصيدة لم تكن في أوّل الأمر بمثل هذا الطول ولكن زيد عليها بعد ذلك زيادات : يدلنا على ذلك طولها « ٢٣٨ » بيتاً وتكرار بعض معانيها مع شيء من التعليل ثم التفاوت في السهولة والعذوبة في الأبيات المتقاربة وكثرة الاختلاف في الروايات ولعله اختلط بها عدد من أبيات نفر من المحبين وافقتها في البحر والقافية »[4] .

١١ ـ ذكر الدكتور شوقي ضيف :

أن سائلاً سأل عروة بن حزام العذري صاحب عفراء :

---

(١) داود الأنطاكي تزيين الأسواق ١ : ١٢٩ .

(٢) أحمد عبد الستار الجواري ، الحب العذري نشأته وتطوره ٦٠ .

(٣) السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني « أنوار الربيع في الواع البديع » تحقيق شاكر هادي شاكر ١ : ٣٧٧ .

(٤) الدكتور عمر فروخ تاريخ الأدب العربي ١ : ٢٩٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

« أصحيح ما يروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت ومالهم داء ألا الحب »[1] .

ويقول :

« ومن الأشخاص الحقيقية في هذا الغزل عروة بن حزام العذري وصاحبته عفراء ، وقد ترجم له صاحب الأغاني ، وروى له أشعاراً رقيقة »[2] .

١٢ ـ كارل بروكلمان كتب عنه[3] :

« عروة بن حزام وهو كجميل من بني عذرة ، من قبائل عرب الجنوب ، ولها شهرة بالحب الصحيح والعاطفة الصادقة .

وعروة أيضاً بطل قصة غرامية يرى (باسيه) أن أساسها هو ما رواه الشعراء الفرنسيون القدماء ، ولكن (هبّيه) يرجح احتمال أن القصة نقلت من بلاد العرب إلى أوروبة »[4] .

١٣ ـ وقد سرد داود الأنطاكي :

أكثر أبيات القصيدة وجلها متوافق مع ذيل الأمالي وقد علق عليها وبين بعض سرقات مجنون ليلى من القصيدة فقال : قوله : خليلي خطاب بالنداء محذوف الأداة وليس بشرط أن يكونا موجودين فقد جرت عادة العرب بذلك، حتى قيل : إنهم وإن خاطبوا الواحد جعلوا الصيغة لاثنين ، إما ليجري مجرى التأكيد أو أنهم يطلبون التعظيم أو أنهما أقل الرفقة.

وقوله إلى حاضر البلقاء يريد المكان الذي كانت به كما سبق في الحكاية ويروي إلى حاضر الروحاء موضع بالبلقاء من طرف حوران وقوله حسرة الأصلاب صفة مشبهة كناية عن العجلة التي لم تدعه يشد كور الناقة ويروي نزاحة السرى وموارة أي عجلة تبلغ المأرب وقوله بمن لو أراه البيت

---

(١) الدكتور شوقي ضيف ، العصر الإسلامي والأموي ٣٥٩ .

(٢) المرجع السابق ٣٦١ .

(٣) كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ١ : ٢٠١ .

(٤) تحدث عنه في الفصول السابقة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كناية عن الاتحاد وشدة الحب حتى لم يقع تأثير بينهما من نقل شيء وقوله متى تكشفا. روى بدله متى ترفعا ، والأول أبلغ لأخصيته ولزوم رؤية البدن منه ، وقوله إذا تريا جواب متى وروي بدله تعرفا، والأول ألطف . وقوله كأن قطاة البيت قد أخذه المجنون حيث قال : قطاة غرها شرك فباتت.

البيت وهذا من السرقات العامة التي تتفاوت بحسن الاختلاس والتظرف ومعنى هذا أنه شبّه كبده في شدة خفقاته من هياج نار العشق بقطاة علقت بجناح واحد وجعلت ترفرف بالآخر طلب الخلاص .

وأما المجنون فقد تطرف وبالغ لأنه جعل القلب هو القطاة بعينها وجعل المعلق هو الشرك واعلم أن ابن الأثير ألف كتاباً بأسماء أعمدة المعاني للمنثور والمنظوم ذكر فيه من اقترح معنى ومن سرق منه وزاد عليه فقال في هذا الموضع إن المجنون تظرف حيث أسند الخفقان إلى القلب والتعليق إلى الشرك واما أنا فأقول إن قول عروة أبلغ لأن الكبد ليس من شأنه الحركة ولا الخفقان كما هو دأب القلب فإسناد الخفقان الناشيء عن العشق إليه أبلغ ولأن حركته تستلزم حركة القلب دون العكس ولا يساوي هذا المعنى كون محل التعقل ومسكن المحبوب كما في كلماتهم إذ الملحوظ حينئذ الروح الحيواني قوله عرّاف اليمامة قد سبقت قصته والعراف في الأصل الكاهن واستعمله هنا على الطبيب لاتحادهما لغة وما الشأتها يعني ما رددتها وهي كناية عن شدة المرض، وعمه المدعو عليه هو أبو عفراء وقد عرفت عذره، وقوله فلو إن واش باليمامة قد استعاره بالمجنون حيث قال:

ولو إن واش باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت أتانيا

وهي سرقة شنيعة مذمومة وهو هنا أظرف وأبلغ من حيث الإيهام لأن قوله أحاذره من شؤمه يحتمل أن يكون بأقصى فارس وهذا هو اللائق بالمبالغة. وأما حضرموت واليمامة فكلاهما في إقليم واحد فلا يعظم مجيء الواشي[1].

(١) داود الأنطاكي ، تزيين الأسواق ١ : ١٣٧ ، ١٣٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وشعر عروة بن حزام ، لم يعنى به الأدباء والشعراء فحسب ، وإنما تناوله اللغويون والنحاة وأكثروا من الإستشهاد بأشعاره ، مثل المبرد ، وابن جنى ، والعيني ، والأشموني ، وقد جمع أغلب تلك الآراء[1] والشواهد اللغوية البغدادي فقال : ـ

(لئن كان برد الماء، حران صادياً إليّ حبيباً إنّها لحبيب)

على أن الحال تقدمت على صاحبها المجرور بالحرف فإن قوله : (حران صادياً) حالان ، إما مترادفان أو متداخلتان ، تقدمتا على صاحبهما وهو ، الياء المجرور بإلى . وإلى بمعنى عند متعلقة بقوله حبيباً وهو خبر كان .

قال ابن جني في إعراب الحماسة : « وقد يجوز في هذا ، عندي وجه آخر لطيف المعنى ، وهو أن يكون حران صادياً حالاً من الماء أي كان برد الماء في حال حرته وصداه حبيباً إلي ، وصف الماء بذلك مبالغة في الوصف وجاء بذلك شاعرنا فقال :

وحبيت هجيراً يترك الماء صاديا[2]

وإذا صدى فحسبك به عطشاً فإن أمكن هذا ، كان حمله عليه جائزاً حسناً ورأيت أبا علي يستسهل تقديم حال المجرور ـ في نحو هذا ـ عليه ، ويقول : هو قريب من حال المنصوب » اهـ .

أقول : أراد بشاعره أي بشاعر عصره ، أبي الطيب المتنبي الوجه الذي أبداه تخيل صحيح ، فإن الإنسان يحب أن يكون الماء بارداً في حال كونه حاراً . ولكن الوجه الأول أحسن وأبلغ ، فإن الماء البارد أحب إلى الإنسان عند عطشه وحرارته من كل شيء . وهذا المعنى هو المتداول

(١) انظر الكامل للمبرد ١ : ٤٧ ، رغبة الأمل ١ : ١٣٥ ، ذيل الآلي ٧٣ ـ ٧٤ ، المقاصد للعيني ٢ : ٥٥٣ ، مغني اللبيب ١٤١ ، ذكر ذلك الدالي في تحقيقه للكامل ١ : ٤٧ .

(٢) صدر في ديوان المتنبي ٢ : ٤٦٨ :

* لقيت المروري والشناخيب دونه *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الشائع قال المبرد في الكامل : هو معنى صحيح ، وقد اعتوره الحكماء وكلهم أجاد فيه .

ومثل بيت الشاهد قول عمر بن أبي ربيعة :

قلت وجدي بها كوجدك بالما ء إذا ما منعت برد الشراب

فإن قوله : إذا ما منعت برد الشراب ، يفيد ما أفاده قوله : إلى حران صاديا ، فإنه يريد عند وقت الحاجة إليه ، وبذلك صح المعنى . ومثله قول القطامي :

فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

ينبذن : يرمين به ويتكلمن . والغلة بالضم : حرارة العطش .

ويروى عن علي رضي الله عنه ، أن سائلاً سأله فقال : كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا ، وآبائنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ .

والقول فيه كثير . وتعليق كونها حبيبة إليه على كون الماء حبيباً إليه في تلك الحالة ، من باب التعليق على المحقق . وقد صدق بعضهم في جعل البرد مصدراً ناصباً لحران وصادياً على المفعولية بتقدير الموصوف ـ أي جوفاً حران ـ وأن المراد جوف نفسه . وذلك هرباً من وقوع الحال في مثل هذه الصورة حتى إن بعضهم مع عدم التأويل يقول : لا حجة فيه ، لأن الشعر محل الضرورة .

وقوله : (لئن كان) اللام هي اللام المؤذنة ، وهي الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها ، لا على الشرط . وتسمى الموطئة أيضاً ، لأنها وطأت الجواب للقسم أي مهدته له ، سواء كان القسم غير مذكور كقوله تعالى (لئن أخرجوا لا يخرجون)[1] أم كان مذكوراً قبلها ، كما هنا فإن قبل هذا البيت قوله : ـ

---

(١) الآية ١٢ من سورة الحشر .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حلفت بـرب الـراكعين لـربهـم خشـوعـاً ، وفـوق الـراكعين رقيب

فجملة إنّها لحبيب ، جواب القسم المذكور وهو حلفت ، وقد أخطأ من قال : « إن هذه الجملة جواب الشرط . مع أن هذا القائل نقل ضابطة اللام الموطئة عن معنى اللبيب ، وضمير إنها لعفراء بنت عم عروة بن حزام »[1] .

وأنشد بعده ، وهو الشاهد الثلاثون بعد المائتين :

(يـطالبني عمي ثمـانين نـاقـة ومـالي يـا عفـراء الا ثمـانيـا[2])

على أن الفراء يجيز النصب على الإستثناء المفرغ ، نظراً إلى المقدر. استدلالاً بهذا البيت فإن المستثنى منه محذوف تقديره : ومالي فوق نوق إلا ثمانياً . ورده الشارح المحقق بما ذكره[3] .

أقول : هذا البيت من قصيدة نونية طويلة ، عدتها ثلاثة وسبعون بيتاً ، لعروة بن حزام العذري . والبيت قد تحرّف على من استشهد به ، وروايته هكذا :

(يكلفـني عـمي ثـمـانيـن بكـرة ومـالي يـا عفـراء غيـر ثمـان)

وروي أيضاً :

(يكلفني عـمي ثـمـانيـن نـاقـة ومـالي والـرحمن غيـر ثـمـان)

وعلى هذا الإستثناء على الطريقة المألوفة .

وهذه القصيدة ثابتة في ديوانه أقل مما ذكرنا ، وعدتها على ما فيه ثلاثة وثلاثون بيتاً ، وأوردها بالعدد الأول[4] القالي في آخر ذيل أماليه وفي

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) البغدادي ، خزانة الأدب ٣ : ٣٧٥ .

(٣) ديوان عروة ٤ وأمالي القالي ٣ : ١٦٠ برواية : « غير ثمان » .

(٤) شرح الرضى على الكافية ١ : ٢١٧ .

(٥) البغدادي ، خزانة الأدب ٧ : ٢٧٠ وورد في معاني الفراء ٢ : ٤٢٢ وابن يعيش ٩ : ٤٧ وشرح شواهد الشافية ٢٢٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أول نوادره[٢] . وقد ترجمنا لعروة بن حزام مع عفراء العذريين ، وذكرنا حكايتهما مفصلة في الشاهد السادس والتسعين بعد المئة[١]

والقصيدة غرامية فلا بأس بإيرادها ، لانسجامها ورقتها ، وأخذها بمجامع القلوب .

وأنشد بعده ، وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد الخمسمائة[١]:

(يا رب يا رباه إياك أسل)

على ان الهاء في (رباه) للسكت ، وتضم وتكسر.

وتقدم في باب المندوب أنها تفتح أيضاً عند بعضهم إذا كانت بعد ألف كما هنا ففيها بعد الألف ثلاث حركات .

وذكر هنا أنها تزاد في السعة وصلاً ووقفاً في آخر من «وإخوته[٢] وهي في نحو هذين البيتين في حال الضرورة ، وهذا قول الكوفيين وبعض البصريين . وقدم في باب المندوب أن الكوفيين يثبتونها وقفاً ووصلاً في الشعر وغيره ، ففي كلامه تدافع .

قال الفراء (في تفسيره) من سورة الزمر ، عند قوله تعالى : (يا حسرتا) يا ويلتا مضاف إلى المتكلم . تحول العرب الياء إلى الألف في كل كلام كان معناه الإستغاثة : يخرج على لفظ الدعاء .

وربما أدخلت العرب الهاء بعد الألف التي في حسرتا ، فيخفضونها مرة ويرفعونها . أنشدني أبو فقعس ، بعض بني أسد .

يا رب يا رباه إياك أسل عفراء يا رباه من قبل الأجل

فخفض. وأنشدني أيضاً:

يا مرحباه بحمار ناهيه إذا أتى قربته للسانية

والخفض أكثر في كلام العرب ، إلا في قولهم : يا هناه وياهناه ،

---

(١) أمثال هناناه وهمانية وهنوناه وهنتاه وهتناناه وهنتأته وهنانك . انظر الرضى ٢ : ١٢٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالرفع في هذا أكثر من الخفض ، لأنه كثر في الكلام ، فكأنه حرف واحد مدعو . انتهى .

وظاهره على إطلاقه لا يختص بضرورة عندهم ، وأما عند البصريين فلا يجوز تحريكها ، ولا تلحق وصلاً في غير ياهناه .

والبيتان المذكوران وقعا بلا مناسبة (في أوائل إصلاح المنطق ليعقوب ابن السكيت) ، قال شارح أبياته يوسف بن السيرافي : لم ينشد يعقوب هذين البيتين ولا الأبيات التي بعدهما شاهداً لشيء تقدم ، وإنما أنشد ذلك لأن الهاء تضم وتكسر ، وهذا لا يتعلق بالباب . وهذه الهاء ليست من الكلمة ، وإنما دخلت للوقف ، ثم احتاج إلى وصلها الشاعر وحركها بالكسر ، ومن ثم شبهها بهاء الضمير وهذا رديء جداً . عفراء إسم امرأة ، سأل ربه أن يريه إياها قبل أحد ويجمع بينهما . انتهى .

وقال الزمخشري (في المفصل) : وحق هاء السكت أن تكون ساكتة ، وتحريكها لحن ، نحو ما في (إصلاح المنطق لإبن السكيت) ، من قوله :

«يا مرحباه بحمار عفراء»

و«ويا مرحباه بحمار ناجيه»

مما لا معرج عليه للقياس واستعمال الفصحاء . ومعذرة من قال لك أنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، مع تشبيه هاء الوقف بهاء الضمير .

قال شارحه (ابن يعيش) : اعلم أنه قد يؤتى بهذه الهاء لبيان حروف المد واللين ، كما يؤتى بها لبيان الحركات[1] . ولا تكون إلا ساكنة لأنها موضوعة للوقف ، والوقف إنما يكون على الساكن . وتحريكها لحن وخروج عن كلام العرب ، لأنه لا يجوز ثبات هذه الهاء في الوصل فتحرك ، بل إذا وصلت استغنيت عنها بما بعدها من الكلام .

فأما قوله :

---

(١) بعده في ابن يعيش : « نحو يا زيداه وعمراه : وواغلا مهوه ، ووانقطاع ظهريه » .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

« يا مرحباه بحمار عفراء »

فإن الشعر لعروة بن حزام العذري وقول الآخر :

« يا مرحباه بحمار ناجيه »

فإن عفراء من الدنيا أمل كلمت رهبان دير في قلل[1]

لزحف الرهبان يمشي وزحل

وقد راجعت ديوان عروة فلم أجد هذا الرجز .

وقوله : « عرق دهر ذي خبل » . العرق ، بفتح العين وسكون الراء المهملتين : مصدر عرقت العظم ، من باب نصر ، إذا أكلت ما عليه من اللحم . والخبل : الفساد . والعيل ، بفتحتين : لغة في العيال .

وتهتف : تصوت . والخلل بضم ففتح ، قال الصاغاني : هي برود اليمن . والحلة : إزار ورداء لا تسمى حلة حتى تكون ثوبين . والدرع بأكسر : ثوب المرأة خاصة ، ويخل بالخاء المعجمة ، أي يتفقد .

والخائل : الحائط للشي ، يقال فلان يخول على أهله ، أي يرعى عليهم ويتفقدهم .

وأسل : أصله أسأل ، مخفف بحذف الهمزة . وزحل بالزاء المعجمة والحاء المهملة : فارق مكانه وجاء إليها .

فضروره وهو رديء في الكلام ، وإنما اضطر الشاعر إلى التحريك لأنه لا يجتمع ساكنان في الوصل على غير شرك إلا حرك . وقد رويت بضم الخاء وكسرها . فالكسر لالتقاء الساكنين ، والضم على التشبيه بهاء الضمير . وبمد هذا البيت :

إذا آتى قربته لما شاء من الشعير والحشيش والماء

ومعناه أن عروة كان يحب عفراء ، وفيها يقول :

يا رب يا رباه إياك أسل عفراء يا رباه من قبل الأجل

(١) في اللسان : « في القلل » .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

« فإن عفراء من الدنيا الأمل »

ثم خرج فلقي حماراً عليه امرأة قيل له : هذا حمار عفراء : فقال :

« يا مرحباه بحمار عفراء »

فرحب بحمارها لمحبتها ، وأعد له الشعير والحشيش والماء ونظير معناه قول الآخر :

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب[1]

وهذا من رجز أورده أبو محمد الأسود الأعرابي (في ضالة الأديب) ولم ينسبه إلى أحد ، وهو :

(إليك أشكو عرق دهر ذي خبل وعيلاً شعثاً صغاراً كالحجل)
وأمهم تهتف تستكسي الحلل قد طار عنها درعها ما لم يخل
يا رب يا رباه إياك أسل عفراء يا رباه من قبل الأجل

أنشد فيه ، وهو الشاهد الخامس والخمسون بعد التسعمائة[2] :

(يا مرحباه بحمار عفراء)

على أن هاء السكت فيه قد روي بالوجهين بالضم والكسر .

وظاهر كلامه أن تحريكها بما ذكر في إثباتها وصلاً بعد الألف لغة . وتقدم منه في باب الندبة أن ثبوتها في الوصل مكسورة أو مضمومة ضرورة عند البصريين ، وجائز عند الكوفيين . وزاد هنا أنها بعد الواو أيضاً تكسر وتضم ، وأنها بعد الألف تفتح أيضاً .

وذكر في باب العلم أن جواز تحريكها بالضم والكسر في السعة إنما

---

(١) انظر عيون الأخبار ٤ : ٤٣ وجمل الزجاجي ١٩٥ .

(٢) البغدادي ، خزانة الأدب ١١ : ٤٥٧ ، في إصلاح المنطق ١٠٥ والمنصف ٣ : ١٤٢ ونظام الغريب ١٦٢ وابن يعيش ٩ : ٤٦ . والضرائر ٥١ ، وروايته في نظام الغريب : « عفراء ، بما شاء ، والماء بالقصر في القوافي كلها » .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هو في : يا هناه وأخواته . فوجب أن يحمل ما هنا على ما تقدم من كلامه ليوافق كلامه في جميع المواضع مذهب البصريين . وكان ينبغي أن يقدم الكسر على الضم فإنه الأصل في التخلص من التقاء الساكنين ، وأما التحريك بالضم تشبيهاً بهاء الضمير فهو أردأ الوجهين . وتقدم في الشاهد السابع والأربعين بعد المائة توجيه تحريكها في الوصل (من الخصائص لابن جني) ، بأنه منزلة بين منزلتي الوقف والوصل .

وذهب ابن جني في بعض كتبه (وهو شرح ديوان المتنبي) إلى أن تحريكها شاذ ضعيف عند البصريين ، لا يثبتونه في الرواية ، ولا يحفظونه في القياس ، من جهة أنه لا يخلو من أن تجري الكلمة على حد الوقف أو على حد الوصل . فإن أجراها على حد الوصل فسبيله أن يحذف الهاء وصلاً لاستغنائه عنها . وإن كان على حد الوقف فقد خالف ذلك بإثباته إياها متحركة ، وهي في الوقف بلا وقوله :

« يا مرحباه بحمار عفراء »

بعده :

إذا أتى قربته لما شاء من الشعير والحشيش والماء

عفراء هي محبوبة عروة بن حزام العذري ، قال عيسى بن إبراهيم الربعي[1] (في نظام الغريب[2] ، وهو تأليف قديم في اللغة : ولد الظبية ، سمى بذلك لأن لونه لون العفر ، وهو التراب ، ولذلك قيل : ظبي أعفر . ظبية عفراء ، وبه سميت المرأة عفراء . وأنشد هذه الأبيات الثلاثة .

وقال ابن يعيش : كان عروة يحب عفراء ، وفيها يقول :

« يا رب يا رباه إياك أسل »

---

(١) أبو محمد عيسى بن إبراهيم الربعي لغوي كان عليه المعول في اليمن ، توفي سنة ٤٠٨ . بغية الوعاة ٣٦٨ .

(٢) نشره المستشرق بولس برونله في مطبعة هندية سنة ١٩١٣ . وانظر المستشرقون ٢ : ٨٠١ . والنص التالي في نظام الغريب ١٦٢ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم خرج فلقي حماراً عليه امرأة فقيل له : هذا حمار عفراء . فقال :

« يا مرحباه بحمار عفراء » الخ

فرحب بحمارها لمحبته لها ، وأعد له الشعير والحشيش والماء . ونظير معناه قول الآخر :

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب[1]

خلاف ساكنة ، ولا يعلم هنا منزلة بين الوصل والوقف يرجع إليها ، وتجرى هذه الكلمة عليها ، فلهذا كان إثبات الهاء متحركة خطأ عندنا انتهى .

وقد رجع عن هذا (في الخصائص) كما نقلناه هناك .

وقوله : « إثبات الهاء متحركة خطأ » ، تبعه فيه الزمخشري (في المفصل) . قال : وتحريكها لحن .

وكذا قال صاحب اللباب . وهذا مما لا ينبغي ، فإن العرب معصومون عن الخطأ واللحن في الألفاظ ، حتى قيل : إن البدوي لا يطاوعه لسانه في ذلك .

صاحب الشاهد والبيت الشاهد لعروة بن حزام العذري ، وهو من صميم العرب في صدر الإسلام . ومن شعره أيضاً قوله :

يا رب يا رباه إياك أسل عفراء رباه من قبل الأجل[2]

وكذا قال المجنون قيس العامري ، وهو من اللسان بمكان :

فقلت أيا رباه أول سؤلتي لنفسي ليلى ، ثم أنت حسيبها

ومثل هذا مما يقع نظماً لا نثراً ضرورة.

---

(١) حمل الزجاجي ١٩٥ وابن يعيش ٩ : ٤٧ وعيون الأخبار ٤ : ٣٣ . وقد سبق في ٧ : ٢٧٣ .

(٢) معاني الفراء ٢ : ٤٢٢ وإصلاح المنطق ٩٢ وابن يعيش ٩ : ٤٧ وشرح شواهد الشافية ٢٢٨ ، وقد سبق الشاهد في ٧ : ٢٧٠ ـ ٢٧٤ .

(٣) ديوان المجنون ، ٦٧ وهمع الهوامع ٢ : ١٥٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولم أجد هذا الرجز في ديوان عروة ، ولعله ثابت فيه من رواية أخرى . وتقدمت ترجمته في الشاهد السادس والتسعين بعد المائة[1] .

وقالوا في هذه الأبيات : يجوز أن تروى بالمد والقصر : فإذا كانت من الضرب الخامس من السريع المشطور المخبون الموقوف : فعولان أو مفاعيل . ومثله :

يمتسكون من جذار الإلقاء بتلعات كجذوع الصيصاء[2]

وإذا قصرت كانت من الضرب السادس من مشطور السريع المخبون وأما قوله :

« يا رب يا رباه إياك أسل »

فقد تقدم شرحه في الشاهد الثاني والثلاثين بعد الخمسمائة[3] . وأما قول الآخر:

يا مرحباه بحمار ناجيه إذا دنا قربته للسانيه

فقد تقدم شرحه في الشاهد السابع والأربعين بعد المائة[4] .

---

(١) الخزانة ٣ : ٢١٥ ـ ٢١٨ .

(٢) الرجز في الخصائص ١ : ٢٨٠ والمنصف ٢ : ١٧١ والأشباه والنظائر ٣ : ١٦٨ .

(٣) الخزانة ٧ : ٢٧٠ ـ ٢٧٤ .

(٤) الخزانة ٢ : ٣٨٧ ـ ٣٨٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الرابع

ملحق :

- ما لم يرد في الديوان
- شعر عفراء
- ما قيل في حب عروة وعفراء

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما لم يرد في الديوان

قال عروة بن حزام : ـ

وآخر عهد لي بعفراء أنها ... تُريك بناناً كفّهن خضيب
عشية لا عفراء منك بعيدة ... فتسلى ولا عفراء منك قريب[1][2]

وقوله :

وكل محب قد سلا غير أنني ... غريب الهوى يا ويح كل غريبِ[3]

وقال :

ولست أرى نفسي على طول نايكم ... وبعدك مني ما حييت تطيب[4]
قاول ذكري أنت في كل مصبح ... وآخر ذكري عند كل غروب[5]

---

(١) أبو بكر ، محمد داود الأصبهاني ، الزهرة ١ : ٤٤٠ .

(٢) ورد البيت في الديوان بمعناه ولكن ألفاظه مختلفة :

عشية لا عفراء دان مزارها ... فترجى ولا عفراء منك قريب

(٣) أبو بكر ـ محمد داود الأصبهاني ١ : ٤٤٠ نسبها لآخر لكن الكتبي في فوات الوفيات ٣ : ٤٤٩ نسب بيتاً مقترناً به إلى عروة والبيت هو :

فواكبداً أضحت قريحاً كأنّما ... تُلذّ عنها بالكيّ كف طبيب

(٤) المرجع السابق : ٤٦٨ والبيت الثاني فيه إقواء .

(٥) الأنطاكي ، تزيين الأسواق ١ : ١٣٠ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله : ـ

وما عجبي موت المحبين في الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب[1]

ومن روى النون قوله :

ألفنا الهوى واستحكم الحبُّ بيننا وليدين ما مرت لنا سنتان
فذقنا رخاء العيش عشرين حجة أليفين ما نرتاع للحدثان

ولما جمعت دواوين الشعراء وشعر القبائل في القرن الثاني الهجري جمع ديوان عروة بن حزام كغيره من الشعراء وأقدم من أشار إلى ذلك ثعلب فقد أشار إليه كارل بروكلمان فقال : « ديوان عروة بن حزام العذري وأخباره مع عفراء بنت عمه عقال ، جمعه ثعلب : القاهرة ثان ٣ : ١٣٩ ، ويقول صاحب خزانة الأدب إن المبرد رواه فقال : « قال أبو عبد الله محمد بن عباس اليزيدي في روايته ديوان عروة بن حازم »[2] يدل على شيوع ديوان عروة في العصر العباسي الثاني وتعددت نسخه وانتشرت انتشاراً واسعاً وربما تعدد جامعوه فاختلفت نصوصها واختلف بعضها عن بعض ونستدل على ذلك بقول البغدادي : « وعندي ثلاث نسخ من ديوان عروة المذكور وقد راجعت الثلاث فلم أجده في واحدة منهم والله أعلم »[3] .

وقد ذكر كارل بروكلمان أن له أشعاراً في انجلترا بمانشستر ٤٤٥[4] وقد أورد عبد السلام محمد هارون ذكراً لديوانه في خزانة الأدب وقال « من ديوان عروة الورقة السابعة[5] لعله عثر على مخطوطه وقد قام بجمعه وتحقيقه ، إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، ونشر في بغداد مجلة كلية الآداب ٩٦١ م غ : ٢٠ ١٥٢ ـ ٢٥٨ ، بروكلمان الملحق ١ : ٨١ ـ ٨٢ »[6] .

---

(١) أبو بكر ، محمد بن داود الأصبهاني ، الزهرة ١ : ٤٣٩ .
(٢) خزانة الأدب ٣ : ٢١٥ .
(٣) خزانة الأدب ٣ : ٢٣١ .
(٤) كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ١ : ٢٠٢ .
(٥) خزانة الأدب ٣ : ٢١٧ .
(٦) دكتور عمر فروخ تاريخ الأدب العربي ١ : ٣٠٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعروة لم ينظم الشعر كلفاً به ، وحباً للشعر ، ولا رغبة في الظهور والشهرة ، ولم ينظمه عجباً بممدوح ، ولا بغية في نوال ، ولا استجداء لنوال ، كما عبر عنه المتنبي الصغير :

ولم أنظم الشعر عجباً به ... ولم أمتدح أحد من أرب
ولا هزني طمع للقريض ... ولكنه ترجمان الأدب[1]

وإنما شعره نفثات مكلوم ، وآنّات جريح ، ورحيق متيم ولهان ، وسلافة الوجد ، ونبض الحرمان ، فهو عند عروة ترجمان الوله والهيام ، والأنين والحنين .

وشعره لم يتبلور إلا بعد أن هزه الشوق ، وتمرد في قلبه طغيان الحب ، وشعر مثقل بالفراق والبعاد ، لذا كانت البداية بقصيدته النونية الطويلة التي استهلها برحلته الطويلة إلى صنعاء :

يا ربّ يا ربَّاه إياك اسْلْ ... عفراء يا ربَّاهُ من قَبلِ الأجَلْ
فإنّ عفراءَ من الدُّنيا الأمَلْ[2]

إليك أشكو عَرْقَ[3] دهرٍ ذي خَبَلْ[4] ... وعَيلا[5] شُعْثاً صغاراً كالحَجَلْ
وأُمهم تَهْتف[6] تَستكسي الحُلَلْ ... قد طار عنها دِرعُها[7] مالم يُخَلْ[8]
يا رب يا رباه إياكَ اسْلْ[9] ... عفراء يا ربَّاة من قبلِ الأجلِ
فإنّ عفراء من الدُّنيا أمل ... لو كلِّمتْ رُهبان دَيرٍ في قُلَلْ[10]

---

(١) الدكتور عمر الأسعد : المتنبي الصغير ٩٥ وهو الشاعر أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي المتوفى ٥٠٧ هـ .

(٢) البغدادي ، خزانة الأدب ٧ : ٢٧١ .

(٣) عرق دهر : العرق بفتح العين من عرقت العظم إذا أكلت ما عليه من اللحم .

(٤) الخبل : الفساد .

(٥) العيل : بفتحتين لغة من العيال .

(٦) تهتف : تصوت .

(٧) درعها : ثوب المرأة .

(٨) يخل : يشبك بعضه ببعض ، وقيل يُنفقد ، والخائل الحافظ للشيء ،

(٩) أسل : مخفف أسأل .

(١٠) نسب هذه الأبيات ابن يعيش في المفصل ، وفي إصلاح المنطق لابن السكيت . وذكر =

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لزحَفَ الرُّهبانُ يَمشِي وزَحَلْ[1]

ولما خرج لقي حماراً عليه امرأة ، فقيل له : هذا حمار عفراء فقال : « يا مرحباه بحمار عفراء »

إذا أتى قربته لما شاء ... من الشعير والحشيش والماء[*]
بي اليأسُ والداءُ[2] الهُيامُ[3] سُقِيتُهُ[4] ... فإيّاك عني لا يكن بك ما بيا

المراجع : الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٧ الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٧ .

المناسبة :

« كان عروة يأتي حياض الماء التي كانت إبل عفراء تردها ، فليتصق صدره بها ، فيقال له : مهلاً فإنّك قاتل نفسك ، فاتق الله ، فلا يقبل ، حتى أشرف على التلف ، وأحس بالموت فجعل يقول : البيت » .

- ١ -

شعر عفراء :

عداني أن أزورك يا خليلي ... معاشر كلهم واش حسود
أشاعوا ما علمت من الدواهي ... وعابونا وما فيهم رشيد
فأما إذا ثويت اليوم لحداً ... فدور الناس كلهم اللحود
فلا طابت لي الدنيا فراقاً ... لبعدك لا يطيب لي العديد

المراجع : داود الأنطاكي ، تزيين الأسواق في أخبار العشاق ١ :

=ذلك صاحب خزانة الأدب ٧ : ٢٧٢ وقال : « وقد راجعت ديوان عروة فلم أجد هذا الرجز » الخزانة ٧ : ٢٧٤ . وهي أيضاً لم ترد في المطبوع منه .

(١) زحل : من فارق مكانه وجاء إليها .

(*) الخزانة ٧ : ٢٧٤ .

(٢) الشعر والشعراء داء الهيام .

(٣) الهيام بضم الهاء : داء يصيب الإبل شبيه بالحمى تسخن عليه جلودها وقيل أنها لا تروى إذا كانت كذلك .

(٤) الشعر والشعراء « شربته » .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٣٣ وقد اختص برواية الأبيات .

المناسبة :

قالت هذه الأبيات بعد أن حاولت زيارة قبره ومنعها منه الوشاة والحساد فخشيت على نفسها وزوجها .

- ٢ -

يا عُرْوَ إن الحيَّ قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

المراجع : الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٠ .

المناسبة :

قالت هذا البيت عندما تزوجت أثالة بن سعيد .

- ٣ -

ألا أيها الركبُ المجنونُ ويحكمُ أحقاً[١] نعيتم عروة بن حزام
فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا بأن قد نعيتم بدر كل تمام[٢]
نعيتم فتى يسقي الغمام بوجهه إذ هي أمست غير ذات غمام
فلا نفع[٣] الفتيان بعدك لذة ولا ما لقوا من صحة وسلام[٤]
وبتن[٥] الحبالى لا يرجين غائباً ولا فرحات بعده بغلام
ولا وضعت أنثى تماماً بمثله ولا فرحت من بعده بغلام[٦]
ولا لا بلغتم حيث وجهتم له ونغصتم لذات كل طعام

المراجع : الشعر والشعراء ٢ : ٢١٧ ، الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٢٣ ، الأغاني ٩٥٧٥٢٨ ،

---

(١) في الأغاني والشعر والشعراء (بحق) . وفي التزيين (المحثون بدل المجنون) .
(٢) التزيين : « بدر كل ظلام » .
(٣) الأغاني « فلا تهنىء » .
(٤) الأغاني والشعر والشعراء : ولا رجعوا من غيبة بسلام .
(٥) الأغاني والشعر والشعراء : (وقل للحبالى) الخزانة .
(٦) البيتان زيادة في تزيين الأسواق .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فوات الوفيات ٢ : ٤٤٩ تزيين الأسواق ١ : ١٣٢ خزانة الأدب ٣ : ٢١٧ .

المناسبة :

لما مات عروة بن حزام أراد فتية من القوم العبث بعفراء في بيتها فقال أحدهم :

ألا أيّها البيت المغفل أهله إليكم نعينا عروة بن حزام

ففهمت عفراء الصوت ونادت :

ألا أيها الركب المجنون، ويحكم أحقاً نعيتم عروة بن حزام

ما قيل في حب عروة وعفراء :

وأصبحت قصة عروة بن حزام وعفراء ذات سيرورة على ألسنة الشباب والفتيات حتى تعجب منها مجنون بن عامر ورأى أنها أكثر سرياناً وشيوعاً من جنونه وهيامه فقال :

عَجِبتُ لعُروةَ العُذريّ أضحى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروةُ مات موتاً مستريحاً وها أنا ميّتٌ في كلّ يومٍ[1]

ويقول قيس بن ذريح :

وفي عروة العذري إنْ متُّ إسوةٌ وعمرو بن عجلان الذي قتلت هندُ
وبي مثل ما قد نابه غير أنني إلى أجل لم يأتني وقته بعدُ
هل الحبُّ إلا عبرة ثم زفرة وحرٌّ على الأحشاء ليس له بردُ
وفيض دموع تستهلُّ إذا بدا لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو[2]

وقال :

فما وجدتْ وجدي بها أمُّ واحدٍ ولا وجد النهديُّ وجدي على هند

---

(١) الأغاني ٢ : ٥٠٢ ، ابن السراج القارىء مصارع العشاق ٢ : ٧٦ ، فيه أمسى بدل أضحى ، في الشطر الثاني (وها أنا ذا أفوت بكل يوم) .

(٢) فوات الوفيات ٣ : ٢٠٧ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا وجد العذري عروة في الهواي كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي[1]

وقال أبو عيينة[2] :

فما وجد النهدي إذا مات حسرة عشية بانت من حبائله هند
ولا عروة العذري إذا طال وجده بعفراء حتى شف مهجته الوجد
كوجدي غداة البين عند التقائها وقد طار عنهما بين أترابها البرد

وقال جميل بن معمر :

قد مات قبلي أخو نهد وصاحبه مرقش واشتفى من عروة الكمد[3]
وإني لا أحسب أو قد كدت أعلمه أن سوف توردني الحوض الذي وردوا

وقال آخر :

وقبلك مات من وجد بهند أخو نهد وصاحبه جميل
وعروة والمرقش هام دهراً يا سماء فلم يغن العويل
قتيل الريح من قبل الغواني فلا قود ولا يؤدي قتيل[4]

وقال جرير[5] :

هل أنت شافية قلباً يهيم بكم لم يلق عروة من عفراء ما وجدا
ما في فؤادي من داء يخامره إلا التي لو رآها راهب سجدا
إنّ الشفاء وإن ضنت بنائله فرع الشيام الذي تجلوا به البردا

ويقول جرير[6] :

لولا مراقبة العيون أرينا مقل المها وسوالف الأرام

---

(١) تزيين الأسواق ١ : ١٤٠ ونسب إلى جميل بثينة الديوان تحقيق د . حسين نصار ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) تزيين الأسواق ١ : ١٢٩ .
(٣) الزهرة ١ : ١٥٧ ، الديوان جميل بثينة تحقيق د . حسين نصار ٥٩ .
(٤) تزيين الأسواق ١ : ١٢٩ .
(٥) تزيين الأسواق ١ : ١٢٩ .
(٦) العقد الفريد ١ : ٢٨٦ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هـل ينهينـك إنْ قتلن مـرقشـاً أو مـا فعلن لعـروة بن حـزام

وقال الشهاب محمود فيما زعموا أن شجرتين نبتتا على قبريهما ثم تعانقتا بعد قامة وإلتف كلٌ منهما على الأخرى[1] :

يا الله يا سرحة الوادي إذا خطرت تلك المعاطف حيث الرند والغار
فعانقيهم عن الصب الكئيب فما على معانقة الأغصان إنكار

وقال الأنطاكي[2] :

غصنان من دوحة طال ائتلافهما فيها فجالت صروفها الدهر فافترقا
فصار ذا في يد تحويه ليس له منها براح وهذا في الغلاة لقا
حتى إذا ذويا يوم وضمهما بعد التفرق بطن الأرض واتفقا
حنا على العهد في أرجائها فحنا كلٌ على ألفه في الترب واعتنقا

ويقول ربيعة الرقي من قصيدة طويلة :

كرام الناس قبلي قد أحبوا كرائمهم وأحببن الكراما
جميل والكثير قد أحبا وعروة من هوى لاقى الحماما
هم سنوا الهوى والحب قبلي وما إلفي لهم في الناس ذا ما[3]

وقال كثير عزة :

وعروة لم يلق الذي قد لقيته بعفراء والنهديّ ما أتفجع[4]

وقد أخذ الشعراء كثيراً من معاني شعره وزادوا عليها ومنها قوله :

وإني لتعروني لذكراك روعة لها بين جلدي والعظام دبيب

أخذه بعضهم :

---

(١) تزيين الأسواق ١ : ١٣٣ .
(٢) تزيين الأسواق ١ : ١٢٩ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ١٦٤ .
(٤) كثير عزة الديوان ٣٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وقوله :

من كان من أخواتي باكياً أبداً فاليوم إني أُراني اليوم مقبوضا
يسمعنيه فإني غير سامعه إذا علوت رقاب القوم معروضا

سمعه بعض المحدثين فأخذه فقال :

من كان يبكي لما بي من طول وجد أسيس
فالآن قبل وفاتي لا عطر بعد عروس[1]

(١) الشعر والشعراء ٢ : ٦٢٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهرس المصادر والمراجع

أحمد ياشميل ، غزوة تبوك ، الطبعة الأولى .

أحمد بن عبد الستار الجواري ، طبع بدار الكتاب العربي بمصر عام ١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٨ م الطبعة الأولى .

الأخطل ، الديوان ، تحقيق فخر الدين قباوة .

الأنباري ، شرح القصائد العشر ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى .

أبو تراب الظاهري ، وفود الإسلام ، الطبعة الأولى .

الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج ، مصارع العشاق ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى .

جميل بثينة ، الديوان ، تحقيق حسين نصار .

جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة النهضة بغداد ، الطبعة الأولى .

ابن حزم ، طوق الحمامة . تحقيق حسن كامل الصيرفي .

خريستو نجم ، جميل بثينة والحب العذري ، الطبعة الأولى .

ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، تحقيق خليل شحاتة ، دار الفكر ، بيروت .

داود الأنطاكي ، تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، دار مكتبة الهلال ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .
الراغب الأصبهاني ، محاضرات الراغب الأصبهاني ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
ابن سعد ، الطبقات الكبرى .
السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ، أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكر هادي شكر .
السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، طبعة أولى .
شكري فيصل ، تطور الغزل في الجاهلية والإسلام .
شوقي ضيف ، العصر الإسلامي والأموي ، دار المعارف .
ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق : سعيد العريان ، طبعة أولى .
عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م .
عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، حققه : مصطفى السقا ، عالم الكتاب ، بيروت ، الطبعة الأولى .
د . **عبد الحميد زراقط** ، عشاق العرب ، دار البحار ، الطبعة الأولى .
عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب .
العسكري ، ديوان المعاني .
علي بن الحسن البصري ، الحماسة البصرية ، تحقيق : مختار الدين أحمد ، عالم الكتاب .
د . **عبد الأسعد** ، المتنبي الصغير .
عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م .
عروة بن حزام ، ديوان عروة بن حزام ، تحقيق : د . إبراهيم السامرائي ود . أحمد مطلوب .
كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المعارف بمصر الطبعة الثانية .
ابن كثير ، البداية والنهاية ، حققه جمع من الأساتذة ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
كثير عزة ، الديوان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى .
القالي ، كتاب ذيل الأمالي والنوادر ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر عام ١٩٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م .
أبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني ، تحقيق الأبياري ، كتاب الشعب المبرد .
الكامل ، تحقيق : محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة .
محمد بن داود الأصبهاني ، الزهرة ، تحقيق : د . إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الأردن ، الزرقاء ، طبعة أولى .
محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليه ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
محمد بن القاسم الأنباري ، الأضداد ، تحقيق محمد بن الفضل إبراهيم .
الواقدي ، كتاب المغازي تحقيق مارسدن جونس ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرست

المقدمة ٥

الفصل الأول

قبيلته ١١
الدور السياسي لبني عذرة ٢١
ظهور الغزل العذري ٢٥
الحب العذري في قبيلة بني عذرة ٣٠
أخبار عبد الله بن عجلان النهدي ٣٣
معاوية والفتى العذري ٣٦
الجعد بن مهجع العذري ٤٠
جميل بن معمر العذري ٤٧

الفصل الثاني

أسرته ٥١
نسبه ٥٦
زمن مولده ٥٩
مكان المولد ٦١
وفاته ٦٢
وفاة عفراء ٦٩
النشأة والتكوين الفكري ٧٤
تنامي الحب وغلبته ٧٩

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خطبة عروة لعفراء ٨٢
زواج عفراء ٨٦
رحلاته ٨٨
رحلته إلى صنعاء ٩١
رحلته إلى الشام ٩٢
رحلته إلى اليمامة ٩٥
رحلته إلى الحجاز ٩٩
رحلته الأخيرة إلى الشام ١٠١

الفصل الثالث

توصيف الديوان ١٠٧
نفسية الشاعر ١٠٩
لغته الشاعرية ١٢١
التقرير والسرد ١٣٤
الجملة الخبرية ١٣٧
التنبيه ١٣٩
الصورة الشعرية ١٤٢
الموسيقى ١٥٥
دراسة النونية ١٥٧
أقوال النقاد ١٨٧

الفصل الرابع

ملحق

ما لم يرد في الديوان ٢٠٥
شعر عفراء ٢٠٨
ما قيل في حب عروة وعفراء ٢١٠
المصادر والمراجع ٢١٥
فهرس الموضوعات ٢١٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قائمة الخطأ والصواب في كتاب العاشق العفيف .

* عروة بن حزام بحاء مهملة مكسورة وزاء معجمة مفتوحة .

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الاضافات
١١١	١	المصاب	الفصال	
١١٢	٨	الموته	أخواته	
١٢١	١٣	بنشئته	بنشأته	
١٢٣	٩	تترك	تدل	
١٢٣	١٠	أنه	أن	
١٢٥	٧	عرفا شاملا	عرفي شامل	
١٢٦	٢، ٤	هلها أن	هلهلان	
١٢٧	٨	التاء	الياء	
١٢٨	١	وان	دان	
١٣٠	٤	هلابن	هلال بن	
١٣٠	١٢	لموحشه	لوحشة	
١٣١	١٠،١٢	فاطفتها	فاطفتها	
١٣٢	١١	مستشرنا	مستشرفا	
١٣٤	١	فيقفي	فيقفي	
١٣٥	٣	مجارة	مجاراة	
١٤٣	٦ من الأخير	العنائين	العنانين	
١٤٤	٧	صاوي	صاويا	
١١٥		المنشأة :	النشأة	
١٤٤	٩	فهي	فهو	
١٤٩	٣	تترآى	تتراءى	
١٤٩	١٩	حبيبة	إلى حبيبه	
١٥٠	٢	أخناه	أضناه العرفي	
١٥٠	٩	جديد	جديدا	
١٥١	١٤	الجماليه	الجاهلي	
١٥١	١٩	إياهما	إياها	
١٥٢	٩	استحوذها عليها	استحوذها عليه	

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الإضافات
١٥٣	١٩	تخفقن	تخلق	
١٥٣	٢٢	هلها لان	هلهلان	
١٥٣	ما قبل الأخير	بيته	بيتها	
١٥٤	٩	وشحيها	وشاحيها	
١٥٦	٢	الاثنين	الأنين	
١٥٦		رآها	أراها	
١٥٩	الثونية ١	مصدرها (الديوان ص)	يكون في الهامش قبل رقم واحد *	
١٧٩	٩	الرعي	الرمي	
١٨٦	١٢	وشحيط	وشاحيها	

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net